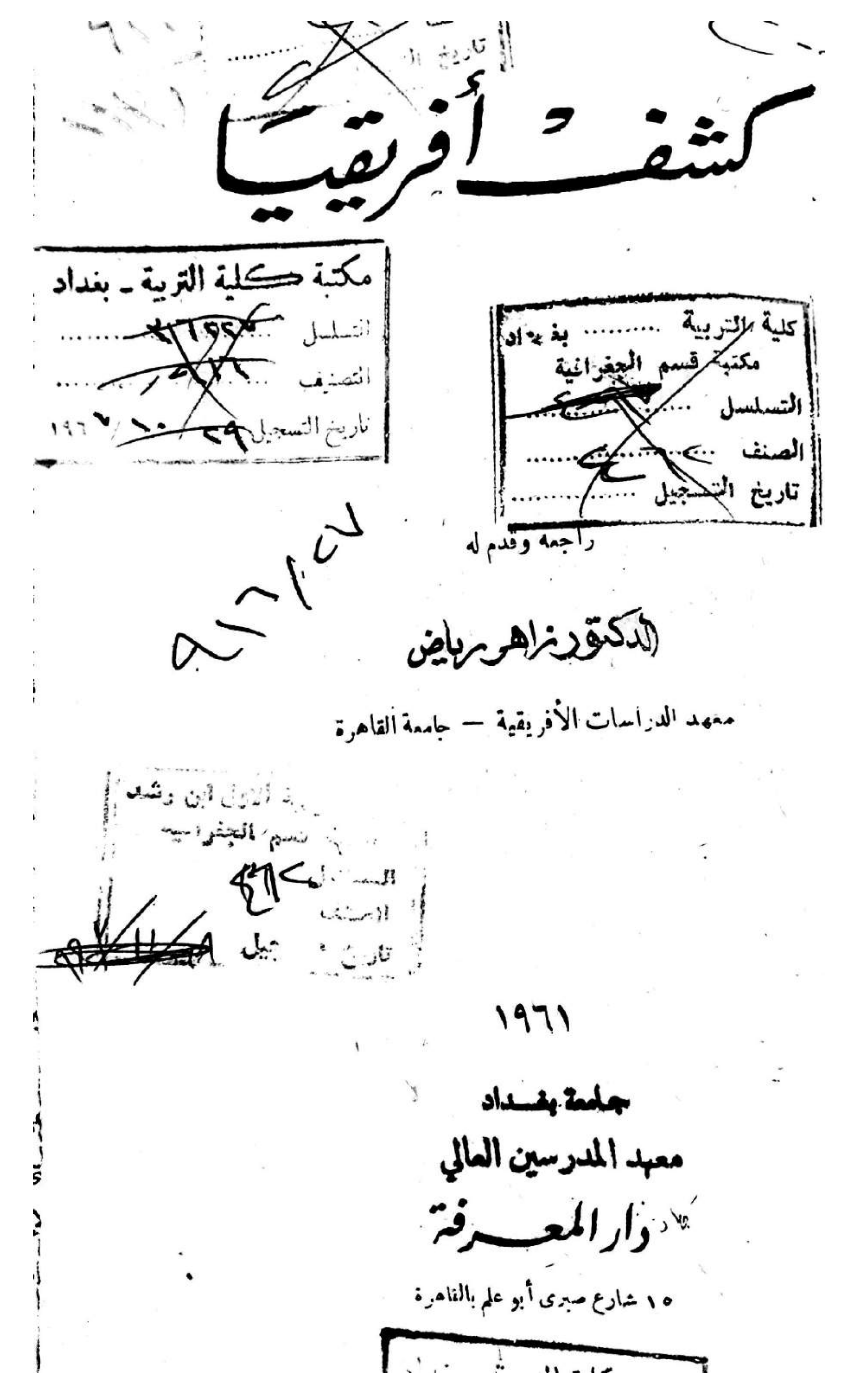


كشف أفريقيا

راجعه وقدم له

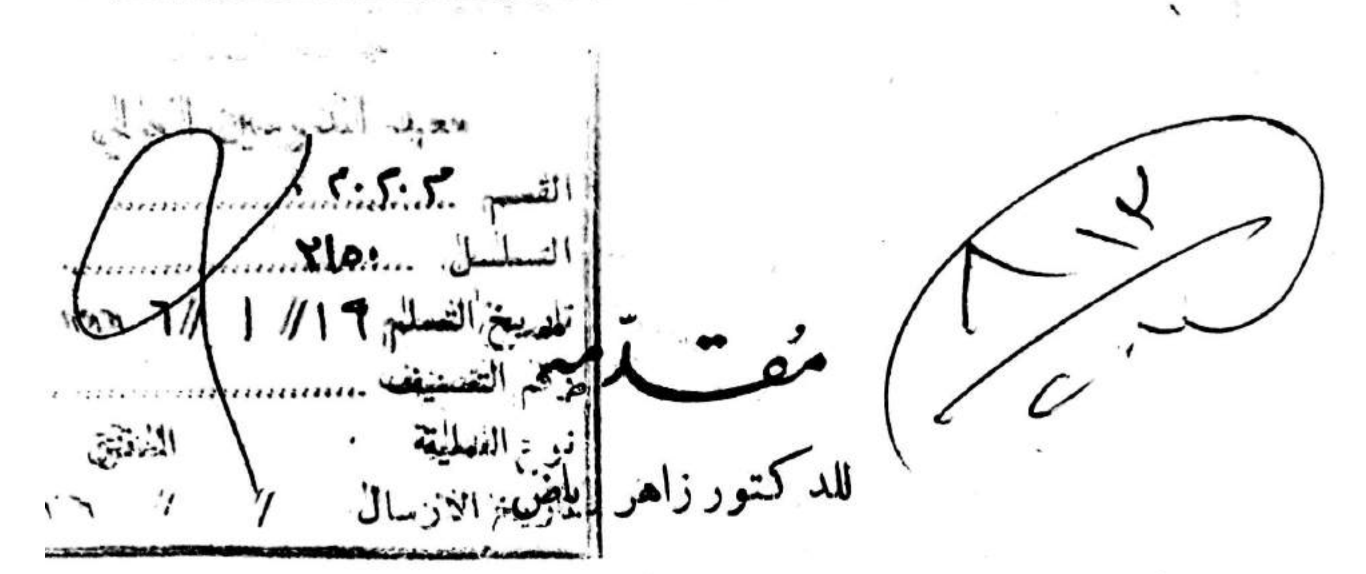
الدكتور زاهر رياض

معهد الدراسات الأفريقية — جامعة القاهرة

١٩٦١

دار المعرفة

١٥ شارع صبري أبو علم بالقاهرة



مقدمة

للدكتور زاهر رياض

أفريقيا ثانى قارات العالم اتساعا وعلى أطرافها الشمالية قامت أقـدم حضارة فى التاريخ وازدهرت هذه الحضارة وتقدمت حتى لقـد كفت سكانها وكان فى الاكتفاء ما يغنيهم عن السفر إلى خارج بلادهم ومع ذلك فإنهم رضوا مختارين أن يخرجوا ويقابلوا الصعاب من أجل كشف ما يجاورهم فكان المصريون القدماء أول من حمل عبء كشف هذه القارة

ورغم ذلك ظلت أجزاء كثيرة منها مجهولة تماماً من العالم الخارجى عامة ومن أوروبا خاصة حتى بداية القرن التاسع عشر حتى لقد لقبوها بالقارة السوداء حينا وبالقارة المجهولة حينا آخر .

ولما كانت هذه القارة كتلة ضخمة من اليابس كما أنها فى مجموعها هضبة عالية . تنصب عليها أكبر كمية من الأمطار السنوية بسبب اختراق خط الاستواء لمنتصفها اندفعت هـذه المياه نحو الأطراف تنصرف عن طريقها ولذا كانت عملية كشف أفريقيا عبارة عن كشف لأحواض أنهارها .

ولسنا فى صدد ذكر الأسباب التى دفعت بالأوروبيين إلى كشف هذه القارة فى القرن التاسع عشر بالذات فالتيار الفـكرى والحضارى الذى ساد أوروبا فى هذا القرن كان أكبر دافع لها علاوة على الرغبة فى الحصول على أكبر كميات ممـكنة من المواد الخام اللازمة للصناعة بسبب الثورة الصناعية التى اجتاحت أوروبا منذ بداية القرن . ثم إلى الرغبة فى تصريف ما زاد من هذا الإنتاج الصناعى .

ويقسم العلماء مراحل كشف هذه القارة إلى أربع فترات

أما الأولى فقديمة العهد بل موغلة فى القدم وهى مرحلة المصريين فى سبيل تأمين حدود دولتهم الجنوبية مما اضطرهم إلى محاولة التوغل نحو الجنوب ولكنهم إلى جانب ذلك حاولوا كشف السواحل ووجهوا إليه بعض عنايتهم فامتدت اكتشافاتهم إلى سيراليون فى الغرب ورأس دلجادو فى الشرق . وأخذت سفنهم تتردد على هذه السواحل لأجل التجارة .

أما المرحلة الثانية فهى التى تمتد من القرن الخامس عشر حتى السابع عشر والتى قادها البرتغاليون لأجل كشف الطريق إلى الهند . وتوقفت الكشوف بعد ذلك لأن التجار الأوروبيين اكتفوا بأن يتخذوا من شواطىء هذه القارة سوقاً للرقيق فأخذ البريطانيون والفرنسيون وكذلك البرتغاليون والهولنديون يتخذون من شواطىء هذه القارة محطات تجارية تقوم بشراء العبيد وشحنه إلى أمريكا وغيرها من المستعمرات لتشغيلهم فى الزراعة .

وتبدأ المرحلة التالية وهى مرحلة محاولة إدخال الحضارة الأوروبية إلى هذه القارة برحلة بروس فى أواخر القرن الثامن عشر لكشف منابع النيل وقد قاد معظم هذه الرحلات قواد حركة إلغاء الرقيق لأجل القضاء على هذه التجارة المقوتة . وعندما صدر قانون الإلغاء سنة ١٨٣٠ شعر المسؤلون أن مجرد صدور القانون لن يكفى للقضاء عليها بل لابد من العمل لتعويض هؤلاء التجار عما فقدوه فاتجهت الجهود إلى إرسال الحملات إلى حوض النيجر لغرض تقدم التجارة مع هذه الأنحاء .

وتأتى بعد ذلك المرحلة الرابعة وهى التى نسميها مرحلة الكشف السياسى وهى التى بدأتها الدول الاستعمارية فى منتصف القرن التاسع عشر لغرض الحصول على مستعمرات لأجل الحصول على المواد الخام

ولقد حمل المصريون الأولون — كما ذكرنا — لواء بدء الحركة الكشفية لهذه القارة منذ أن أرسل الملك سحورع أحد ملوك الأسرة الخامسة حملته إلى بلاد الصومال — جنوبى خليج عدن — لجلب العطور وخشب المر · ونجاح هذه البعثة يدل على معرفة المصريين لهذه البلاد من قبل وبعضهم يعود بهذه المعرفة إلى أيام الأسرة الأولى وإن لم نجد نقشا يبين ذلك مما يدل على أن دوافع هذا الكشف لم تكن غير إقامة علاقات تجارية ثابتة مع سكانها .

أما التوغل عن طريق النيل فقد بدأ أيام الملك بيبى الأول حوالى سنة ٢٥٠٠ ق م حين أرسل حملة إلى بلاد النوبة (ما وراء الشلال الأول) وجند من أهلها فرقا للجيش المصرى استعملها فى غزواته الشمالية واعتاد كلما أراد جيشاً لصد البدو عن شرق الدلتا أن يرسل إلى إونا حاكم بلاد النوبة يطلب حشد جنود نوبية وكان مركز الحاكم جزيرة الفنتين جنوبى الشلال الأول وجرت العادة أن يسمى الجزء المجاور للشلال الأول (باب القطر الجنوبى) ولقب الحاكم (بحارس الباب الجنوبى) مما يدل على أنهم كانوا يعرفون مسافة كبيرة جنوبى الشلال .

وقد أمر الملك مرن رع بن بيبى بفتح خمسة مسالك فى صخور الشلال الجرانيتية .وقد اهتم المصريون بكشف هذه الأنحاء لأنها الطريق الوحيد لأقاليم السودان الجنوبية الغنية التى كانت تصدر لمصر الذهب وسن الفيل وريش النعام وخشب الأبنوس وجلد الثور . كما تأتى منها صادرات الصومال من المر والصموغ العطرية والبخور .

وقد سافر مرن رع إلى بلاد النوبة حيث قدم له رؤساء القبائل خضوعهم وقد وصلت غزوة مرن رع إلى قبائل يام التى كانت تسكن المنطقة شمالى الخرطوم الحالية وكانت تحت قيادة خوف حر .

وفى أيام بيبى الثانى الذى حكم أكثر من تسعين سنة أرسلت حملة بحرية إلى الصومال فقد جاء فى نقوش مقبرة أحد مستخدمى رؤساء قبيلة الفنتين أنه سافر مع سيده إلى الصومال أكثر من إحدى عشرة مرة وعاد سالما .

ويبدو أن البلاد التى تقع شمالى الخرطوم أمدت مصر بخيرة جنودها فقد كانت تسكنها قبائل مازوى وقد أصبحت هذه الكلمة فيما بعد تعنى جندى ودخلت اللغة القبطية وأصبحت ماتوى ومعناها جندى .

وتكررت غزوات ملوك مصر فى عهد الدولة الوسطى ويبدو أن النفوذ المصرى قد تركز فى منطقة السودان الأوسط إذ تذكر لنا نقوش الملك سيزوستريس أنه أمر أمنى حاكم قسم الوعل بالذهاب إلى النوبة على رأس أربعمائة جندى ليحضر الذهب من السودان وأرسل معه ابنه الذى صار فيما بعد امنمحت الثانى وهذا يدل على اطمئنان الملك إلى تلك الجهات .

ومن المعروف أنه قد أطلق على سيزوستريس الثالث فى عهد الامبراطورية اسم فاتح النوبة . ثم عبدوه فى عهد الأسرة الثامنة عشر باعتباره إله الجنوب .

وتعتبر رحلات المصريين أيام الملكة حتشبسوت فى القرن الخامس عشر قبل الميلاد رحلات استكشافية من الدرجة الأولى . إذ شهدت جدران معبد الدير البحرى بوادى الملوك أخبار رحلات المصريين إلى الصومال إذ نجد هناك (فى السنة التاسعة من حكم الملكة أقيمت الاحتفالات وقدمت القرابين إلى معبودات الهواء ليتفضلوا على أسطول الملكة بالرياح الطيبة التى تساعده على السفر) وأقلعت السفن وكان عددها خمسين سفينة فتركت الأراضى المصرية عن طريق وادى الطميلات ووصلت إلى بلاد الصومال حيث قدمت هديتها إلى حاكم الصومال وحملت السفن من نتاج هذه البلاد الشىء الكثير وبعض هذه الأشياء

تدلنا على البلاد التى قصدها المصريون فى رحلتهم مثل العاج النقى ولا بد أنه من منطقة السفانا التى حول البحيرات) وكذلك النسانيس فلما شاهدت جلالتها الخيرات تبرعت من فورها بجزء منها إلى المعبود آمون وقد سجلت جدران المعبد من هذه الهدايا . واحداً وثلاثين من أشجار المر الخضراء التى زرعت فى صحن المعبد . وفى هذه النقوش نجد إكوام المر وقد بلغ ارتفاعها ضعف ارتفاع الرجل أما حلقات الذهب فتوزن بموازين يبلغ ارتفاع الواحد منها عشرة أقدام .

وكما تقدم المصريون من ناحية البحر تقدموا أيضاً بواسطة النيل فتصور لنا نقوش الدولة الحديثة زنوجا يسكنون الأجزاء التى تلى التقاء النيل الأزرق بالنيل الأبيض وقد صوروهم بالملامح الزنجية وهم يكادون أن يكونوا عراة . وقد بالغ الفنان المصرى فى رسم أعضاء هؤلاء الزنوج حتى بدت صورهم قبيحة ويبدو أنهم قصدوا الهزل من ذلك . بدليل ما فعلوه حين حرفوها إلى أشكال حيوانات . وفى مقبرة حاكم النوبة فى عهد توت عنخ آمون نجد صور الزنجيات يحملن أولادهن فى سلال خلف ظهورهن يعرضنهن للبيع . كما رأيناهم يتخذون من هؤلاء الزنوج أمثلة لتماثيل صغيرة يتخذون منها مقابضاً لعصيهم .

ومن الرحلات الأولى أيضاً لاستكشاف أفريقية ما قام به الفينيقون إذ المعروف أنهم أقاموا لهم مستعمرة على الساحل الشمالى لأفريقيا هى قرطاجة مكان تونس الحالية . والفينيقيون تجار فليس بغريب أن تبحر سفنهم إلى البلاد البعيدة لاستكشافها وتبادل التجارة مع سكانها . فحوالى سنة ٥٠٠ ق . م أبحر هانو بسفنه واخترق أعمدة هرقل (بوغاز جبل طارق) . وسار إلى الجنوب موازياً الساحل الغربى لأفريقيا . بقصد إنشاء مستعمرات جديدة فوصل إلى نقطة تقع جنوبى نهر غمبيا وتاجر مع سكان هذه الأجزاء .

وقد اهتم البطالمة بالتجارة فلا عجب أن سعوا لاستكشاف أراض جديدة

يحملون إليها بضائعهم . أو يحملون منها بضائع لهم . فقد وصل اليونانيون إلى الساحل المقابل لجزيرة زنجبار ، وقد زعم أحد هؤلاء اليونانيين أنه سافر من الساحل متوغلا إلى الداخل لخمسة عشر يوماً حتى صار على مقربة من جبال شاهقة تتوج الثلوج هاماتها ويرجح أن هذا الفلاح اليونانى لم يتوغل بنفسه إنما سمع عن هـذه الجبال من التجـار الذين سكنوا هذه الأجزاء . وكان اليونانيون على اتصال تجارى بهم ، وقد ذكر ديوجين الرحالة أن فى أواسط أفريقيا عدة بحيرات وأن النيل ينبع من اثنتين منها وأن جنوب هذه البحيرات جبالا عالية تدعى جبال القمر ولم يكتب ديوجين كتاباً عن رحلاته ولـكنه قص أجزاء منها على جغرافى مواطن يدعى ماريانوس .

وقد ترك لنا بطليموس الجغرافى الذى عاش فى الاسكندرية فى القرن الثانى بعد الميلاد وصفا دقيقاً لمجرى نهر النيل حتى العطبرة وكذلك وصفاً لنهر العطبرة والنيل الأزرق والنيل الأبيض وترك لنا خريطة عن منابع النيل كما تخيلها حين جمع المعلومات التى اهتدى إليها من سبقه من المستـكشفين مما يدل على وصول بعض التجار فى عهد البطالمة أو أوائل العصر الرومانى إلى مناطق كينيا وأوغندة

وفى سنة ٦٦ م أرسـل الامبراطور نيرون اثنين من ضباطه فى بعثـة لاستكشاف منابع النيل الأبيض وقد ركبت هذه البعثة الزوارق وسافرت إلى الجنوب حتى بلغت منطقة السدود والمستنقعات وهناك رأت أن التقدم مستحيل فعادت أدراجها إلى روما ومعها من المعلومات ما يثبط الهمم فلم يجرؤ أحد بعدها على التوغل فى أعالى النيل

وحمل العرب لواء كشف شرق أفريقيا فى القرون الأولى بعد الميلاد . فقد كان تجار اليمن يجوبون البحار الجنوبية بمراكبهم فسكنوا شرق أفريقيا وأن اكتفوا بها ولم يحاولوا التوغل إلى الداخل . وقد اتخذوا من هذه السواحل

محطات لصيد الرقيق وحملوه إلى الدول التى تلح فى طلبه وهى الدولة الرومانية والدولة الفارسية كما امتلأت شبه جزيرة العرب بكثير من الرقيق السود الذين جلبهم التجار العرب من شرق أفريقيا فاستخدموهم فى حراسة قوافلهم وتزوج هؤلاء من العرب وتناسلوا معهم وأنتجوا نسلا عرف بشجاعته وسواد بشرته ومنهم عنترة العبسى .

وكان العرب أول من توغل فى إتيوبيا لمسافات بعيدة متخذين من مجارى نهر هواش وسيلة للولوج إلى الداخل . فقد كان انتصار أبى بكر على المرتدين وكذلك سلسلة الحروب التى قامت بين البيوت المالكة وأعدائها من الخوارج والشيعة سببا فى خروج كثيرين من العرب الذين أنفوا الخضوع لقريش إلى خارج شبه الجزيرة . وكانت التجارة سببا ثالثا لخروج كثيرين منهم وتوغلهم إلى أقصى غرب القارة .

ومما يؤسف له أن أحدا من هؤلاء لم يترك لنا شيئا نستدل منه على هذه الرحلات سوى ما رأيناه من آثارهم من انتشار الإسلام فى غرب القارة الشمالى وكانت تجارة الرقيق أكثر أنواع التجارة انتشارا ورأينا آثار هذه التجارة فى شرق أفريقيا أكثر من أى جزء آخر من القارة وما تركة ابن جبير وابن بطوطة كاف على ما بذل العرب من جهد فى رحلتهم وقد زار الأول من هذه القارة مصر وحدها أما الثانى فقد طاف بتونس ومصر ثم خرج إلى الحجاز واليمن ثم عاد إلى أفريقية عن طريق زيلع فتتبع موانى شرقى أفريقيا فوصل الى سلطنات مقديشيو وكاوة وظفار وكلها سلطنات كانت تمتد على ساحل أفريقيا الشرقى حتى حوض الزمبيزى وبعد رحلة طويلة فى آسيا وأوروبا وصل فيها من عمان إلى آسيا الصغرى إلى القسطنطينية ثم اتجه شرقاً إلى الصين وعاد مرة ثانية إلى مصر ومنها اتجه إلى تونس وتتبع ساحل أفريقيا الشمالى إلى طنجة وانحدر نحو الجنوب إلى فاس . ثم عبر الصحراء

الـكبرى حتى وصل إلى حوض النيجر ودخل سلطنات مالى وغانه حتى وصل إلى ساحل غانة وفى كل مرحلة من هذه المراحل كان يحاول التعرف بسلاطين هـذه البلاد وكبار أعيانها ليصف البلاد وأهلها وعاداتهم ويجالس ملوكهم وأكثر من كان مهتما بهم المسلمون من أهل هذه البلاد فيطيل فى وصفهم ومدحهم وتعتبر رحلة ابن بطوطة من الناحية التاريخية من أهم الوثائق التى تصور لنا العالم فى هذه الفترة من التاريخ . وإذا كان تجار العصور الوسطى من الأوربيين قد عرفوا بعض شواطىء أفريقيا إلا أن المماليك فى مصر عرفوا كيف يقصرونهم على الشواطىء بل منعوهم من أن يلجوا إلى البحر الأحمر خوفاً من أن يتعرفوا مصادر التجارة الهندية .

وقد أدى هذا التحريم على الأوروبين دخول القارة الإفريقية إلى جهلهم العام بها ولـكنهم كانوا يرون الحجاج الإتيوبيين يترددون على بيت القدس ولـكنهم لا يعرفون جنسيتهم ولا البلاد التى أتوا منها فيسمونهم هنودا مرة وفرسا مرة أخرى وأحباشا مرة ثالثة . حتى نشأت بينهم قصه عن ملك اسود يحـكم بلادا فسيحة فى جنوب مصر . أطلقوا عليه اسم القس حنا . ويرددون أنه أرسل إلى الامبراطور إما نويل الأول سنة ١١٦٥ رسالة يذكر فيها أنه يحـكم إثنين وسبعين ملـكا من دونه . وعنده عشرون مطرانا واثنى عشر اسقفا وأنه يذهب إلى الحرب ومعه ثلاثة عشر صليبا من الذهب كل واحد منها على رأس عشرة الاف فارس ومائة ألف من المشاه وأنه يود أن يسير إلى بيت المقدس لطرد الـكفار . وكان الحجاج يعيشون على أمل أن يروا يوما من الأيام هذا الملك القوى الذى يجىء من الخلف لنجدة المسيحين ولا ندرى كيف نبتت هذه الخرافة ويظن أن مصدرها تقرير كتبه أسقف سورى إلى البابا أنه سمع عمن يسمى يوحنا الذى كان ملـكا وقسا نسطوريا وأنه يحـكم فى الشرق وراء الفرات .

وربما يكون منشأ هذه الأسطورة أيضاً ما حاوله المغولي جورجان من غزو فارس وهزيمته وعودته فرددت الآذان المسيحيه اسمه ولم تلبث أن حرفته إلى جون أو حنا .

ولكن لم يلبث المسيحيون أن توغلوا إلى ما وراء الساحل السورى وآسيا الصغرى فتحولت الخرافة إلى من يسمى القس حنا الذى يحكم بلادا بعيده تكمن وراء مصر من الجنوب .

وبينما كان المسلمون فى شرق البحر المتوسط يدفعون بالمسيحيين إلى الوراء ويتسودون التجارة بين أوربا والهند كانت الأمور تجرى فى الغرب على عكس ذلك تماما . إذا قامت حروب صليبية شملت شبه جزيرة ايبريا كلها للتخلص من حكم المسلمين فلم يكد يشرق القرن الثالث عشر على نهايته حتى كان البرتغاليون قد أحتلوا لشبونه ودفعوا بنفوذهم على الساحل الغربى حتى رأس فنسان . وطرد ملوك قشتاله العرب من الأندلس وأطلوا على البحار الدافئة عن طريق ميناء اشبيلية التى تتركز ثروتها فى الاتجار مع إفريقيا وفى خلال قرن واحد أصبح لكل من الأسبان والبرتغال أسطول قوى مكنهما من السيادة على البحار .

ولم تلبث البرتغال أن استقلت من ملوك قشتالة وشغل ملكها جون الأول بتنظيم مملكته الجديدة ودفعها إلى الأمام وكان ذلك أيذانا ببدء التنافس بين أسبانيا والبرتغال وبداية الطريق الذى أدى بالأخيرة إلى تكوين إمبراطوريتها فيما وراء البحار وتتبع البرتغاليون العرب المطرودين فاستولوا على ميناء سبته سنة ١٤١٥ وظل فى يدهم حتى سنة ١٥٧٨ حين طردهم منها الملك عبد الله مؤسس الدولة الشريفيه .

فلم تمض سنة ١٤١٣ حتى قامت البرتغال بأولى حملاتها البحرية الخارجية

لتأديب القرصان فى شمال إفريقية وأدت هذه الحملة إلى إستيلائهم على ميناء سبتة معقل هؤلاء القرصان. ونصب عليها الأمير هنرى الذى لقب فيما بعد بالملاح. وهناك سمع من أفواه التجار الذين يأتون بقوافلهم إلى أبواب مدينته عن بلاد مسيحية علكها القس حنا تقع وراء الصحراء الإفريقية على شيء كثير من الثروة فمنها أتى هؤلاء التجار يحملون الذهب والعاج. وكان الأمير قد دخل فى زمرة فرسان القديس لويس وكرس حياته لقتال الكافرين فاستمد من حماسه الدينى فكرة الاتصال بهذه البلاد المسيحية حيث يستطيع أن يضع يده على منابع الثروة التى كانت سببا فى غنى أعدائه فى الدين ولن يكون هذا الطريق إلا خلف أملاك المسلمين القاطنين فى مصر وشمال إفريقيه فعمل على تنفيذ هذه الفكره واكتشاف الطريق إلى هذه المملكة المسيحية. وحينئذ عكنه خنق المسلمين بالإستيلاء على منابع الثروه كما أنه تبين أن مستقبل شعب البرتغال رهين بسيادته على البحار فعمل على إعاء موارد البرتغال البحرية. فاستقدم عددا من راسمى الخرائط الجغرافيه والفلكين من ميورقه وصقلية لتمرين رجاله وتعليمهم فن الملاحة على الطرق الحديثه. وعلى أساس علمى كما استقدم عددا من بنائى السفن من خليج بسكاى لتحسين صناعة بناء السفن وجعل السفن البرتغاليه صالحة للملاحة فى جميع الأجواء والبحار.

ومات الأمير هنرى بعد أن دفع شعبه إلى طريق الكشف والتوسع الاستعمارى وواصلت البرتغال عملها بعده فاكتشفت أراضى الزنوج على جانبى السنغال كما اكتشف الساحل الإفريقى حتى سيراليون والرأس الأخضر سنة ١٤٤٥ وحتى هذا الوقت لم يكن ثمة أمل فى الوصول إلى أرض القس حنا بادى التحقيق فاختفى العامل الدينى من حركة الإستكشافات وحل محله عامل تجارى محض الغرض منه

الربح . وقد استفاد البرتغاليون من هذه الرحلات أن تعودوا الرحلات الطويلة كما كسبوا المران فى الحرب البحرية خصوصا ضد الزنوج الذين أتخذوهم مادة لتجارتهم وأصبحت السفن البرتغالية على درجة من التقدم فى الصناعه مما يؤهل لها مكانا ممتازا وسط البحريات القويه فى القارة الأوروبية . كما أصبح الملاح البرتغالى إلى جانب إتقانه الملاحة محاربا ممتازا فى القارة الإفريقية .

وفى نفس الوقت الذى أتجهت فيه البرتغال إلى ناحية الشرق أتجهت أسبانيا إلى ناحية الغرب مما أدى إلى كشف أمريكا وقد لفت هذا الإكتشاف الأخير أنظار الدول الأوروبية أكثر مما لفته الطريق البرتغالى . ولذا كان الصراع لأجل السيادة على المحيط الأطلسى هو الذى أدى إلى حرب الارمادا ثم إلى إتجاه الدول إلى المحيط الأطلسى مما أعاد الغموض إلى إفريقيا .

فتوقفت فيها الاستكشافات لقرن ونصف أو يزيد . ولم يعاود النشاط حركة الكشف الإفريقى إلا فى نهاية القرن الثامن عشر حين بدأها جيمس بروس فى محاولته كشف منابع النيل .

ولا نستطيع أن نطلق على هذه الحركة إسم الاستكشافات الجغرافية لأفريقية لأن أحدا من الأوروبيين لم يحاول هذه الحركة فى داخل أفريقية بل أقصى ما نستطيع أن نطلقه عليها هو إسم استكشاف الطريق إلى أفريقيا لأنها كانت قاصرة على تأسيس المراكز التجارية على الساحل ولم يحاول أحد التوغل فى الداخل .

ونامت الحركة إلى نهاية القرن السابع عشر ولم يتخللها غير نزول الهولنديين فى أقصى جنوب القارة فى ١٦٤٠ حيث أسسوا أولى مستعمراتهم ولم يحاولوا كذلك الولوج إلى الداخل .

ولكن حركة الاستكشافات الحديثة لأفريقيا بدأت فى نهاية القرن الثامن

عشر حين أخذت الجمعيات الجغرافية التي تأسست في الدول الأوروبية في القيام بنشاط علمي من أجل كشف ما بقي من أجزاء العالم . وكانت أولى الرحلات العلمية رحلة جيمس بروس الاسكتلندى فى سنة ١٧٧٠ من أجل كشف منابع النيل وقد تمكن من كشف بحيرة طانا حين قدم إليها عن طريق البحر الأحمر ثم تتبع نهر الرهد حتى وصل إلى الخرطوم ومنها إلى القاهرة وظن حينئذ أنه قد حلت مسألة منابع النيل .

وفى سنة ١٨١٦ بدأ الاهتمام بالنيجر . بدأها البريطانيون بأودنى ثم ديكسون منجوبارك ثم لا ندر ثم كلابرتون وكانت وسيلتهم إلى ذلك محاولة الوصول إلى النيجر من الشمال عبر الصحراء . وكانت جهود كل من لا ندر ثم كلابرتون هى الحاسمة فى كشف حوض هذا النهر .

وفى سنة ١٨٢١ فتح محمد على السودان . وبدأ التوغل نحو داخل أفريقيا عن طريق النيل . فأرسل الكابتن سليم فى رحلتين إلى بحر الجبل فوصل حتى الخط الرابع من خط العرض الشمالية .

وتنبه البروتستانت إلى أهمية نشر الدين المسيحى بين وثنيى أفريقيا وبدأوا يعدون العدة لذلك وكانت وسيلتهم الكشف أولا ثم التبشير فأرسل موفات إلى جنوب أفريقيا حيث أسس المراكز التبشيرية على حدود صحراء كلهارى ولكن الدور الحقيقى لكشف جنوب القارة تم على يد الرحالة الدكتور لفنجستون الذى بدأ رحلاته إلى أفريقيا فى سنة ١٨٤٠ وتمكن من عبور صحراء كلهارى من الجنوب إلى الشمال فى سنة ١٨٤٩ حتى وصل إلى بحيرة نجامى فى حوض الزمبيزى الأعلى . وبين ١٨٥١ ، ١٨٥٦ تمكن من عبور القارة من الغرب إلى الشرق وكشف خلال ذلك عن الجزء الأعلى من نهر الزمبيزى . وفيما بين ١٨٥٨ ، ١٨٦٤ عن الجزء الأدنى لهذا النهر حيث استقر أخيرا إلى جوار بحيرة نياسا ثم تنجانيقا .

وفى خلال ذلك انتشر الحكم المصرى نحو جنوب السودان . وبدأ إسماعيل يشجع الرحلات العلمية من أجل كشف المنابع العليا الاستوائية لهذا النهر فأرسل السير صموئيل بيكر سنة ١٨٦٢ بينما كان برتن ثم سبيك يحاولان الوصول إليه من ناحية الشرق . فقد استقر السلطان سعيد بن برغش فى شرق أفريقية وأسس هناك دولة زنجبار القوية وأخذ يرحب بالتجار الأوروبيين والهنود والعرب ومن ثم اتخذ الرواد البريطانيون من مدن شرق أفريقيا قواعد للوصول إلى حوض النيل .

وفى سنة ١٨٦٤ التقى السير صمويل بيكر القادم من الشمال بجرانت القادم من الجنوب عند بحر الجبل وتم كشف هذا النهر بأكمله . وأكمل كشف بحيرة البرث المكتشف الإيطالى جيسى خلال السنين الأخيرة من حكم إسماعيل .

واكتشف الذهب فى جنوب أفريقيا فى سنة ١٨٦٩ فكان ذلك سبباً إلى قدوم أعداد كبيرة من الأوروبيين فاستقروا حول مناجمه وبدأوا يحتكون بالقبائل الأفريقية القاطنة فى الجنوب وهى قبائل الزولو والباسوتو والماشونا وغيرها .

وإذا ما استقر الدكتور لفنجستون على شاطىء بحيرة تنجانيقا وانقطعت أخباره عن العالم قلق عليه فارسل للبحث عنه الرحالة ستانلى حيث عثر عليه فكانت هذه أولى رحلات هذا الرحالة فى داخل إفريقيا .

وكان موت لفنجستون فى داخل إفريقيا وحيدا فى سنة ١٨٦٤ هو الذى أيقظ ضمير العالم مرة أخرى من أجل كشف بقية إفريقيا فاستخدم الملك ليوبلد المستكشف ستانلى أثر عودته من رحلته الأولى من أجل كشف حوض الكونغو وعقد المعاهدات مع زعماء القبائل هناك تمهيدا لادخال الحضارة إلى هذه الأصقاع . فبدأ ستانلى رحلاته الكشفية فى سنة ١٨٧٤ وقام من أجل ذلك برحلتين انتهيتا الى كشف حوض هذا النهر بأكمله . هذا بينما كان كامرون البريطانى يعبر القارة من

الشرق إلى الغرب فى سنة ١٨٧٥ مارا بخط تقسيم المياه بين الـكونغو والزمبيزى فـكان بذلك أول أوروبى . يجتاز هذه المنطقة من الشرق إلى الغرب .

وكان نجاح ستانلى فى كشف حوض الـكونغو وعقده المعاهدات مع الأهالى باسم ليوبلد ملك بلجيكا هو الذى دفع بفرنسا إلى المشاركة فى أعمال الـكشف كى تستطيع أن تشارك فى إمتلاك أجزاء من وسط إفريقية فأرسلت إلى هناك المستكشف برازا فى سنة ١٨٧٥ فظل يعمل هناك بين ١٨٧٥ و ١٨٧٨ فـكشف حوض نهر الأجوا وأيقين أنه لا يتصل بالـكونغو . وفى نفس الوقت أستولت فرنسا على مصب السنغال فى غرب إفريقيا وعلى نقطة أوبوك على مدخل البحر الأحمر الجنوبى ورسمت لنفسها أمالا فى قيام حزام إفريقى فرنسى يمتد عبر إفريقيا من الشرق إلى الغرب فأخذت ترسل المستكشفين والحملات الحربيه فى أثرهم فوصلت حتى بحيرة تشاد .

هذا بينما كان رولفس وشفاينفورت وجوستاف نختنجال الألمان يحاولون الوصول إلى وسط القارة من الشمال .

وإذا ما انهار الحـكم المصرى فى السودان فى سنة ١٨٨٥ نتيجة للثورة المهدية انقطعت أخبار أمين باشا حاكم مديرية خط الاستواء فأرسل لنجدته والمشور عليه المستـكشف ستانلى فسافر رحلته الرابعة عن طريق نهر الـكونغو فوصل إليه عند المشارف العليا لبحيرة فـكتوريا فى سنة ١٨٨٧ فحمله على الخروج عن طريق الشرق بعد أن اكتشفا معاً نهر سمليـكى .

وقد ساهمت البرتغال أيضاً فى أعمال الـكشف فى القرن التاسع عشر حين أسست مستعمرتيها على كل من ساحل أفريقية الشرقى والغربى فتمـكن Bihé من قطع المسافة بين غرب القارة وشرقها بين سنتى ١٨٥٣ و ١٨٥٤ .

ولم يكن نصيب العرب فى كشف أفريقيا فى العصر الحديث بأقل من أثرهم فى العصور الوسطى ، فعندما ذهب محمد بن عمر التونسى إلى دار فور فى سنة ١٨٠٤ خلال حكم محمد على فى مصر ، وترك لنا وصفاً شائقاً للطريق إلى هناك كما وصف كل من مر عليهم من طوائف السكان وأحوالهم الاجتماعية والسياسية فكان كتابه الأول من نوعه ...

كما ساهم الرحالة أحمد حسنين فى كشف الصحراء حيث قام برحلتين فيما بين سنتى ١٩٢١ و ١٩٢٣ كانت الأولى برفقة الرحالة البريطانية روزينافوربس وكان وحيداً فى الثانية وفيها كشف عن حقيقة موقع واحة الكفرة وصحح الأخطاء التى وقع فيها رولفس أثناء رحلته إليها .

زاهر رياض

مصر الجديدة فى أول نوفمبر سنة ١٩٦١

مصاعب كشف أفريقيا

غريب حقا أمر هذه القارة الافريقية . . . . فرغم كونها ثانى قارات العالم مساحة ورغم تعميرها بالسكان منذ بداية هجرات الانسان الأول ورغم أنها شهدت أعرق حضارات العالم القديم ممثلة فى حضارة الفراعنة فى شمالها الشرقى فى مصر فان ما عرف عن استراليا أو نيوزيلاند حتى أوائل القرن التاسع عشر كان يفوق ما عرف عن افريقية فى ذلك الوقت . . . وكانت خرائط افريقيا تظهر قلبها أبيض أو مشوش المعالم محشودا بالمعلومات الخرافية والكائنات المتوحشه [1] .

وإذا كان هذا البحث يتناول « مصاعب كشف افريقيا » فإن المصاعب المنظرية كانت هى الاخرى من أسباب جهل الأوربيين بجغرافية افريقيا . وتتصل معظم هذه المتاعب النظرية بالفكرة الجغرافية السائدة عن افريقيا فى العصور الوسطى بين الاوربين فقد كانوا يضعون القدس فى وسط العالم اشارة إلى أركان العالم الاربعه وكانوا يظنون أن الاقاليم الهامشية وحدود هذه الاركان تسكنها كائنات خرافية كالرجل ذى العين الواحدة أو الذى يحمل رأس حيوان أو الذى لا رأس له أساسا . كما روج البحاره لوهم غليان الماء عند خط الاستواء فى المحيط الاطلنطى الذى كان يسمى « بحر الظلمات » كما أن هذه المنطقه كانت فى نظرهم مسكونة بالافاعى الضخمة التى لديها القدرة على اغراق أية سفينه تجرؤ على الذهاب إليها . وكانت هذه الخرافات والمخاوف تمثل مصاعب تعيش جنبا إلى جنب مع المصاعب الفعلية فى الرحلات البحرية [2] .

1— Sir Percy Sykes, Abistory of Exploration pp. 212-213, and also Encyclopedia Britannica p. 320.

2— Hutton Webister, Early European History pp. 614—615.

وكان أزورارا المؤرخ البرتغالى الذى عاش فى وقت يقارب الوقت الذى قام فيه ابن بطوطه برحلته يقول انه بعد رأس بوجادور لا يوجد أثر للبشر أو السكان وتسود الاحوال الصحراوية التى تماثل صحراء ليبيا حيث لا أثر للماء أو الشجر أو العشب الاخضر وحيث البحر ضحل لدرجة أن مياهه لا ترتفع عن الارض بأكثر من قامة واحده بينما التيارات مخيفة لدرجة أن أيه سفينه تعبر الرأس أو تتخطاها لا تعود ثانية . بل أن بارثلميوودياز كان يعتقد فى سنة ١٤٨٦ أن السفن التى تبحر إلى الجنوب من ساحل غانه لابد أن تصل إلى نهاية اليابسه ثم تتوقف عن السير إلى الجنوب مضطره لعدم وجود أرض تستطيع الرسو عليها[٣]

كل هذا أدى إلى تعطيل حركة الكشف الافريقى فترات طويله ، وإذا كانت القارة الامريكيه قد تم تعميرها بعد الكشف بوقت قصير جدا بالمقارنه الى إفريقيا فان هذا يعنى أن افريقيا لا تقدم من تسهيلات الكشف والاستيطان ما تقدمة اميركا . فبينما سواحل أميركا الشرقيه غنيه بالرؤوس والخلجان مما يساعد على توفير الحماية الطبيعية للسفن فى الموانىء ويقدم المرافىء الجيدة ويسهل هذا بدوره من الاتصال البحرى نجد أن تعرجات الساحل الافريقى قليلة جدا فى الغرب وبينما تحيط مجموعات من الجزر بالسواحل الشرقية لاميركا فان الساحل الافريقى فقير جدا فيما يختص بمقابلة الجزر له . وحتى إذا وجدت الجزر فان تغلب المظاهر الجبليه أو الغابية لا تشجع على الاستقرار والاستيطان بعكس جزر الهند الغربية التى تقابل شرق القارة الاميركية مثلا . وإذا كان نهر الامزون فى اميركا الجنوبية يصلح للملاحه لآلاف الاميال ويمكن من اختراق القارة والتوغل إلى قلبها عن طريقه ، أو أن نهر سانت لورنس ومجموعة البحيرات العظمى يقدمان هذه الصفه فى اميركا الشمالية بالاضافة إلى نهر الهدسن

---

3 — Sykes pp 100—103.

ورافده الموهوك اللذان يقدمان فتحة فى هضبة اللجنى وجبال الابلاش تمكن من الوصول عن طريقها من الساحل الشرقى إلى قلب السهول العظمى فى أميركا الشماليه فان كل الأنهار الافريقية تقريبا فيما عدا النيل والنيجر إلى حدما تعترضها الجنادل والمساقط على أبعاد بسيطه من الساحل نظرا لأنها تسقط من الهضبة الافريقية القديمه إلى السهول الساحليه . . وبينما نجد قلب افريقيا صحراويا موحشا فى نصف القارة الشمالى واستوائى النبات والأمطار والحيوان فى النصف الجنوبى للقارة فاننا نجد قلب اميركا الشمالية بالذات منطقة حشائش يمكن استغلالها زراعيا واقامة حياة غنية بها . . وبينما يماثل مناخ أميركا الشماليه العروض المعتدله الدفيئة والبارده المقابله من أوربا نجد أن النصف الشمالى من افريقيا بصحرائه المجهدة الحراره وجفافه وجدبه أو مناطقها الأستوائية ونصفها الجنوبى بأمطارة الكثيرة وبعوضة وذبابه ومستنقعاته وغاباته الكثيفة يجعل من ساحل غانه مقبرة للرجل الابيض .

من هنا كان كشف افريقيا يتم ببطء ويستغرق فترات طويلة بعكس حركة الكشف فى اميركا الشماليه أو الجنوبيه أو حتى استراليا .

وفى هذا البحث سنقسم المصاعب إلى قسمين : القسم الأول وهو ما يتصل بالمصاعب الطبيعيه وتشمل اطار القارة ومداخلها وتضاريسها وأنهارها ثم النقل والمواصلات والأمراض المتوطنه فى القارة

والقسم الثانى ندرس فيه المصاعب البشرية شامله اللغات والاديان وعداء الاهالى وما تعرض له الرواد والمستكشفون بسبب أطماع الرؤساء والزعماء الوطنيين والمحليين .

المصاعب الطبيعية

كشف مهمة

التضاريس والسواحل والمواصلات والأنهار

أفريقيا قارة ضخمة المساحة فهى ثانية القارات فى هذا الشأن . ومساحتها تبلغ ١١٫٦ مليون ميل مربع وشكلها شبه مثلث يقسمه خط الاستواء إلى قسمين وقاعدته إلى الشمال . وعلى هذا فإن نصفها الشمالى أكبر مساحة من نصفها الجنوبى وبها ثلاثة أقاليم طبيعيـــة كبرى . الحشائش والصحارى والغابات ونسب مساحاتها على الترتيب ٤٢٫٣ ٪ ، ٣٩٫٣ ٪ ثم ١٨٫٤ ٪ والصحراء الأفريقية أكبر صحارى العالم إذا تبلغ مساحتها ٤٫٤٠٠٫٠٠٠ ميلا مربعا أى ما يوازى مساحة أوربا تقريبا .(١)

والواقع أن الجبال لا تمثل مصاعبا طبيعية فى وجه الكشف بقدر ما تمثل الصحارى الواسعة الجدباء المتشابهة المناظر والمظاهر والتى لا توجد بها موارد للمياه إلا فى الواحات المتناثرة القليلة التى تحتل جزءا من قلبها . وتطل هذه الصحراء أحياناً على المحيط مباشرة فى مناطق كثيرة من غرب القارة أو تترك سهولا ساحلية فقيرة وغاية فى الضيق . وحتى فى ساحل القارة الشمالى فإن المظاهر الصحراوية تتضح إلى الجنوب منه مباشرة فى ليبيا ومصر حيث تسجل فى بعض هذه المناطق أعلى درجات حرارة فى العالم ويسود الجدب والجفاف هذه المناطق .

---

(١) . محمد صفى الدين — افريقيا بين الدول الاوروبيه ص ٩٦ - ٨٧ .

وهناك فارق ضخم بين الساحل الافريقى والساحل الأوروبى مثلا إذ يتميز الأوروبى بالظهير الغنى والرؤس والخلجان والجزر وأشباه الجزر المتعددة بينهما يفتقر الساحل الأفريقى إلى كل ذلك مما يعطل تطوره البحرى ويجعله ساحلا طاردا يولى ظهره نحو البحر . خاصة وأنه يضاف إلى كل العيوب السابقة إستقامة الساحل وخلوه من الرصيف القارى الذى يسهل عملية قيام الموانى الطبيعية . بينما قد يرتفع قاع البحر فى مناطق أخرى وتصبح المياه ضحلة لا تمكن السفن الكبيرة من الرسو فيها ولعل كل هذا يفسر قيام الموانى الصناعية فى معظم أنحاء ساحل غرب أفريقيا فى العصر الحديث مثل تاكورادى وكوناكرى وتيما وأبيجان (٢).

وعند ذكر الظهير الفقير لا يجب أن ينصرف ذهننا فقط إلى الظهير الصحراوى ولكن المناطق التى توجد بها غابات إستوائية (أو التى كان بها هذا النوع من الغابات فى فترة الكشف الجغرافى) مثل ساحة غانه وغرب الكونغو والكميرون يمكن إعتبار ظهيرها هى الأخرى فقيرا لا يقل عن الصحراوى فى صعوبته خاصة فيما يتصل بالمواصلات حيث تقدم الغابة الاستوائية بسكانها من البشر والحيوان ونباتها الكثيف الملتف وبرك المياه الراكدة فى قيعانها عقبة عظمى أمام الرواد والرحالة والمستكشفين

وبصورة أخرى يمكن القول أن جزءا كبيرا من القارة ظهيره صحراوى أو شبه صحراوى ومعظم الباقى ظهيره غابات كثيفة يصعب بل يستحيل إختراقها (٣).

ومن المصاعب الأخرى المتصلة بالتضاريس فى أفريقية إنعدام البحار الداخلية

---

(٢) Fitzgerald pp. 9—12

(٣) Perham and Simmens p. 23

إذ لا يظهر أى مسطح مائى يمكن إستخدامه فى إختراق القارة والمواصلات الداخلية بها وبحيرة فيكتوريا — على صغرها كبحر — توجد فوق هضبة فى منطقة يحف بها ذراعا الأخدود العظيم ولم تكن فى حد ذاتها معروفة حتى وقت متأخر من بدء حركة الكشف . . وفى بعض القارات مثل أميركا الجنوبية قد لا توجد بحار داخلية لكن التوغل فى داخلها لا يصبح مشكلة لوجود أنهار تصلح للملاحة وتقطع هذه القارات . أما فى أفريقيا فهى تفتقر إلى كل من البحار الداخلية والأنهار الصالحة للملاحة لكميات كبيرة تتوغل فى داخلها فى آن معا إذ تتخلل وتعترض الجنادل والشلالات والمندفعات والمساقط معظم أنهار أفريقيا الكبرى وتعترض هذه العقبات جميع الأنهار باستثناء النيجر والنيل فى مجاريهما الدنيا وإن كان مصبا هذين النهرين دلتاويين فان هذا يعوق الملاحة أيضا إلى حد ما. علاوة على أن الجنادل والشلالات تظهر فى هذين النهرين أيضاً فى منطقة النيل النوبى فى حالة النيل وفى منطقة شلالات بوسة فى حالة نهر النيجر . . . أما نهر الكونغو فرغم أنه يتمتع بمصب خليجى ممتاز فان سلسلة الجنادل لا تلبث أن تظهر فيه على بعد بسيط من الساحل قرب متادى . . وتوجد حواجز رملية أمام مصب نهر السنغال تسمى لسان البربر ولا زال هذا اللسان يمثل حتى اليوم مشكلة فى هذا النهر إذ يمنع تطور دكار كميناء هام . . . ونهر أورنج تضيع مياهه بالتبخر والتسرب فى رمال المنطقة الصحراوية التى يجرى فيها كما توجد مجموعات من المساقط المائية قرب مجراه الأدنى . . . ونهر الزمبيزى تتعدد به المساقط هو الآخر وأشهرها فيكتوريا وكاريبا . . بقى نهر الفولتا وهو لا يقل عن بقية الأنهار من حيث تعدد الجنادل والشلالات به بل أن هذه العقبات تظهر فى منطقة قريبة جدا من الساحل بعد أجينا . وليس بخاف أن كل هذه الجنادل والشلالات راجعة فى تكوينها إلى أن الأنهار الأفريقية معقدة التركيب من ناحية وإنها عند إقترابها من مصاباتها تنحدر على حافة الهضبة الأفريقية من ناحية أخرى .

وإلى جانب العقبات الصخرية كالأنهار توجد عقبات نباتية قرب مصبات أنهار المنطقة الاستوائية كالنيجر والكونغو حيث الغابات المعروفة بالمنجروف والاحراج المختلفة .

ومن المصاعب البارزة المتصلة باطار القارة ندرة الجزر المحيطة بها علاوة على قلة أهمية الجزر الموجودة فعلا ويكفى أن نعلم أن جزيرة مدغشقر أضخم الجزر المحيطة بالقارة لم تلعب أى دور هام فى تاريخ القارة وتطورها أو أستكشافها خاصة إذا ما قورنت بجزيرة زنجبار الصغيرة التى تبلغ مساحتها ١ إلى ٧٠ من مساحة مدغشقر (٤) . . والجزر يمكن الاعتماد عليها كمناطق للوثوب إلى الداخل كما سبق علاوة على توفر الموانى الجيدة بها عادة . وإمكان الدفاع عنها بسهولة إذا هوجمت أو الالتجاء إليها طلبا للحماية إذا ما هاجمت العناصر الوطنية جماعات المستكشفين وكانت تفوقهم قوة .

وكأمثلة على ما سبق نرى أن فقر السواحل وظهيرها يفسر أن البرتغاليين فى رحلاتهم المختلفة للطواف حول أفريقيا كانوا ينشئون حصونا ومراكز للمئونة على السواحل الأفريقية التى تستكشف وكان البعد بين هذه المراكز بعضها البعض كبيراً جدا ثم أن هذه المراكز لم تتخذ قواعد للتوغل للداخل إلا فى زمن متأخر من الكشف عندما بدأت المطامع الاستعمارية تتجه إلى الداخل .. ومع هذا يرى البعض (٥) أن الصحراء رغم ظروف الجدب والجفاف بها تمثل الطريق الطبيعى إلى بلاد السودان وليس الطريق البحرى ويعللون معرفة العرب وتأخر معرفة الأوربيين بقلب أفريقيا بصعوبة التوغل فى الداخل خاصة لوجود الغابات التى حالت بكافتها وصعوبة المواصلات فيها دون توغلهم إلى داخل بلاد السودان ...

---

(١) محمد صفى الدين س ٩٥ ، وأنظر أيضا Ftsgerald p.11

(٥) المرجع السابق س ٥٣ ، ١١٠

كما أن كشف نهر النيجر ذاته لم يكن عن طريق مجراه ولـكن بعد عبور الصحراء الـكبرى ونحن نؤيد ذلك إذ أن منجو بارك عند ما حاول أن يأخذ طريق النهر إلى المصب تعرض للموت بسبب شلالاته وكانت رحلات برتون وسبيك لـكشف البحيرات التى ينبع منها النيل تسلك طريق البحر الأحمر الملاحى ثم الطريق البرى عبر شرق أفريقيا والاتجاه غربا إلى هضبة البحيرات ... ويعطينا الرحالة المصرى القديم خوف حر مثالا آخر إذ أنه حين كان يتجه إلى الجنوب متخذا طريق النهر يقول(٦) :

« هبت من الصحراء ذات يوم رياح عاتية محملة بالرمال لم تلبث أن صارت عاصفة هوجاء تلف حول السفن كالدوامة ومن سوء الحظ أن تيار النهر فى تلك القنوات الضيقة كان يتدفق بشدة مرعبة فـكانت السفن تتأرجح على سطح الماء والعواصف تلعب بها كأنها ريشة فتحطمت أشرعة السفن وارتطمت سفينة المرشد بصخرة كانت مغمورة بالماء فتهشمت السفن وعلا ضجيج البحارة وصراخهم ولولا مهارة معظمهم وقدرتهم على العوم ولولا إسراعنا نحن لانقاذهم بالقاء الحبال اليهم وتعلقهم بها لهلـكوا جميعا ولـكن لم تفقد منهم سوى ثلاثة التهمتهم التماسيح التى كانت أسرع منا اليهم ... »

أما عن منجو بارك فقد فقد حياته فى منطقة شلالات بوسا فى نهر النيجر فى منطقة يتشعب عندها المجرى إلى أكثر من قناة تبدو القناة الوسطى صافية الماء كما لو كانت الطريق الأمثل ولـكن الحقيقة أن بها صخوراً لا يمكن إجتيازها ويبدو أن بارك الذى لم يكن له مرشد ملاحى إجتاز المجرى الأوسط وسار فيه حتى تحطم قاربه فى الصخور حسب رأى سايكس الذى ينشر صورة فى كتابه ص ٢١٨

---

(٦) د. عبد العزيز عبد المجيد : خوف حر ص ٤٣ ، ٤٤

لهذه المنطقة بينما يرى برهام فى ص ٨٥ من كتابه أن غرق بارك ورفاقه البيض كان على أثر معركة بينهم وبين سكان بوسة إلا أن المؤلفان يتفقان على موته فى منطقة الشلالات .

أما رداءة الطرق فان خير مثال لها هو أن الطريق الذى إتبعه سير صمويل بيكر فى إنسحابه من أنيورور مع حملته لم يكن يزيد على قدم واحدة فى العرض وبشبه خطار رسمته أرجل الغنم وسط إطار من الحشائش العالية ...(٦)

مناخ القارة ونباتها وحيوانها

مناخ أفريقيا الحارة عموما لا يناسب الاستيطان الأوربى وتقتصر المناطق التى تناسب سكنى العناصر البيضاء على الشمال الغربى وأقصى الجنوب والمناطق التى تضم فعلا أعدادا لا بأس بها من الأوربيين بالاضافة إلى بعض البقاع الهضبية والجبلية العالية . وإذا كان مناخ أفريقيا غير محبوب أو مفضل فإن هذا يفسر ويبرر التأخير الكبير فى اختراق الأوربيين لداخل القارة بل أنه يضع حدا للمشاريع البيضاء فى قلب القارة للان ... وإذا كانت كل من اميركا الشمالية والجنوبية واستراليا وهى القارات الثلاث التى استعمرها البيض تقدم مناطق واسعة عذراء من الأرض ومناخا لا يختلف اختلافات جوهرية عن المناخ السائد فى الأوطان الأصلية للوافد بعكس أفريقيا التى تناسب الوفدين من الشمال الأوربى خاصة حيث يختلف المناخ كلية ويحد تفصيلاته من حركة ونشاط هذه العناصر باستثناء منطقتين صغيرتين كما سبق وهما الشمال الغربى وأقصى جنوب القارة ... وبهذا لا تقدم أفريقيا أية جاذبية سكانية بالمقارنة إلى العالم الجديد.(٨)

---

(٧) عمر طوسون : تاريخ مديرية خط الاستواء المصرية — الجزء الأول ص ٨١

8 — Fitzgerald, pp. 26—72

وإذا وضعنا فى الاعتبار أن الجزء الأكبر من الرواد والمستكشفين والرحالة والمستعمرين أتوا إلى أفريقيا من غرب وشمال غرب أوربا وسعوا لكشفها وتقديم صورة جغرافية شبه كاملة عنها . لأدركنا عندئذ أية مصاعب تعرض لها كل هؤلاء إذ أن معظم جهات أفريقيا تتسم بالحرارة العالية المجهدة على الأقل فى نصف السنة الصيفى . وفى معظم المنطقة الاستوائية إلى المناخ الحار يضاف عامل ارتفاع الرطوبة وكل هذا يكون ستارا كبيرا بين الصحة والحيوية من ناحية وبين المستكشفين والرواد وغيرهم من الذين لم يألفوا هذا النمط من المناخ من ناحية ثانية .

وافريقيا اكبر القارات تمثيلا للمنطقة الحارة فهى القارة الوحيدة التى يقسمها خط الاستواء ويعبرها المداران . ورغم أن أقصى امتداداتها فى الشمال والجنوب تبعد عن خط الاستواء بحوالى ٢٤٠٠، ٢٦٠٠ ميلا فإن هذا البعد ليس كافيا ليباعد بين هذه المناطق وبين الحرارة وجعلها معتدلة باردة أو دافئة ... كما أن عامل الارتفاع لا يؤثر كثيرا فى خفض درجات الحرارة إلا فى مناطق القمم العالية فى شرق أفريقية مثل جبال كينيا وكليمنجارو مما يلطف الحرارة ويجعلها مشابهة للاحوال المناخية السائدة فى العروض المعتدلة ... وتختلف المناطق الأفريقية المناخية فى المطر إذ قد يزيد عن ١٠٠ بوصة فى بعض الجهات بينما يسود الجفاف فى غيرها . ولكن العنصر السائد فى القارة كلها هو الحرارة الزائدة فى كل من الاقاليم النباتية والمناخية الثلاثة وهى الغابات المدارية المطيرة والسافانا أو الحشائش المدارية ثم الصحراء .

الصعوبات المناخية والنباتية والحيوانية

إذا بدأنا بالصعوبات فسنجد أن الرياح التجارية مثلا أوقفت تقدم بارتلميو دياز عن إكمال الدوران حول أفريقيا وسمى المنطقة براس العواصف [٩] رغم أنها أصبحت فيما بعد رأس الرجاء الصالح وكان هذا فى عام ١٤٨٤ . أما الصحراء الجافة

(٩) محمد صفى الدين ص ٧٤ .

الجدباء فقد سببت الكثير من المتاعب خصوصا بسبب انعدام موارد الماء بها وعندما قام افجستون مع الدكتور كيرك برحلته الأولى سنة ١٨٥٩ إلى شرى Shire كانت الحرارة لا تطاق .

أما الصحراء فإنها كادت تسبب هلاك جيمس بروس عطشا فى الصحراء النوبية القاحلة بين بربرو كورسكو حين اختراقة لها(١٠) . وكاد العطش أن يميت منجو بارك أيضا هو الحرارة الملتهبة إذ أنه بعد أن هرب من الأسر الذى وضعه فيه «على» أحد زعماء المغاربة يروى لنا(١١) أنه :

(رأى غلامين برعيان الماعز فسألهما عن الماء فأرياه القرب خاوية وأخبراه بعدم وجود مياه مما اضطره إلى أن يحث الخطى عله يجد بعض الأماكن التى توجد بها مياه قبل حلول المساء ثم يقول « إن عذابى فى هذا الوقت كان لا يطاق إذ جف فمى والتهب وظللت عينى قتامة سوداء وانتابتنى دلائل اليأس ونال التعب من حصانى كثيرا وبدأت أدرك أننى هالك من العطش لا محالة .. وحتى أخفف الألم الذى يشبه النار فى فمى وحلقى مضغت أوراق الشجيرات المختلفة ولكنها كانت شديدة المرارة).

وكانت النباتات والغابات الكثيفة عقبة أخرى فى سبيل تقدم الكشف فى أفريقيا فإن رحلة ستانلى فى الكونغو مثلا كانت أشق رحلاته حيث أن غاباته كثيفة ويصعب اختراقها(١٢) .

وعند ما ذهبت السيدة مارى كنجزلى إلى الكونغو الفرنسى وصفت الغابات الاستوائية الكثيفة قائلة (إن المياه الآسنة تغطى أرضية هذه الغابات حيث تسود

10—Sykes p. 228

11—Mungo Park Travels in the Interior Districts of Africa. pp. 188- -181.

(١٢) سايكس — ص ٢٣٤

الظلمة لأن أعالى الأشجار تحجب الضوء فتصبح المياه كما لو كانت مرآة فى مكان مظلم تظهر أشياء غريبة غير واضحة أو معروفة)[١٣] .

وكان من أهم أسباب تأخر كشف منابع النيل فى العصور التاريخية المختلفة وجود منطقة السدود النباتية والمستنقعات فى منطقة بحر الجبل والغزال . بل أنها كانت مدعاة لأن يستخدم المصريون القدماء البحر الأحمر رغم صعوباته الملاحية أكثر من طريق نهر النيل للوصول إلى مناجم الذهب فى أوفير Ophir[١٤] . وكانت بعثة نيرون لكشف منابع النيل سنة ٦٦ بعد الميلاد بعثة فاشلة إذ توقفت أعمالها عند فاشوده حيث قدمت بطائح بحر الجبل وسدوده النباتية عقبة كأداء فى سبيل نجاح الكشف[١٥] وأول بعثة اجتازت منطقة السدود كانت فى سنة ١٨٣٩ وتلتها فى سنة ١٨٤١ بعثة أخرى وصلت إلى غندكرو حيث وقفت عقبات أخرى فى الطريق ممثلة فى صعوبة النهر كطريق للمواصلات بسبب الجنادل[١٦] . وأمر هذه السدود غريب جداً فهى من الضخامة بحيث يزيد طولها عن الميل وسمكها عن السبعة أمتار ويبلغ من متانتها وقوتها أن الناس والفيلة والماشية تسير فوق السد[١٧] .

أما فى منطقة السافانا فإن النبات فيها يمثل صعوبه خطيرة حقاً تكمن فى الوحوش العديدة التى تسكن هذه المنطقة النباتية .. ومنطقة الانتقال بين السافانا والصحراء ممثلة فى إقليم السنط والحشائش الطويلة فى كردفان بالإضافة إلى جزء كبير من حوض بحر الجبل والسوباط وبحر الغزال والنيل الأبيض وأواسط حوض النيل الأزرق توجد به فترة جفاف تمتد إلى خمسة أشهر أحياناً تجف فيها

---

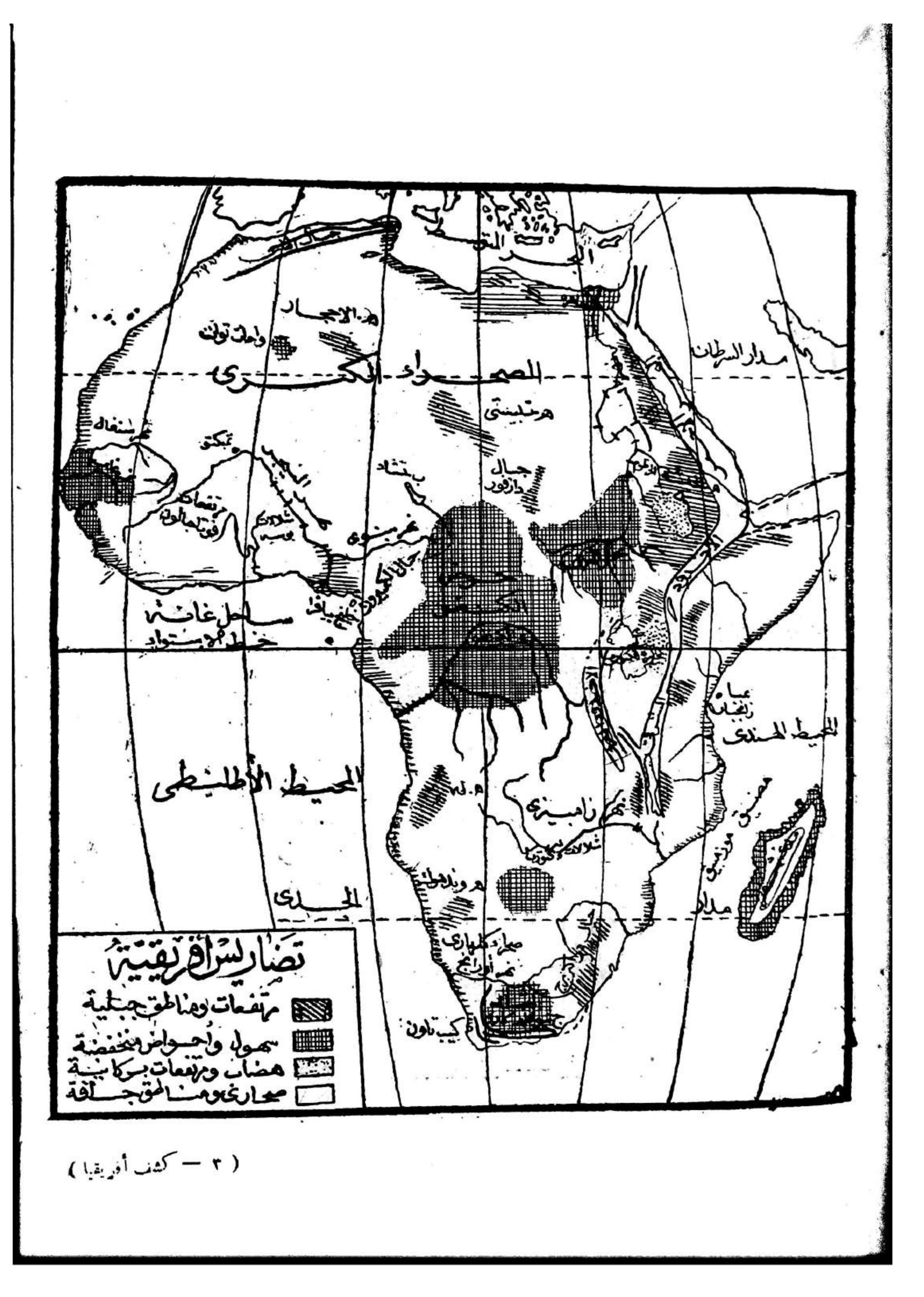
(١٣) سايكس — ص ٢٣٩

(١٤) المرجع السابق — ص ٥٢ (وصفى الدين)

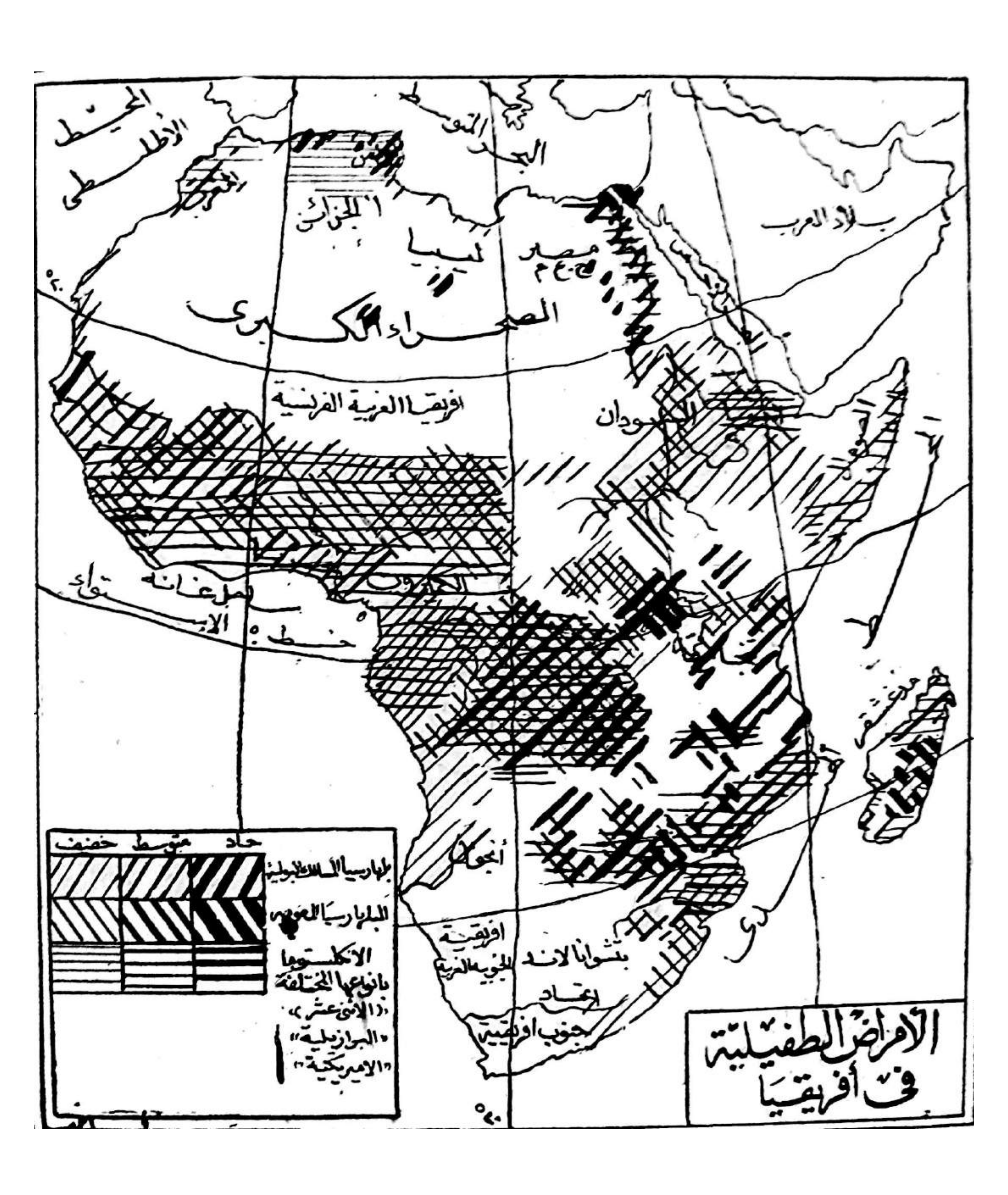
(١٥) فتزجيرالد — ص ٧٧

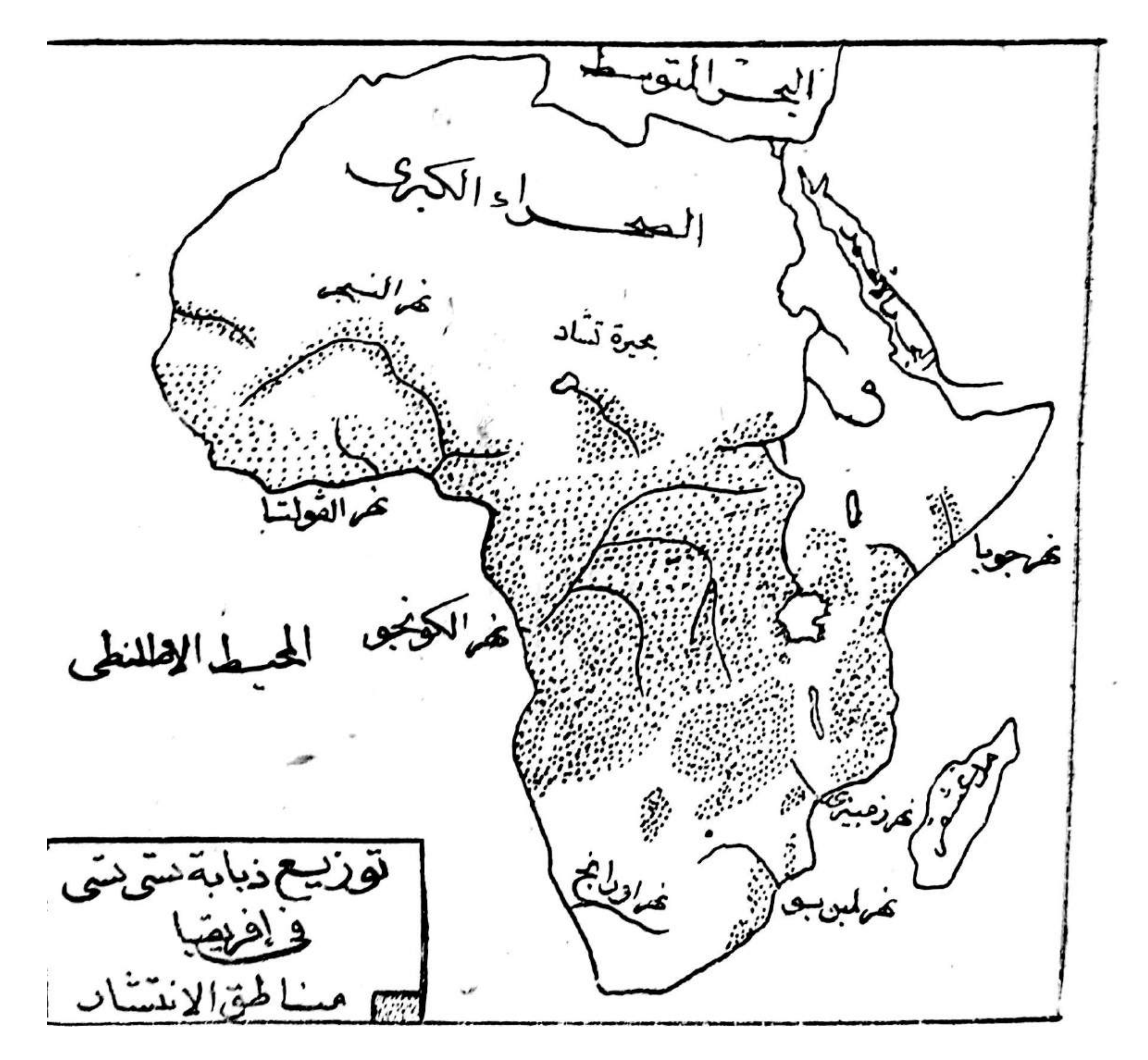
(١٦) محمد عوض محمد — نهر النيل ص ١٠

(١٧) المرجع السابق — ص ٢٧٦

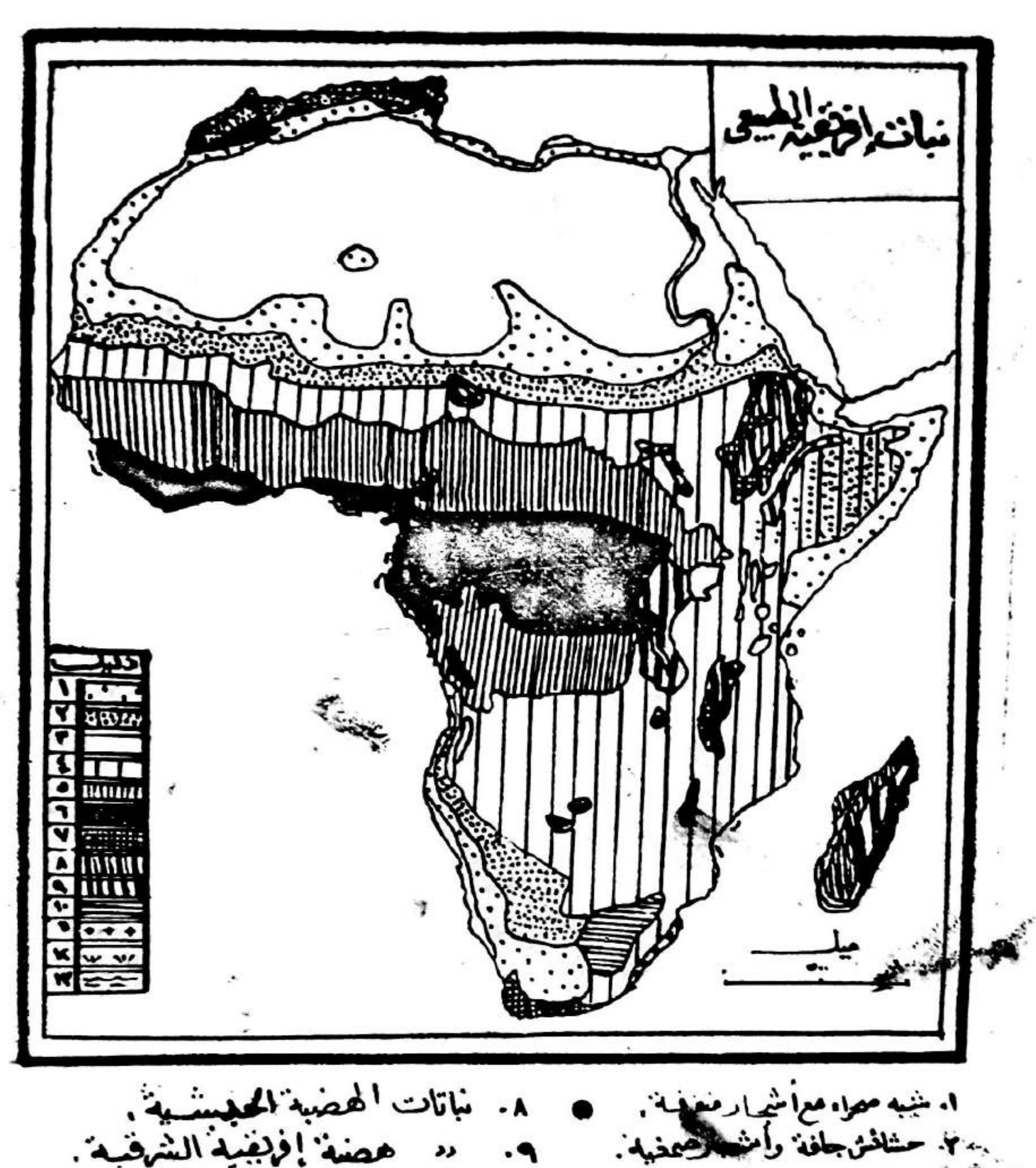


تضاريس أفريقية
مرتفعات ومناطق جبلية
سهول وأحواض منخفضة
هضاب ومرتفعات بركانية
صحارى ومناطق جافة
الصحراء الكبرى
المحيط الأطلنطي
المحيط الهندي
ساحل غانة
خط الاستواء
مدار السرطان
مدار الجدى
هـ. تبستى
جبال دارفور
واحات توات
ب. تشاد
تمبكتو
ن. سنغال
ن. زامبيزى
كيب تاون


الأمراض الطفيلية
في أفريقيا
المحيط الأطلسي
البحر المتوسط
الجزائر
ليبيا
مصر
الصحراء الكبرى
أفريقيا الغربية الفرنسية
السودان
بلاد العرب
خط الاستواء
أنجولا
بتشوانالاند
اتحاد
جنوب أفريقية
حاد
متوسط
خفيف
البلهارسيا المعوية
الانكلستوما
بأنواعها المختلفة
«الاثنى عشري»
«البرازيلية»
«الامريكية»



البحر المتوسط
الصحراء الكبرى
نهر النيجر
بحيرة تشاد
نهر الفولتا
نهر الكونجو
المحيط الاطلنطى
نهر جوبا
مدغشقر
نهر زمبيزي
نهر اورانج
نهر لمبوبو
توزيع ذبابة تسى تسى
فى إفريقيا
مناطق الانتشار



١. شبه صحراء مع أشجار متفرقة.
٢. حشائش جافة وأشجار صمغية.
٣. صحراء.
٤. سافانا.
٥. سافانا بستانية.
٦. غابات استوائية.
٧. نباتات البحر المتوسط.
٨. نباتات الهضبة الحبشية.
٩. ،، هضبة إفريقية الشرقية الاستوائية ومدغشقر.
١٠. الفلد المرتفع
١١. نطاق نخيل ناتال.
١٢. مستنقعات.
١٣. غابات المنجروف.

جذوع الشجر وتحترق وتهب الرياح بشدة حاملة التراب والدخان مما يسبب أخطارا كبيرة وأمراضاً فى العيون وتمثل هذه الفترة منطقة عصيبة على الأخص على غير أهل البلاد .. ثم توجد صعوبة أخرى ممثلة فى الضياع والضلال الذى قد يتعرض له الرحالة أو المستكشف فى هذه المنطقة تبعاً لتغير معالم الطريق إذ بينما يكون الجفاف والجدب سائداً فى طريق ما فى أول الربيع يسير فيه الرحالة يومين أو ثلاثة ثم إذا أراد العودة من الطريق نفسه بعد سقوط المطر يجد المعالم تغيرت إذ تنبت الحشائش ويرتفع علوها إلى الأمتار فيستحيل على المسافر أو الرحالة أن يتبين طريقه الأول[١] وفى هذا خطر كبير جـداً على الرواد والرحالة والمستكشفين ومن هنا مثلا نقرأ أحياناً فى تاريخ الاستكشاف عن رحالة قاموا ليبحثوا عن غيرهم مثل الرحلة التى قام بها ستانلى لحساب جريدة « نيويورك هيرالد » ليبحث عن ليفنجستون الذى كان يعتبر مفقوداً !!

أما عن سكان الغابات من الحيوانات المفترسة فقـد كان لهم دور كبير فى تصعيب الـكشف . إذ القارة الأفريقية غنية بهذه الحيوانات المفترسة غناها بمناطق النباتات والحشائش والغابات وقد تعرض الـكثيرون من الرحالة للصراع مع هذه الوحوش وأصيبوا من جراء ذلك بالـكثير من الجروح والمتاعب ... ولنتابع الآن قراءة بعض ما تعرض له الرحالة لفنجستون فى جنوب أفريقيا فى منطقة كرومان Koroman الانتقالية بين صحراء كلهارى والسافانا الجنوبية إذ يصف معركة حدثت بينه وبين أسد[٢] « كانت الأسود تسطو على حظائر الماشية فى الليل وتحدث خسائرا فى الأبقار بل أنها كانت تهاجم القطعان فى رابعة النهار وكان الناس يظنون أن هذا بفعل تعويذات سحرية من القبائل المجاورة التى تسخر قوة الأسود !!

ق

(١) محمد عوض محمد : من ص ٢٧٢ — ص ٢٧٣ .

(٢) [illegible]ingstone, Missionary Travels and Researches in South Africa, PP, 11—13

الأمراض والصعوبات الصحية

كانت الامراض من أكبر العقبات التى وقفت أمام المستكشفين فى افريقية ولم يحدث أن أحدا من هؤلاء المستكشفين سلم من الاصابه بالأمراض المختلفة مرات عديدة خاصة وأن العناية الطبية كانت معدومة تقريبا بالاضافة إلى أن كثيرا من الامراض لم تكن قد اكتشفت لها الأدوية الفعالة فى الفترة التى قامت فيها حركة الكشف الافريقى ولعل هذا هو الذى جعل أحد المؤلفين يذكر فى مقدمة كتابه [٢٠] انها ليست حادثة أو مصادفة أن العشرة مستكشفين الذين يتناولهم الكتاب لم يصل نصفهم إلى سن الأربعين ومات نصفهم فى افريقيا ! « حقا لقد ابتلعت أفريقيا الكثيرين من الرواد والمستكشفين وضمتهم إلى جوفها واحداً إثر آخر [٢١] ويرجع هذا إلى أمراض القارة المتعددة ... وهذه الأمراض كانت تؤدى فى حالة عدم الوفاة إلى هد قوى الرحالة وعدم مواصلتهم الكشف بما تمنحه للجسم من ضعف وعدم قدرة على مقاومة الصعاب والأخطار التى يتعرض لها المستكشف فى افريقيا .

وإذا كانت الخرائط المرفقة تبين انتشار الانكاستوما والبلهارسيا وذبابة تسى تسى فان هذا يبين لنا مناطق انتشار مختلف الأمراض إذ يرتبط انتشار معظم هذه الأمراض ببعضها نظراً لعوامل المناخ ولأن الاجسام فى مناطق الطفيليات تكون مهيأة لقبول المرض وعدم مقاومته فتكون مجالا خصباً لفتك الأمراض المعدية التى تهد القوى .

ومن الامراض ما يشمل الإنسان ومنها ما يؤثر فى الحيوان ومنها ما يؤثر فى كليهما معا [٢٢] وأهمية الحيوان راجعة إلى أنه مصدر الغذاء ووسيلة النقل الرئيسية

٥.

٦.

٧. ...

20 — Perham, p. 15

21 — Fitzgerald p. 111

... سابق صفحات ١٣٥ ، ١٧٦ ، ١٧٩ ، ٢١١ ، ١٣٩ ، ٣٦٤ ، ٣٤٦

فى أماكن كثيرة من القارة . . وقد كان ذباب تسى تسى الذى يسبب مرض النوم للانسان ويثقب جلد الحيوان ويسبب هلاكه من عوائق انتشار الإسلام فى القارة « مثلا » إذ أن العرب الذين ألفوا حياة الصحراء واستخدام الجمل والحصان فى التنقلات وجدوا مانعاً كبيراً يعوق تقدمهم أو تقدم حيواناتهم إلى الجنوب وهو ينتشر فى مناطق دارفور وكردفان وفى منطقة الفلد المنخفض جنوب القارة بل إن منطقة الزمبيزى واللمبوبو يوجد بها ١٨ مليون فدان تعتبر صالحة للزراعة ولكنها غير صالحة للاستقرار البشرى أو الحيوانى لانتشار هذه الذبابة التى تنتشر أيضاً فى شرق افريقية حتى أن معظم مساحة تنجانيقا متأثرة بها ... وفى غرب افريقيا تنتشر هذه الذبابة أيضاً بالإضافة إلى البعوض الذى يقال أنه عادة أكبر أصدقاء الافريقيين فى غرب افريقية ولهذا اكتسب هذا الساحل شهرته كمقبرة للرجل الأبيض[٢٢] .

وقد تفشى مرض الجدرى بين رجال الدكتور جونكر فى مديرية خط الاستواء فسبب أضراراً بالغة وأودى بحياة الكثيرين وانتشر الوباء فى كل المنطقة وترك أثراً أشأم فيها[٢٣] وكثيراً ما كانت حمى الملاريا والدوسنتاريا والحميات الخبيثة الأخرى تنتشر بين جنود السير صمويل بيكر فى أعالى النيل مما كان يسبب هلاك الكثيرين منهم كما أن دودة غانة الرهيبة التى تسمم المياه والمستنقعات النهرية فى منطقة السدود كانت تسبب جراحاً مؤلمة فى السيقان لمن لا يصيبه الموت وكان هذا المرض يقضى على الساق بعد أن يتلفها تماما[٢٤] .

وقد مرض كل من لاندر وكلابرتون بالحمى وقاسيا منها كثيراً فى الطريق من بوسة إلى كانو أثناء اكتشافهما لنهر النيجر ثم أصيب لندر بالدوسنتاريا فى

(٢٣) عمر طوسون ص ٣٩٣ ـ الجزء الأول .
(٢٤) عمر طوسون ص ٤٥٣ ـــ ٤٦ ، ١٢١ ـ ١٢٤

كانو كما سنعرف بعد قليل .. كما يوضح منجو بارك فى خطابه الأخير إلى زوجته أن ابنه الاسكندر مات من الحمى فى سان ساندنج كما مات صديقان له هما أندرسون وجورج سكوت بالإضافة إلى موت عدد كبير من الجنود بسبب سيرهم عقب فصل الأمطار وتمرضهم تبعاً لذلك للمرض[٢٥] .

وكان جو المستنقعات الفاسد فى النيل الأبيض عند التوفيقية من الأسباب التى جعلت مرض الدوسنتاريا ينتشر ويموت بسببه الكثيرون مما سبب إنشاء مقبرة التوفيقية[٢٦] وكان مرض لفنجستون بالدوسنتاريا الحادة وتمرضه لكثير من متاعب النقل سبباً فى موته فى النهاية قرب بحيرة بنجويلو[٢٧] .

أما كلابرتون فقد كانت إصابته بالدوسنتاريا حادة وكانت حبات العرق تتساقط باستمرار من كل جسمه وأصيب بضعف شديد واضطر لاندر أن يغسل الملابس بنفسه لعدم وجود الخدم كما كان يعد الطعام بنفسه .. وتبعاً لارتفاع حرارة كلابرتون كان فى حاجة دائمة إلى مروحة وكان لاندر يقوم بهذا العمل رغم مرضه هو الآخر حتى المروحة كانت تقع من يده أحياناً .

وكانت الحرارة تضايق كلابرتون جداً إذ كان الترمومتر يسجل فى الأيام العادية أكثر من الأربعين درجة مئوية (١٠٧° فهرنهيتية) منتصف النهار وتزيد عن ذلك (إلى ١٠٩°) فى الساعة الثالثة بعد الظهر . وعندما أراد كلابرتون أن يكتب بنفسه شيئاً أحضر له لاندر القلم ولكن المرض والارهاق مالبث أن جعله ينكفىء على ظهره حين حاول الجلوس . . وظن لاندر أن أحد

---

25 — Perham, pp. 84—85.

(٢٦) عمر طوسون ص ٢٩ ـ ٣٣

27 — Perbam. p. 272

العرب أو الأتراك دس السم لسيده فى لبن الإبل ولكن كلابرتون نفى ذلك وأوضح أن السبب فى نظره يرجع إلى نومه تحت شجرة فى منطقة رطبة فى يوم قائظ مما جعله يصاب بالبرد ثم حدثت له المضاعفات . وظل كلابرتون مريضا عشرين يوما بدأ بعدها يتحول إلى هيكل عظمى شديد الهزال . .

وبعد صراع طويل مع المرض مات كلابرتون فى النهاية بعد أن استغرق مرضه الفترة بين ١٢ مارس ، ١٣ (٢٨) أبريل . وكادت زوجة السير صمويل بيكر أن تموت من ضربة الشمس والحمى فى آنيور وحيث إضطررت إلى عبور نهر كافور سائرة على طبقة عائمة من النبات لأن هذا كان الوسيلة الوحيدة لعبوره .

المصاعب البشرية فى الكشف

الصعوبات الطبيعية التى أدت إلى تعطيل حركة الكشف الإفريقى وتأخيرها ثابتة محددة أما المصاعب البشرية فإنها تتميز بالقدرة على الحركة والتفكير أحيانا مما يجعلها أكثر خطورة من النواحى الطبيعية وإذا كانت الصعوبات الطبيعية تتعدد بين تضاريس ومناخ ونبات وغير ذلك فان العوامل البشرية تنافسها فى هذا التعدد إن لم تزد .. ومن هذه الصعوبات :

اللغات :

اللغات الإفريقية ـ خاصة التى توجد فى وسط أفريقيا ـ وغربها سماعية فى معظمها لا قواعد لها أو مراجع أو معاجم يمكن الرجوع إليها بشأنها . ومن هنا كانت معرفة لغة ما تقتضى أن يعيش الرحالة أو المستكشف فترة من الزمن بين السكان

---

(٢٨) Perham pp 114 — 116

الوطنين يحادثهم ويسمع لغتهم حتى يعرف تعبيراتها ومصطلحاتها ومفرداتها عموما أو أنها كانت تتطلب منة أن يتوفر على دراسة هذه اللغة على يد من قام بدراستها قبل ذلك ولهذا نجد أن منجو بارك قضى عدة أشهر يدرس لغة الماندنجو وعادات وتقاليد السكان فى منطقة غمبيا(٢٩) كما أنفق لفنجستون ستة أشهر فى عزلة عن المجتمع الأوربى كله ليتعلم عادات وتقاليد ولغات القبائل الافريقية ولعل هذا هو الذى جعله يدرك وجهة النظر الافريقيه فى كثير من الأمور مما أفاده فى رحلات كثيرة .

الأديان :

قد يرى البعض أن وقوف الأديان عقبة فى سبيل الكشف شىء غريب ولكن قراءة ما كتب عن ذلك تظهر لنا أن الجماعات الإسلامية فى القارة كانت تنظر إلى المستكشفين الأوربيين وكلهم طبعا من المسيحيين أو غير المسلمين نظرة غير متسامحة أحياناً بل أن بعض المستكشفين قد أوذى بسبب الدين مثل « بارت » Barth الذى تعرض للاخطار فى تمبكتو وكذلك براون الإنجليزى فى رحلته لزيارة واحة سيوة سنة ١٧٩٣ وسيره فى طريقة القوافل من أسيوط (درب الأربعين) مخترقا حدود السودان حتى دار فور إذ تعرض « للمنظمات المعادية للمسيحية » حيث حجز فى دارفور لمدة ثلاثة أعوام قاسى فيها الكثير من الناحية الصحية والمادية(٣٠)

عدد السكان :

كانت معظم أجزاء القارة الافريقية مقسمة إلى سلطنات وممالك صغيرة يسيطر على كل منها زعيم من زعماء القبائل القوية يعرف باسم الملك أو الرئيس ويتبعه

---

(٢٩) Sykes. p. 213

(٣٠) Sykes; pp. 218—219

سكان المنطقة التى يعيش فيها . . وكانت الحروب تقوم كثيرا بين هذه الممالك وبعضها البعض حتى أصبح السكان ميالين للحروب بطبيعتهم فى كثير من الأحيان وكانت رؤية الأجنبي فى المملكة تثير كثيرا من التكهنات والاستعدادات العدائية ضده . هذا إلى أن الخوف من تجار الرقيق وصياديهم كان يقوى من روح المحاربة عند هذه الجماعات وكانت القبائل تتحالف مع تجار الرقيق ضد غيرها .

وكانت قبائل البارين التى جبلت على الحرب والكفاح تؤدى خدمات كبرى لصيادى العبيد ذلك لأن عددا كبيرا من رعايا اللورون فى داخلية البلاد كانوا مأجورين لأبى السعود الذى أمدهم بالبنادق وسلحهم بكيفية صيرت من قبيلة اللورون وشركة أبى السعود جيشا من قطاع الطرق قوامه ١٨٠٠ رجلا مسلحا كانوا يمثلون خطرا محققا للسير صمويل بيكر وللادارة المصرية .

وكان العداء يصل فى بعض الأحيان إلى التجويع ودس السم فى الطعام بعد ذلك لجنود حملة صمويل بيكر مثلا ولنقرأ عمر طوسون حين يقول(٣١) « وفى ٧ يونية لم يكن لدى الجند شيء من الزاد وانقطع ورود المئونة رغما عن تكرار الطلب وكثرة الوعود وفى آخر النهار ورد لهم ست جرعات من شراب الموز وورد أيضا جانب من الغلال واتضح أن الشراب كان ممزوجا بالسم وكل من شرب منه وقع مريضا ولكن لحسن الطالع أدركوا بالعلاج وأبل الجميع من المرض »

الحمالون :

نظراً لصعوبة المواصلات كان من اللازم لكل حملة كشفية عدد ضخم من الحمالين كان يفوق عادة أفراد الحملة أنفسهم من الرحالة ، وذلك لثقل معدات الحملة

---

(٣١) عمر طوسون ص ٧٨

ومؤنها من مكان لآخر حسب سير الحملة .. ولكن الحمالين الذين كان احضارهم وقبولهم العمل فى حد ذاته مشكلة كان بقاؤهم هو الآخر فى خدمة الحملات مشكلة أخرى إذا كانوا يهربون ويتسربون ربما لأن الافريقى بطبعه لا يميل للعمل متى ضمن الطعام وربما يفسر هذا حياة الكثير من جماعات قلب افريقية على الجمع والالتقاط فى حالة بدائية ورفضهم العمل بالزراعة أو حتى الرعى . لهذا كان الحمالون كثيراً ما يفرون .. وقد قاسى من فرارهم السير صمويل بيكر حيث كانوا يتوارون بعيداً عن الأعين بعد إحضارهم فى حملته إلى بحيرة البرت[٣٢]، وأنفق لفنجستون ستة أشهر (من مارس إلى أغسطس ١٨٧٢) منتظراً أن يمد بحمالين جددا فى طابورة يأتون إليه من جهات الساحل المختلفة ، وكان هذا مؤلما ومقلقاً لرجل يريد أن ينتهى من عمله ويشعر أن تأخيره نابع عن سبب خارج عن إرادته وهو عدم وجود الحمالين[٣٣] .

أحمد محمد أحمد اسماعيل

---

(٣٢) Cioll Nerthcett, Livingstene in Africa P. 34

(٣٣) Sykes P. 231

مصادر البحث

أولا : المصادر العربية

١ ــ محمد عوض محمد (دكتور) نهر النيل القاهرة ١٩٥٢

٢ ــ محمود حامد محمد : العالم ــ القاهرة ١٩٣٣ .

٣ ــ محمد صفي الدين (دكتور) إفريقيا بين الدول الأوربية القاهرة ١٩٥٩ .

٤ ــ عبد العزيز عبد المجيد (دكتور) حوف خر دار المعارف بالقاهرة ١٩٦٠

٥ ــ عمر طوسون (الأمير) تاريخ مديرية خط الاستواء المصريه ــ القاهرة ١٩٣٧ .

ثانيا : المصادر الأجنبية

6 — Sir Percy Sykes, A, History of Exploratron , London 1950

7 — Walter Fitzgerald , Africa. I onden, 1952.

8 — Margery Perham Snd J. Simmons , African Discovery Lenden, Lenee 1957.

9 — A. Austin Miller, Climatelogy, Londou 1953

10 — David levingstone, Missionary travels aud researches in South Africa Londou, 1857.

11 — Huttan Webister, Early European History, Boston, U.S.A. 1920.

12 — Sir Samuel Baker, The Albert Neyanza, great basln of the Nile. Louden, 1066

13 — Mungo Park, Travels in the interiour Districts of Africa, Londor 1799

14 — Cicil Northcott, Livingstone in Africe, London, 1957.

15 — Eucyclopedia Britannica.

مصادر البحث

أولا : المصادر العربية

١ ــ محمد عوض محمد (د كتور) نهر النيل القاهرة ١٩٥٢

٢ ــ محمود حامد محمد : العالم ــ القاهرة ١٩٣٣ .

٣ ــ محمد صفي الدين (د كتور) إفريقيا بين الدول الأوربية القاهرة ١٩٥٩م

٤ ــ عبد العزيز عبد المجيد (د كتور) حوف خر دار المعارف بالقاهرة ١٩٦٠

٥ ــ عمر طوسون (الأمير) تاريخ مديرية خط الاستواء المصريه ــ القاهرة ١٩٣٧ .

ثانيا : المصادر الأجنبية

6 — Sir Percy Sykes, A. History of Exploration , London 1950

7 — Walter Fitzgerald , Africa. I onden, 1952.

8 — Margery Perham Snd J. Simmons , African Discovery Lenden, Lenee 1957.

9 — A. Austin Miller, Climatelogy, Londou 1953

10 — David levingstone, Missionary travels aud researches in South Africa Londou, 1857.

11 — Huttan Webister, Early European History, Boston, U.S.A. 1920.

12 — Sir Samuel Baker, The Albert Neyanza, great basin of the Nile. Louden, 1066

13 — Mungo Park, Travels in the interiour Districts of Africa, Londor 1790

14 — Cicil Northcott, Livingstone in Africe, London, 1957.

15 — Eucyclopedia Britannica.

جهود العرب في كشف أفريقيا

هناك نظرية جغرافية قديمة تقول ان الجزيرة العربية كانت امتداداً متصلا لقارة أفريقيا فى العصور القديمة قبل أن يتكون المحيط الهندى ويحدث انكسار الأخدود الأفريقى الذى أدى إلى نشوء البحر الأحمر ففصل الجزيرة عن القارة[١].

وكانت شبه الجزيرة الصحراوية تضيق بأهلها فتدفعهم إلى الهجرة إلى المناطق المجاورة للبحث عن مجـال حيوى آخر . وأقرب تلك الأماكن الساحل الشرقى لأفريقيا . هذا بالإضافة إلى عامل هام آخر هو أن مناخ الجزيرة العربية يكاد يكون مطابقاً تماما لتلك المنطقة من القارة فـكان العرب لا يعانون فرقاً مناخيا يحد من نشاطهم وهذا يوضح سبب تلك الهجرات المتعاقبة التى كان يقوم بها أهالى الجزيرة إلى القارة الافريقية[٢] .

وللعرب على علم الجغرافيا فضل عظيم فقد تفوقوا فى هذا العلم تفوقا كبيراً ووضعوا له النظريات التى أخذها عنهم الغرب وكانت الأساس الذى بنى عليـه معرفته بعد أن تسربت إليـه عن طريق الأندلس وصقلية مثل نظرية أبو العشر فى قياس طول الدرجة الأرضية وهى أساس نظرية الغرب فى المد والجزر[٣] .

كما وضعوا التقاويم السنوية وتقاويم النجوم والاستدلال بدوائر البروج على الطوابع والأقدار وتركوا مآثر جغرافيه رائعة عن وصف الشرق الأقصى وأفريقيا الشرقية والسودان وبرارى روسيا ودرسوا كل بلد بمفرده باعتباره وحدة قائمة بذاتها وأوضحوا العلاقة بين السكان والبيئة الطبيعية .

لقد أبقت هذه الدراسات الجغرافية العربية على الفـكرة القديمة عن كروية

---

(١) Fitzgerald . Africa, p. 6

(٢) تاريخ العرب ص ١٠

(٣) تاريخ العرب ص ٤٧٢

الأرض التى لولاها ما تم الكشف عن العالم الجديد وهى التى نادى بها أبو عبيد بن مسلم البلنسى الذى زها فى الشطر الأول من القرن العاشر الميلادى. ومن ذلك أيضاً أنهم نشروا الفكرة الهندية[٤] التى تذهب إلى أن نصف الكرة الأرضية المعروف له مركز على أبعاد متساوية من الخوافق الأربعة وهى نظرية آل «آرين» التى وصلت إلى مصنف لاتينى صدر عام ١٤١٠ ومنها إتخذ كولمبس مذهبه الذى قاده إلى الاعتقاد بأن شكل الأرض يشبه الاجاص وأن لنصفها الغربى الذى يقابل الآرين مركزا آخرا يرتفع على هيئة القمة .

غير أن الأفكار العربية إنتقلت إلى العلوم اللاتينية بصورة أوسع وكان ذلك فى مضمار الجغرافيا الفلكية والرياضيات فكان معظم فلكيى الأندلس من العرب يجمعون القول بأن علل أهم الحوادث التى تطرأ على الإنسان بعد الولادة إلى الوفاة إنما هى راجعة لتأثير النجوم . وقد قضت دراسة هذه العلل (التنجيم) [٥] إلى تحديد مراكز الأماكن فى الأرض ووضع أقيسة الطول والعرض وبهذا أصبح علم التنجيم أبا لعلم الفلك .

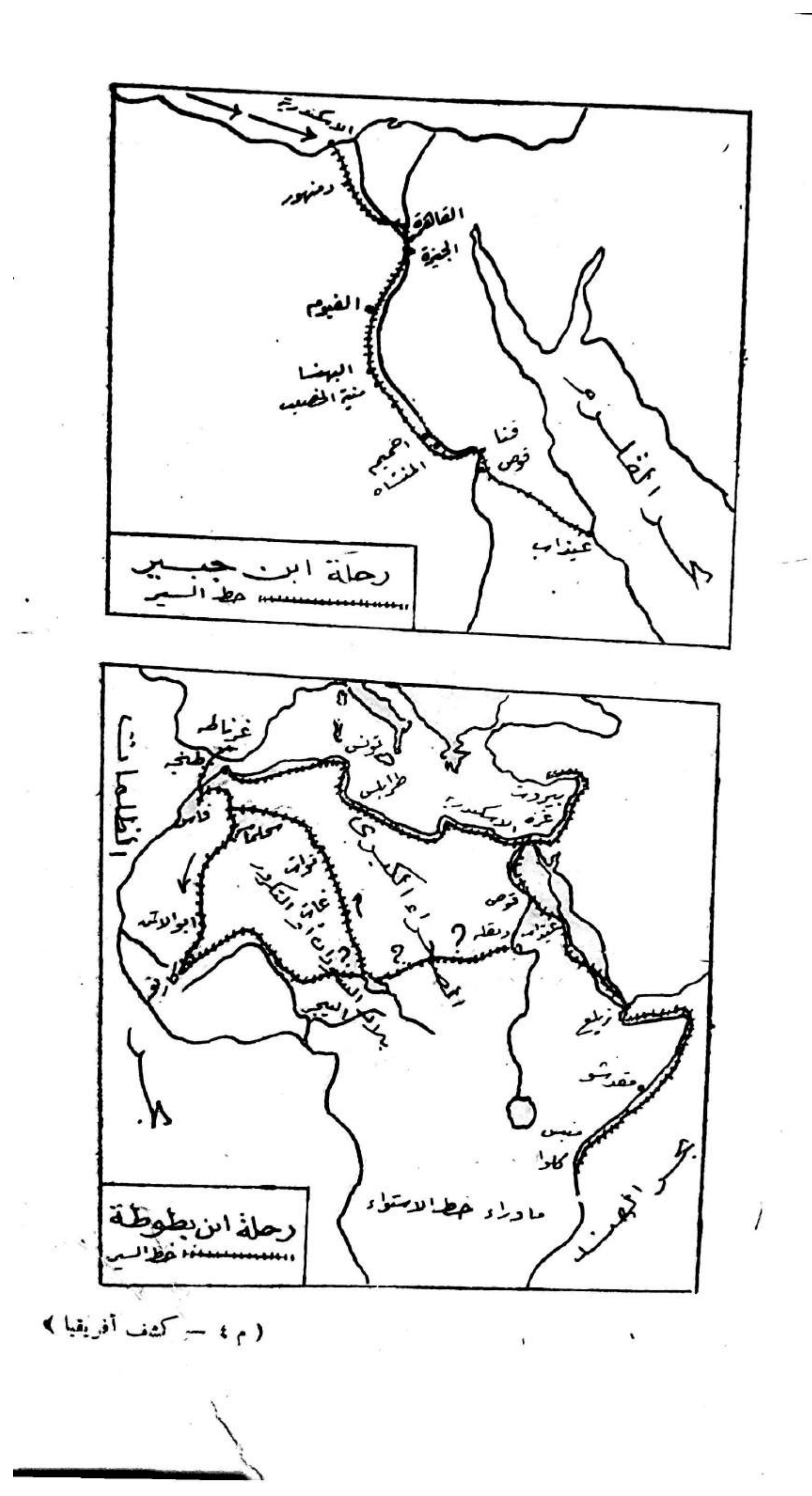
وقد تأثرت الأبحاث العربية فى القرون الثلاث الأولى فى الإسلام بما وصل اليها من اليونان . فقد ترجم العرب كتاب بطليموس ودرسوه ثم نقدوه وأثبتوا خطأ فكرته فى الحركات الفلكية .

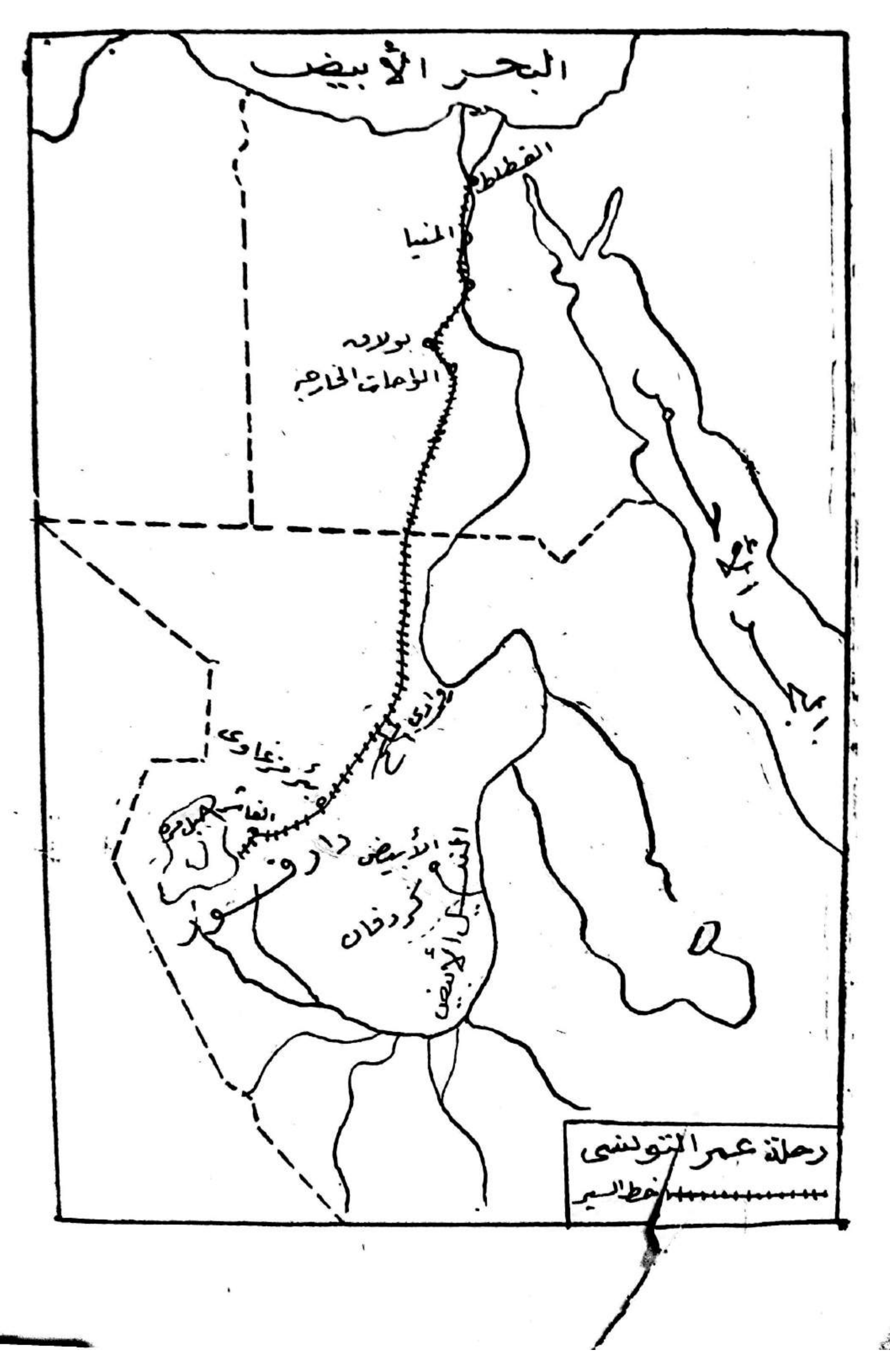
فنجد كتابات الخوارزمى وغيره من معاصريه فى الأطوال والمواقع متأثرة بكتاب بطليموس ولكنهم قاموا بتصحيحه فقد بالغ بطليموس فى تخمين طول

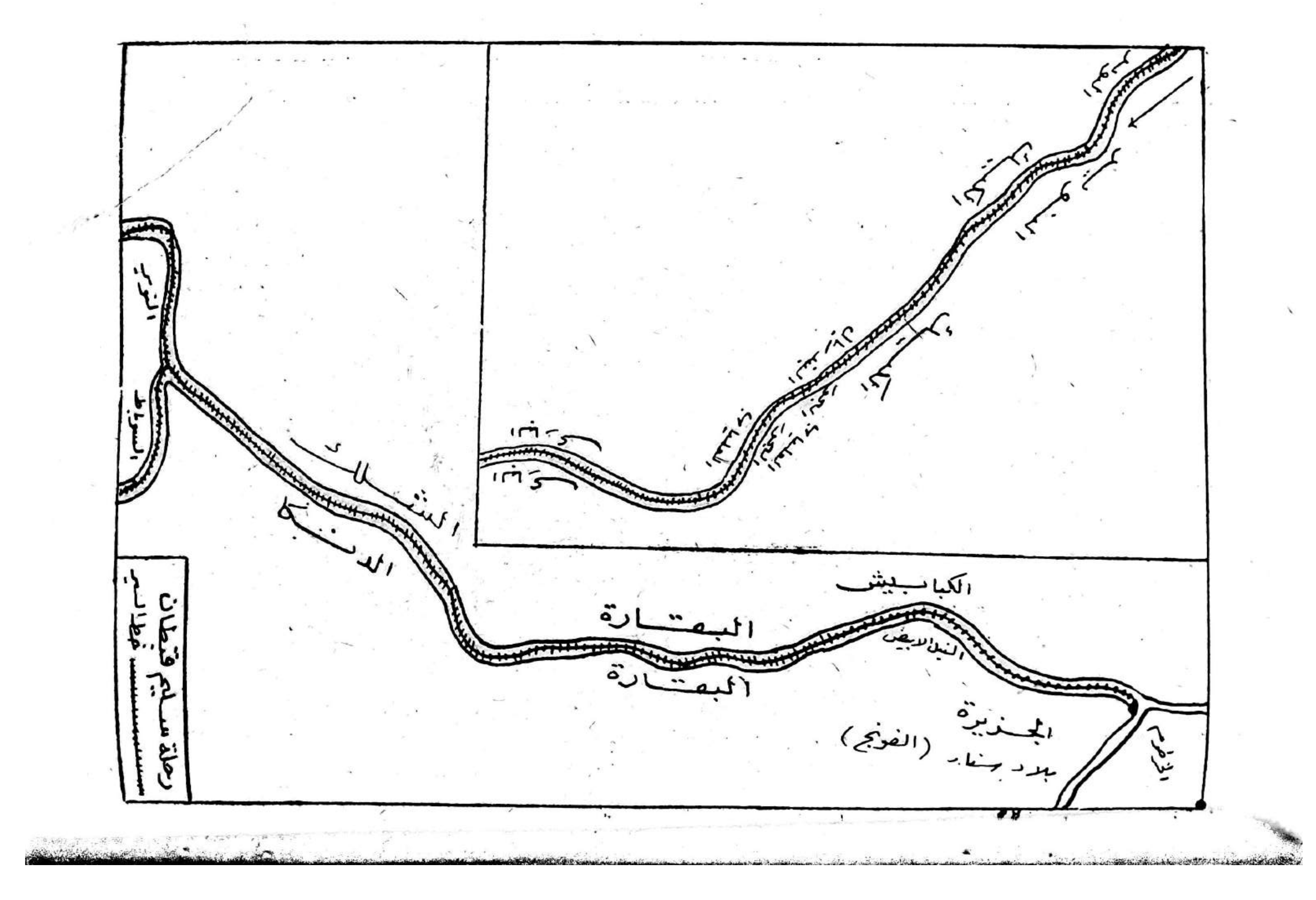
---

(٤) تاريخ العرب ٦٧٧

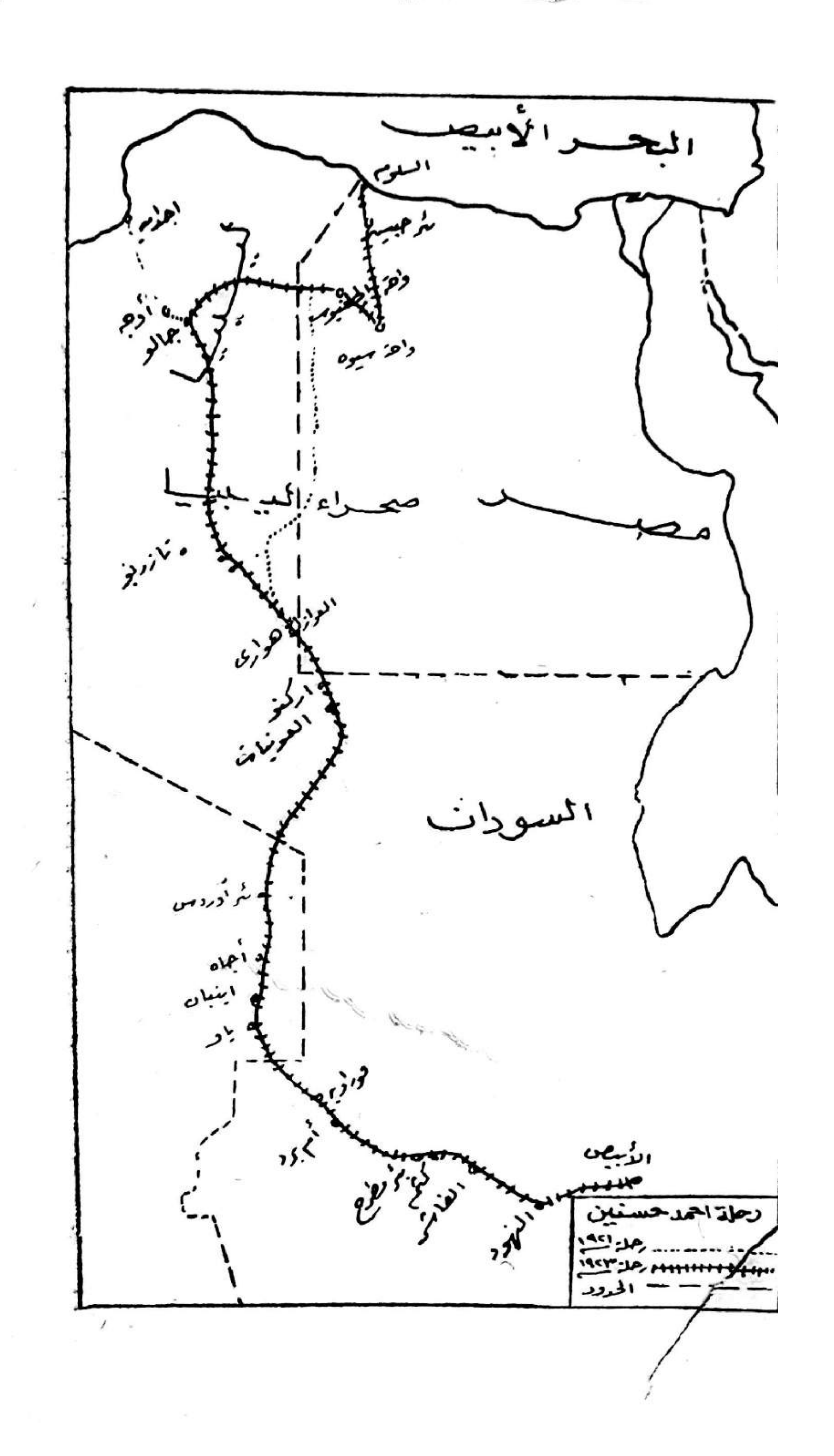
(٥) المرجع السابق ٦٧٨


رحلة ابن جبير
خط السير
الاسكندرية
دمنهور
القاهرة
الجيزة
الفيوم
البهنسا
منية الخصيب
اخميم
المنشاه
قنا
قوص
عيذاب
رحلة ابن بطوطة
خط السير
غرناطة
طنجه
فاس
تونس
طرابلس
بيروت
غزة
الاسكندرية
قوص
عيذاب
زيلع
مقديشو
ممبس
كلوا
ماوراء خط الاستواء
بحر الهند


البحر الأبيض
الفسطاط
المنيا
الواحات الخارجة
وادي
بئر زغاوي
الفاشر
جبل مره
دار فور
الأبيض
كردفان
النيل الأبيض
البحر الأحمر
رحلة عمر التونسي
خط السير



الكبابيش
البقارة
النيل الابيض
البقارة
الجزيرة
(الفونج)
بلاد سنار
الخرطوم
الشلك
الدنكا
النوير
السوباط
رحلة سليم قبطان
خط السير


البحر الأبيض
السلوم
اجدابيه
أوجلة
جالو
واحة سيوه
صحراء ليبيا
مصر
هواري
أركنو
العوينات
السودان
أجاه
اينباه
بار
الأبيض
الفاشر
النهود
رحلة احمد حسنين
رحلة ١٩٢١
رحلة ١٩٢٣
الحدود

البحر المتوسط بجملة ٦٢° فانقصه الخوارزمى إلى ٥٢° والمراجع أن الزرقانى انقصه إلى ٤٢° وهذا أقرب رقم إلى الطول الصحيح .

كذلك نجد كتاب الخوارزمى « رسم المعمور من أقطار الأرض » إما هو إلا إقتباس عن بطليموس ومثل ذلك يقال عن إبن خرداذبه واليعقوبى وإبن الفقيه وإبن رسته .

على أن القرن الرابع الهجرى يمثـــل فترة النضج فى تاريخ البحث العربى الجغرافى (٦) . فقد شغلت أذهان العرب مسألة إدارة البلاد التى فتحوها ليقرروا مقدار الجزية والخراج عليها . لذلك نجدهم يهتمون بوصف المسالك ومن ثم كان وصف البلدان كجزء من عملهم . ويعتبر كتاب « المسالك والممالك » لابن خرداذبه من أقدم الـكتب الجغرافية التى ألفت فى هذا الشأن وكذلك كتاب « الخراج وصنعه الـكتابة » لقدامه بن جعفر .

وقد شجع الاسلام الجغرافيين العرب على مثل هذه الـكتابات الجغرافية لسببين :

١ — رغبتهم فى تأمين وا كتشاف أقرب الطرق والمسالك للحج بين ديار الاسلام الشاسعة .

٢ ـــ حث الإسلام العرب على طلب العلم .

ويمثل الاصطخرى وإبن حوقل والمقدسى درجة عاليـة فى البحث الجغرافى الناضج (فى القرن الرابع الهجرى) المبنى على الاختيار الشخصى والمعرفة المـكتسبة من السفر والتنقل .

---

(٦) الرحالة العرب ص ٣٦ — ٣٧

وإستمر التأليف الجغرافى فى الازدهار ثلاثة قرون حتى ظهرت المعاجم الجغرافيـة . فنى القرن الخامس الهجرى يضع كل من البـكرى وياقوت الحموى معجما للبلدان. وفى القرن الثامن الهجرى ظهرت الموسوعات الـكبيرة فى الجغرافيا والتاريخ والأدب منها « نهاية الأرب » للنويرى و « صبح الأعشى » للقلقشندى و « مسالك الأبصار » لابن فضل الله العمرى . ثم يضع الادريسى مؤلفه « نزهة المشتاق » وهذا يعتبر أوج ما وصل إليه الفـكر العربى ، فالادريسى يمثل مدرسة جغرافية خاصة سماها ميلر بالمدرسة النومانية . (٧)

وأهم مايميز كل هذا الإنتاج الجغرافى العربى أنه يعتمد على المشاهدة الشخصية فـكانوا يقرأون كتب من سبقوهم ثم يقومون بزيارة تلك الأماكن ودراستها وتحقيق ما وجدوه على ما قرأوه ثم يدونونها من جديد . وهذا ما جعل معظم الـكتب الجغرافية العربية تدور فى محور واحد وتنصب على نفس الأماكن مثال ذلك ابن حوقل الذى أخذ كتاب الاصطخرى (المسالك والممالك) ثم يسافر متجولا دارسا للبلاد المذكورة فيصحح الأخطاء ويرسم الخرائط ثم يضع كتابه « صورة الأرض » فيأتى صورة منقحة لـكتاب الاصطخرى . كذلك كان أمر أبو الفدا الذى درس كتب الاصطخرى وابن حوقل والأدريسى ثم وضع كتابه « تقويم البلدان » .

وقد نالت أفريقيا حظا كبيرا من عناية العرب بها سواء الجغرافيين أم الرحالة ويرجع هذا الاهتمام لعدة أسباب : فقد كانت أفريقيا مطروقة لقوافلهم التجارية قبل الاسلام فـكانت جغرافيتها معروفة لهم . كما أن بها ممالك إسلاميـة كثيرة وهذا يتطلب دراسة أحوالهـا وأقاليمها لفرض الجزية والخراج ودراسة مسالـكها لتيسير قوافل الحج وتأمين تلك الطرق .

---

(٧) الرحالة العرب ص ٤٠

أشهر الجغرافيين العرب الذين كتبوا عن أفريقيا

ابن خرداذبه [٨] : وهو جغـــرافى عظيم من أصل فارسى وضع كتابه « الممالك والمسالك » الذى يعد مصدرا هاما فى وصف الأرض من الوجهه التاريخية وقد إستعان به الجغرافيون المتأخرون من أمثال ابن حوقل وإبن الفقيه .

والأصطخرى : لمع إسمه فى منتصف القرن العاشر ووضع مصنفه فى تقويم البلدان المعروف باسم (المسالك والممالك) مزودا بالخرائط لكل بلد على حدة [٩] .

وابن حوقل [١٠] : وهو رحاله عربى وجغرافى شهير درس مؤلفات الجيهانى وابن خرداذ به ويحتمل أن يكون قد التقى سنة ٣٤٠ بالاصطخرى الذى طلب منه أن يهذب بعض خرائطه وأن يراجع مصنفه ويصححه . ولكن ابن حوقل عزم بعد ذلك على كتابة « المسالك والممالك » من جديد فأتمه وأظهره باسم صورة الأرض .

والمقدسى [١١] : ولد ببيت المقدس وزار معظم بلاد الإسلام ما عدا الأندلس ووضع سفرا يشمل بيان اسفاره التى دامت عشرين حولا سماه (أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم) .

والبكرى [١٢] : أشتهر بمؤلفه الكبير المسمى (المسالك والممالك) وقد وضعه كمعظم التآليف الجغرافية فى العصور الوسطى أي على شكل أسفار واختص جزء

---

(٨) دائرة المعارف الإسلامية ص ٤٩

(٩) دائرة المعارف الإسلامية ص ٢٥٦ ، تاريخ العرب ص ٤٧٠

(١٠) دائرة المعارف الإسلامية ص ١٤٥

(١١) تاريخ العرب ص ٤٧١ (١٢) المرجع السابق ص ٦٧٦

كبير منه بأفريقيا والمغرب وان كان لم يرَ أفريقيا ولم يقم بأى رحلة إلى الأجزاء التى وصفها .

المسعودى[١٣] : ووضح كتابه المسمى (مروج الذهب ومعادن الجوهر) الذى يعد من أعظم الموسوعات وقدسار المسعودى على نهج من سبقوه . أخذ عنهم ثم صحح أخطاءهم .

ثم خير الدين التونسى[١٤] : وهو من أشهر الجغرافيين العرب وأهم ما يمتاز به عن غيره أنه كتب بالتفصيل عن جغرافية بلدان أوربا فكتب عن فرنسا والنمسا وسويسرا وبلجيكا وانجلترا وأمريكا وذلك فى كتابه المعروف (أقوم المسالك فى معرفة أحوال الممالك)و كذلك وصف جغرافية أفريقيا وقسمها إلى أربعة فصول.

وما أن يهل القرن الثانى عشر الميلادى (السادس الهجرى) حتى نجد عدداً كبيراً من العرب يقومون برحلات طويلة لأماكن متفرقة . ومن أشهر هؤلاء الادريسى والهروى وابن سامه وابن منقذ وابن جبير.

ومن الرحالة العرب الادريسى الذى قام بزيارة لمدن شمال افريقيا وقد وصف المغرب وصفا دقيقا .

والهروى : وهو من معاصرى ابن جبير طاف جميع الديار الاسلامية ومنها مصر وقد وصف ازهارها وعدد أسماءها بدقة تفوق الخبير فيها .

أما أسامة بن منقذ : فقد كان أميرا فارسيا من أهل الشرق العربى ودخل فى عداد الرحالين لأن كتابه « الإعتبار » فريد فى نوعه فى الأدب العربى وتاريخ

---

(١٣) تاريخ العرب ٤٧٧

(١٤) أقوم المسالك فى معرفة أحوال الممالك للتونسى : ص ٣٩ م : ٠ مم

الفروسية فى جميع الديار الإسلامية .

أما ابن جبير : فقد درست رحلته بالتفصيل (فى الفصل الثانى) كخير من يمثل رحالة هذا العصر .

وبرز فى القرن الثالث عشر ثلاثة من كبار الرحالين هم عبد اللطيف البغدادى وابن سعيد الأندلسى والعبدرى المغربى :

والأول : رحالة عربى وضع كتاب فى وصف مصر سماه (الافادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعانية بأرض مصر[١٥]) .

وقام ابن سعيد الأندلسى : بإتمام الكتاب الذى بداه جده ووالده فى وصف المغرب وسماه (المغرب فى حلى المغرب) كما وصف مصر ومدينة الفسطاط وعادات الأهالى هناك[١٦] .

أما العبدرى المغربى : فقد قام برحلته عبر فيها شمال إفريقيا وابتدأها بالسوس الأوسط ثم تلمسان فالجزائر فبجايه فقسطنطينه فتونس، ولكن لا تحوى رحلته جديدا يستوجب الذكر[١٧] .

ويتوج هذا القرن شخصية شهيرة تعتبر من أعظم شخصيات الرحالين العرب هو ابن بطوطه الذى وضع كتاب (تحفة الأنظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) ويمتاز ابن بطوطه عمن سبقوه بأنه طاف بكل بلاد العالم القديم الذى كان معروفا فى ذلك الحين .

---

(١٥) الرحالة العرب ص ١٠٢
(١٦) الرحالة العرب ص ١٠٣
(١٧) الرحالة العرب ص ١٠٢

وقد أثارت رحلاته كثيرا من النقد واتهم بالتهويل واعتقد أن هذا يرجع لسببين : أولهما أنه أملى رحلته بعد مدة طويلة من انتهاء أسفاره ، وكان قد فقد أوراقه فقص الرحلة من ذاكرته ، وثانيهما : أنه لم يهتم بالناحية الجغرافية ولا بالمكان وأنما كان يقص ما انطبع فى ذهنه ومما رسمته له ذاكرته لجاءت كتاباته تخالف الحقائق الجغرافية للمناطق التى ذكرها .

والواقع أن ابن بطوطه لم ينل حقه الكافى من المؤرخين والمفكرين العرب قدر ما نال من الغربيين الذين ترجموا رحلاته ودرسوها باعتباره الفريد فى أهل جيلة سواء من الشرق أو من الغرب الذى قام بمثل ذلك المجهود الذى يعجز عن القيام به جماعة بأسرها وسوف نأتى على دراسة لرحلته فى أفريقيا .

وأهم رحالة القرن الرابع عشر هو عبد الباسط بن خليل بن شاهين الظاهرى (١٨) وهو من امراء المماليك ووضع كتاب (زبدة كشف الممالك) بعد أن قام برحلاته التى ابتدأها من الاسكندرية إلى بلاد شمال أفريقيا والاندلس ثم عاد إلى الاسكندرية

والمعروف من رحالة القرن السابع عشر هو الحسن بن أحمد الحيمى اليمنى الأصل وقد قام برحلة إلى بلاد الحبشة بناء على أمر من أمام اليمن وقد استغرقت سنتين .

ويمكن أن نطلق على القرن التاسع عشر القرن الذى ظهرت فيه الحركة الكشفية الجغرافية بمعناها المفهوم ، ويبرز فى هذا المجال شخصية البكباشى سليم قبطان ، الذى قام بثلاث رحلات لكشف منابع النيل ، التى تعتبر أول محاولة علمية لكشف هذا الجزء من أفريقيا وقد توصل فيها إلى نتائج كانت الاساس الذى بنى عليه حل مسألة النيل ، كما قام بدراسة طبيعة القبائل القاطنة حول حوض النيل الأبيض تلك الدراسات التى احدثت صدى قويا فى الاوساط العلمية الاوربية

---

(١٨) الرحالة العرب ص ١٩٦

وما أن يهل القرن العشرون حتى تكون أفريقيا قد عرفت تماما كل اجزائها وتكون حركات الكشوف الأوربية قد هدأت بعد أن وضع الاستعمار يده على معظم اجزائها .

ولكن تظهر فى النصف الأول من هذا القرن شخصية عربية تقوم بدراسة منطقة الصحراء الغربية دراسة لا تهدف إلا إلى الكشف العلمى المنزه من الاطماع الاستعمارية تلك هى شخصية أحمد حسنين الذى اكتشف واحتى اركنو والعوينات وحدد اماكنهما على خريطة أفريقيا .

تلك هى مجهودات الرحالة العرب عبر القرون ، هؤلاء الذين قضوا شطرا من حياتهم يجوبون أفريقيا ويذللون مسالكها لاليغتصبوها من أهلها وإنما ليضعوا المؤلفات والموسوعات عن تاريخها وجغرافيتها . ثم يأتى الغرب ويتخذ من العرب الادلاء الذين يدلونه فى زيارة الطريق ثم يضع فيها المؤلفات فينغفل مجهوداتهم وينسب إليه وحده اكتشاف أفريقيا .

والواقع أن الكشف الجغرافى الأوربى لأفريقيا ماهو ألا تسجيل علمى واعلان للمعلومات التى كان يعرفها السكان المحليون والتجار العرب والرحالة المسلمون .

وسوف أعرض هنا أهم تلك الرحلات العربية والنتائج الجغرافية التى أسفرت عنها .

وسنحاول الآن أن نخص بكلامنا هؤلاء الذين ساهموا فى كشف أفريقيا .

أولهم : ابن حوقل :

وقد سبق أن قلنا أنه تأثر بمؤلفات الجيهانى وابن خرداذبة والاصطخرى الجغرافية ووضع كتاب (صورة الأرض) .

والكتاب يشمل كل البلاد الإسلامية بالاضافة إلى الهند والصين والاندلس

أما الجزء الخاص بوحشي المنصب على أفريقيا فقد اقتصر منها على :

الجانب الشرقى من أفريقيا :

بحر القلزم ومن يسكن جزائره من البجة .

ثم الحبشة وقد ذكر أن أهلها نصارى وتقترب الوانهم من العرب واهلها أهل سلم وليست بديار حرب .

ثم زيلع التى تتصل بمفاوز النوبة .

ثم النوبة : هى بلد أوسع من الحبشة ويخترقها نيل مصر وهى بلد عامر خصيب من أحسن مدنها نواحي علوة وفى أعلاها نهر يجرى من الشرق يعرف بأور وهو يصب فى النيل .

والنيل الأبيض الذى يجرى من ناحية الغرب كبير غزير الماء وعليه قوم من النوبة وفى غربيه تقيم أمة تعرف بالجبليين .

ثم أرض الزنج : حيث يوجد معدن التبر وهم لا يستخرجونه خوفا من أن يشتهر فيغلب الإسلام عليهم .

ثم زار مصر ووصف بعض الطرق التى تخترقها وهى الطريق من الفسطاط إلى الاسكندرية ويبتدىء من الفسطاط إلى شطنوف إلى سنبك العبيد إلى منوف إلى نستراوه وهى تقع على بحيرة البشثور ومنها إلى البرلس إلى رشيد التى تقع على مقربة من مصب فوهة البحر وتعرف هذه الفوهة باشتوم وهى المدخل من البحر .

وهناك طريق آخر من شطنوف إلى الاسكندرية مارا بدمياط وتنيس إلى بورسعيد

إلى قرية الصير إلى طنتنا إلى سنديون إلى محطة أبى فراشة الى سنفديس ثم الطريق من الفسطاط إلى الرملية ويبدأ من الفسطاط إلى بلبيس الى فاقوس ثم الرملة .

وتكلم ابن حوقل عن نيل مصر فقال أنه لا يعلم أحد مبدأه ذلك أنه يخرج من مفاوز وراء أرض النوبة ويجرى فى عمارات متصلة إلى أن يصل إلى مصر وهو نهر يكون عند امتداده أكبر من دجلة والفرات إذا اجتمعنا وماؤه أشد عذوبة وبياضا من سائر أنهار الإسلام .

وذكر الواحات وقال أنها اثنتان : الداخلة والخارجة ، أما الداخلة فتعرف ببيريس وبيخيط (ويسكنها آل عبدون من البربر) وهى قريبة من النيل .

كما زار بلاد المغرب وذكر ان بعضه يمتد على بحر المغرب ولهذا البحر جانبان شرقى وغربى أما الغربى فمصر وبرقه إلى أفريقيا ناحية تنيس وسينة وطنجة . وأما الشرقى فهو بلد الروم ، وحده الغربى يبدأ من مصر والاسكندرية على النيل إلى أرض الصعيد .

وأهم مدن المغرب هى برقة واجدابية وسرت وقابس والمهدية وسوسه والجزائر وتونس وسطفوره

وسلك ابن حوقل الطريق من أفريقيا إلى تاهرت : فبدأ من القيروان إلى الجهينة إلى سبيبه إلى بافاس إلى دوفانه إلى دار الملوك إلى طنبه إلى مقره إلى وادى سهر إلى جوزا إلى جرتيل إلى أبن ماما إلى تاهرت

ومن القيروان اتجه إلى جلولا إلى اجر إلى طافجنة إلى الأريس .

ومن فاس ذهب إلى مصب وادى فاس فالوادى المالح فالمسيله .

وقد انصبت رحلة ابن حوقل على دراسة أفريقيا شمالى خط الاستواء أى من البحر الأحمر (القلزم) شرقا إلى المحيط الأطلسى غربا ومن ساحل أفريقيا الشمالى (ساحل بحر المغرب إلى السودان). ولم يصل إلى الجنوب بالرغم من وجود ممالك إسلامية فى السواحل الشرقى ولكنه لم يذكرها . ولم يصغ ابن حوقل كتابه على هيئة رحلة إنما عرضه بطريقة الوصف الطبوغرافى فجاء أشبه بكتاب جغرافى .

والحقيقة التى يجب ألا نغفلها هى أن ابن حوقل قد بذل مجهودا ضخما فى دراسته لتلك المنطقة فجاءت شاملة لجميع المدن والأودية والمعادن التى احتوتها الهضبة الشمالية ، وهو لم يكتف بوصف البلاد فقط بل نظم طرقها ومسالكها فذكره للطرق الثلاثة المؤدية إلى المسيلة دليل على درايته التامة لهذه الأجزاء . ولكن ذلك لا يمنعنا من أن نشير إلى خرائطه فقد كانت بها أخطاء كبيرة فمثلا خريطته لبحر فارس (ص ٤٥) جعل فيها النيل وأفريقيا الجنوبية تدور مع البحر حتى تصير نهايتها فى موازاة الهند والصين التى رسمها فوق الهند ، كذلك خريطته لبلاد المغرب (ص ٦٦) جعل بلادها الداخلية تمتد إلى الشرق بدلا من أن يكون من الشمال إلى الجنوب ، وفيما عدا هذه الأخطاء فان الرحلة تعتبر من أقيم الرحلات التى قام بها العرب فى أفريقيا فهى تكاد تكون مسحا جيدا لمدن الهضبة الشمالية ويكفى ابن حوقل فخرا أنه قام بمثل هذا المجهود حوالى سنة ٣٤٠ هـ أى منذ أكثر من ألف عام .

ثانيا : ابن جبير(١٩) .

وقام برحلته بين ١١٨٢ م – ١١٨٥ م (٥٧٨ هـ – ٥٨١ هـ) جاب فيها الديار المصرية وساحل البحر الأحمر والحجاز والشام والعراق .

---

(١٩) رحلة ابن جبير

والواقع أن ابن جبير لم يقم برحلة واحدة فى أفريقيا بل هى ثلاث : الأولى كانت إلى الأندلس والثانية إلى بيت المقدس بعد أن استرده المسلمون من الصليبيين والأخيرة بعد موت زوجه عاتكة أم المجد حيث رحل إلى مكة ثم بيت المقدس ثم مصر وأقام فى الأسكندرية حتى وافاه الأجل المحتوم .

ورحلة ابن جبير تدرس فترة هامة فى تاريخ الشرق والإسلام وقت اشتداد الحروب الصليبية ، ولذا فهى تعد تاريخا هاما لهـــذه الفترة الحرجة فى تاريخ الإسلام والمسلمين ، ولشخصية صلاح الدين الأيوبى الذى قاد المقاومة العربية ضد التغلغل المسيحى ، وقد رسم له ابن جبير صورة رائعة كشفت عن المكانة التى احتلها هذا البطل فى قلوب المسلمين . كما صور العلاقة بين المسلمين والمسيحيين فى حروبهم وسلمهم وإبراز حال المسلمين فى المناطق التى احتلها الصليبيون من الشام وصقلية .

وكان ابن جبير يدون مشاهداته فى مذكرات فأثر ذلك فى أسلوب الكتاب فجاءت تعبيراته عامية وعباراته منفصلة لا ترابط بينها وكثيرا ما ينسى أشياء فيلحقها فى غير موضعها كما فعل فى وصفه للمدن المصرية .

وفيما يلى خط سير الرحلة الخاص بقارة أفريقيا وهو الساحل الشمالى ومصر حتى عيذاب .

بدأ ابن جبير بتسجيل الرحلة سنة ٥٧٨ هـ ـ فخرج من غرناطه راكبا البحر إلى قصر مصمودة (رأس شمال أفريقيا المقابل للأندلس) وهناك ركب مركبا للروم قاصدا الأسكندرية .

ثم ترك الأسكندرية إلى دمنهور ثم اجتاز النيل بموضوع يعرف بصا ثم إلى برمة فسبك فمليج ومنها إلى القاهرة ثم أخذ تعدية إلى الضفة الأخرى من النيل فوصل إلى مصر ثم تركها متخذا النيل إلى قوص . (وهى حفيلة الأسواق متسعة

المرافق كثيرة الخلق كثيرة الصادر والوارد من الحجاج والتجار اليمنيين والهنديين وتجار أرض الحبشة). ثم تركها الى عيذاب التى كانت (صحراء لاعمارة فيها). وهو يصف هذا الطريق الصحراوى فيقول : « ومن عجائب ما شاهدناه بهذه الصحراء أنك تلتقى بقاعة الطريق بأحمال الفلفل والقرفة وسائرها من السلع مطروحة لا حارس لها تترك بهذه السبيل وتبقى بموضعها إلى أن ينقلها صاحبها مصونة من الآفات على كثرة المار بها » .

ولم يضف ابن جبير جديدا بالنسبة للجزء الذى زاره فى أفريقيا وهو مصر ووادى النيل حتى قوص ثم ساحل البحر الأحمر وليس فى رحلته أى كشف جغرافى. وإنما هو بحث اجتماعى لحالة الأهالى ووصف لأهم ما يمتاز به البلد .

ولا يمكن أن نطلق على ابن جبير لفظ رحالة جاب افريقيا إذ أن الجزء الذى سلكه كان معروفا من قبل ولم يسلكه رغبة فى اكتشافه أو حبا فى إرتياد المجهول وإنما كان ذلك هو الطريق الوحيد الموصل إلى فرضة وهو الحج . ولكن دقة ابن جبير وتسجيله لكل ما شاهده فى هذا الجزء من افريقيا جعله يدخل فى نطاق الرحالة المؤرخين لا الرحالة المستكشفين .

ثالثا ـ ابن بطوطه

له ثلاث رحلات واسعة النطاق جاب فيها أكثر ما عرف فى زمانه من بلاد ، وطاف فى رحلته الأولى بشمال افريقيا وشرقها ثم بلاد الشام والهند والصين وأجزاء كبيرة من آسيا . وطاف فى الثانية بالأندلس ، أما الأخيرة فكانت فى غرب أفريقيا ومجاهلها .

وبعد طول المطاف استقر فى فاس حيث أمر أميرها كاتبه أن يكتب ما يمليه الشيخ ابن بطوطه فانتهى من تسجيل رحلته سنة ١٣٥٦ م وسماها (تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار)وقضى ابن بطوطه بقية حياته فى فاس حتى مات بها سنة ١٣٨٧ م

وقد استغرقت رحلاته الثلاث ٢٩ سنة من سنة ١٣٢٥ م — ١٣٥٤ م

خرج ابن بطوطه من مسقط رأسه طنجة قاصدا بيت الله الحرام فوصل تلمسان وأقام بها ثلاثة شهور ثم خرج سالكا طريق البحر فوصل سوسه ثم الاسكندرية . ثم سار إلى دمنهور (أم مدن البحيرة) ثم فو (وهى مدينة عجيبة المنظر بها البساتين الكثيرة والفوائد الاثيرة) إلى المحلة الكبرى وهى على ساحل بحر تنيس، ثم دمياط وتقع على شاطىء النيل . ثم سافر إلى فارسكور فاشمون الرمان ثم وصل إلى سمنود ومنها ركب النيل إلى مصر أم الدنيا وقرارة فرعون ذى الاوتاد ذات الاقليم العريضة متناهية فى كثرة العمارة تموج موجة البحر بسكانها وتكاد تضيق بهم على سعة مكانها .

ثم ترك مصر قاصدا الصعيد فمر بمنية القائد ثم مدينة بوش (أكثر بلاد مصر كتانا ومنها يجلب إلى سائر أفريقيا) ثم ببانم البهنسا فمنية إبن خصيب على شاطىء النيل ثم ملوى فمنفلوط (وتشتهر بصنع ما يشبه العسل وهو يستخرج من القمح ويسمى النيدا) ومنها إلى أسيوط فاخميم . ثم وصل إلى هو ثم قنا فقوص ، ثم الأقصر ومنها إلى أرمنت ثم اسنا فادفو فالعطوانى ثم ركب جملا وسافر مع طائفة من العرب فى صحراء لا عمارة بها كثيرة الضباع واستمر على ذلك نحو خمس عشر يوما حتى وصل إلى عيذاب وهى تقع على شاطىء البحر الأحمر وأهلها هم البجه وكانوا فى حرب مع الاتراك فلم يتمكن من السفر عن طريق البحر الأحمر فرجع مرة أخرى إلى قوص ثم بلبيس ثم الصالحية فغزه ومنها إلى الشام .

وكانت رحلته الثانية فى ساحل أفريقيا الشرقى عن طريق البحر الأحمر حيث وصل إلى سواكن ومنها قطع البحر الأحمر إلى اليمن ثم عاد إلى ساحل أفريقيا الشرقى فوصل إلى زيلع (وهى مدينة كبيرة بها سوق عظيم إلا أنها أقذر مدينة فى المعمورة وأوحشها وأكثرها نتنا) ثم سافر إلى مقدشو (وهى متناهية فى الكبر وتصنع فيها الثياب التى لا نظير لها) ثم ركب البحر متوجها إلى بلاد السواحل قاصدا كلوا بلاد الزنوج فوصل كلوا التى يصفها بأنها أحسن المدن وأتقنها عمارة وكلها من الخشب وأمطارها كثيرة وأهلها شافعية فى جهاد متصل مع كفار الزنوج ومنها قصد اليمن .

وكانت رحلته الثالثة فى غرب أفريقيا : فقد عاد مرة أخرى إلى ساحل أفريقيا الشمالى عن طريق غزه فالقاهرة ثم ركب البحر إلى قابس فسفاقس إلى تونس ففاس فطنجه فسبته ومنها إلى بلاد الاندلس ثم رجع إلى مراكش ثم سلا فمكناسه ففاس مرة أخرى . ثم تابع رحلته إلى السودان الغربى فوصل سجلماسه (وهى كثيرة التمر) ثم تغازى (وهى قرية لا خير فيها) ثم عبر الصحراء فوصل إلى تاسرهلا ثم إلى مدينة أيوالاتن أول أعمال السودان ثم وصل إلى النهر الأعظم نهر النيل وعليه بلدة كارسخو (يقصد نهر النيجر) ثم يقول إن النيل ينحدر من كارسخو هذه إلى كابره إلى زاغة وهما سلطنتان تؤديان الطاعة لملك مالى وأهل زاغة قدماء فى الإسلام — ثم ينحدر النيل من تنبكتو إلى كوكوالى بلدة مولى فيومى (وهى أكبر بلاد السودان) ثم سافر من كارسخو وخرج منها إلى خليج كبير يخرج من النيل ومنه وصل إلى بلدة ميمه فتنبكتو وبينها وبين النيل أربعة أميال ثم وصل إلى كوكو وهى تقع على النيل (ومن أحسن مدن السودان) ثم وصل بردامة فتكدا وهى مبنية بالحجارة وماؤها يجرى على معدن النحاس فيتغير لونه وطعمه وأهلها يشتغلون بالتجارة مع مصر .

وفى تلك تسلم امرا من امير المؤمنين سلطان فاس يدعوه للعودة فقفل راجعا إلى فاس وبها انتهى رحلته المسماه « تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الاسفار » .

وأهم ماوصفه ابن بطوطة مدينة عيذاب وأهلها من البجة وجزيرة سوا كن وزيلع وكلوا وطريق مالى .

ثم وصف أهل السودان : بأنهم سود الألوان يأكلون بنى آدم وقد اهدى السلطان منسى موسى سلطان مالى خادما فذبحوها وأكلوها ولطخوا وجوههم وايديهم بدمائها ولا يأكلون اللحم الأبيض لاعتقادهم أنه لم ينضج بعد ولذا فهو مضر .

قيمة ابن بطوطة كمستكشف

« أى سائح اوربى يمكن أن يفتخر بأنه قضى من الزمن ماقضاه ابن بطوطه فى البحث لكشف المجهول ، بل أى أمة اوربية كان يمكنها منذ خمس قرون أن تجد من بين ابنائها من يجوب البلاد الأجنبية مالهذا الرحالة العظيم ، أن ماجاء به من المعلومات الصحيحة عن جهات افريقيا المجهولة لايقل فائدة عن معلومات ليون الافريقى » هذه السطور كلمات مدح قالها المستشرق الشهير ستيزن فى حق الرحالة ابن بطوطة ومجهوداته الجغرافية فى كشف افريقيا وغيرها مما زاره .

اما كاتب الرحلة نفسها ابن جزى الذى املاه الرحالة رحلته فيقول [٢٠] وأوردت جميع ماأورده من الحكايات والاخبار ولم اتعرض لبحث عن حقيقة ذلك ولا اختباره — كذلك يقول ابن خلدون فى مقدمته أن ابن بطوطه كان يروى حكايات غريبة يتناجى الناس بتكذيبها .

هكذا نجد رحلة ابن بطوطه قد شغلت الأذهان وتضاربت الاقوال فى صدقها فبعضها رماها بالكذب والتهويل وآخرون أعطوها حق قدرها . ومن الأنصاف أن نذكر حقيقة هامة قبل أن نحكم على الرحلة وهى أن سيرة ابن بطوطه كانت تسبقه قبل أن يصل أى بلد فكان الناس ينتظرون قدومه ثم يلتفون حوله متسائلين

---

(٢٠) مهذب ابن بطوطه ص ٤ .

عما شاهده من مجهول واعتقد أن هذا الذى حدا به إلى التهويل بعض الشىء حتى يجعل حديثه شهيامشوقا . هذا إذا أخذنا فى الاعتبار أنه كان يرتزق من هذه الزيارات إذ أنه رحالة محترف فكان عليه فعلا أن يهتم باجتذاب الناس إليه والسيطرة على عقولهم بأن يضفى شيئا من الخيال المستحب لأحاديثه هذابالاضافة إلى طبيعة العصر الذى كتبت فيه الرحلة وهى أوائل القرن الرابع عشر فقد كان ظلام الجهل يخيم على العقول .

هذا لا يمنعنى من أن أقول أن ابن بطوطه وقع فى أخطاء كثيرة كان من الممكن أن يتلافاها إذا أجهد ذهنه بشىء من التفكير بل كان يأخذ الأشياء كما هى وعندما كان يربط بينها كانت نتائجه تأتى خاطئة وهذا يرجع لا إلى الجهل بها بقدر ما يرجع إلى عدم إعتنائه بدراستها .

وفى مقارنته إنتاج مصر الزراعى بانتاج المغرب يقول : « أن السمن لا يوجد بمصر فى أكثر الأوقات والذى يستعمله أهل مصر من أنواع الآدام لا يلتفت إليه فى المغرب وأما الخضر فهى أقل الأشياء بمصر والفاكهة أكثرها مجلوبة من الشام وعن اللحم بمصر يزيد ثلاثة أضعاف عن ثمنه بالمغرب[٢١] » .

وفيما عدا ذلك نجد وصف ابن بطوطه للمظاهر الجغرافية التى شاهدها وصفا دقيقا ففى وصفه للصحراء الكبرى يقول : « تلك الصحراء كثيرة الشياطين فإن كان التكشيف منفردا لعبت به واستهوته حتى يضل عن قصده فيهلك إذ لا طريق يظهر بها ولا أثر . وإنما هى رمال تسفوها الريح فترى جبالا من الرمل فى مكان ثم تراها قد انتقلت إلى سواه وبهذه الصحراء بقر وحشى لحمه يولد العطش فتحاشاه كثير من الناس ومن العجائب أن هذه البقر إذا قتلت وجد فى كروشها الماء وقد

(٢١) تحفة النظار (الجزء الثانى) ص ١٧٩

رأيت أهل مسوفه يمصرون الكرش ويشربون ماءها » .

هذا وصف سليم لمنطقة الصحراء الكبرى إذا استبعدنا حكاية الشياطين هذه نجده وصفا دقيقا جيدا لطبيعة تلك المنطقة وعواصفها الرملية وما تحدثه من غرود .

وفى الختام لا يسعنى إلا أن أقول أن ابن بطوطه قد أفاد برحلته علم الجغرافيا والتاريخ فقد كتب عن نباتات ومناخ وحيوانات البلاد التى زارها وإليه يرجع الفضل فى معرفتنا بغرب افريقيا وحضارته فرحلته تعتبر المرجع الوحيد له ومنها استمد المؤرخون والباحثون تاريخ تلك المنطقة .

رابعا : الحيمى (٢٢)

التعريف بالرحالة :

أما سبب قيامه بالرحلة هو أنه فى سنة ١٠٥٧ هـ وفد على امام اليمن رسول من إمبراطور الحبشة فاسيلادس وحمل إليه هدية من الرقيق والزباد والبغال وسلاح الجيش وضمن جميعا استدعاء رسول من قبل الإمام يثق به ليفضى إليه بسر ولما سأل الإمام رسول الملك عن هذا السر أبلغه أنه يظن أن الإمبراطور يريد الإسلام فلما سمع الإمام ذلك سر وعزم على أن يتوصل إلى إتمام ذلك بكل حيلة فارسل الحيمى ليقوم بهذه المهمة .

أما الحيمى فيذكر بعد ذلك أن السبب الذى جعل الامبراطور فاسيلادس يكرر طلبه إلى إمام اليمن فيقول : « هو أن السلطان كان يريد فتح الطريق من جانب بيلول وربما كان هذا هو ضميره المستكن من هذه المواصلة بينه وبين امامنا فإنه يعلم أن لا يتم له فتح هذا الطريق إلا بقوة وعناية من وجوه عدة جعلتها معاودة

---

(٢٢) سيرة الحبشة

الوصول من قبل الإمام فى هذا الطريق ، فأنهم مع قوتهم بمعونة الله واصطحابهم البنادق يسير معهم كثير من أهل التجارة دخولا وخروجا فتسهل أوعارها وتتقلل أخطارها » .

وقد استغرقت رحلة الحيمى فى بلاد الحبشة سنتين رجع بعدهما إلى اليمن وكتب رحلته المسماه (حديقة النظر وبهجة الفكر فى عجائب السفر) . ومات فى شهر ذى الحجة سنة ١٠٧١ ﻫ وهو فى الرابعة والخمسين من عمره .

ركب الحيمى من بندر المخا الى بيلول وسار فى ارض مستوية كثيرة الأشجار ثم دخل فى اودية بين جبال عالية فيها ماء جار فوصل الى محل يسمى عين ملى يسكن فيها القالة (يقصد الجلا) وانضم الى قافلة السلطان شحيم سلطان بيلول وبعد خمس مراحل خشى السلطان على نفسه وعلى من معة ورجع بعد أن ترك معه رسولا يقود قافلتهم

وسارت القافلة بعد ذلك إلى طريق مخيف ولم يتقدم الا رسول الملك الذى كان يرابط فى أعلى الجبل يستطلع وصول القافلة فشاهد ظهور النار فى شاطىء تلك البحيرة ورأى القافلة قد سلكت الوادى فنزل من الجبل بعد أن أمر جماعته أن يظلوا فى اماكنهم ليكونوا عيونا عليهم والتحق هو بالقافلة وأمرها بسرعة الارتحال . فسارت الى (أندرته) ثم تركوها وبعد مسيرة ثلاث مراحل وصلوا الى بلاد السحرت وقابلهم اميرها الذى زودهم بجيش على نحو الفى رجل بالحرب والخيل وساروا نحو خمس مراحل اخرى فوصلوا الى بلدة أبرقلى وقابلوا أميرها كذلك الذى سارع باخراجهم منها لحقارتها . ثم تابعوا سيرهم الى بلدة الفلاشه فوصلوها بعد اتمام سبع مراحل واستمروا يسيرون فى بلاد الفلاشه قدر اثنتى عشرة مرحلة حتى وصلوا الى قرية قريبة من مدينة الملك اهلها كلهم مسلمون ثم تركوها الى داخل بلاد الامحرة حيث التف حولهم اهلها لمشاهدة هؤلاء العرب — الوافدين ، ثم وصلت القافلة الى قلعة الملك وهى عبارة

عن دار عالية من أعجب المبانى الباهرة مبنية بالحجارة والنوره وليس فى تلك المدينة بل ولا فى ارض الحبشة غيرها .

وأقام الحيمى ومن معه عند الملك حتى وصلهم رسول من امام اليمن يأذنهم بالرحيل عن طريق مصوع وعارض ملك الحبشة سلوك هذا الطريق مدعيا أنه غير مأمون اذ أن الاتراك وهم أعداء الحبشة يسيطرون عليه . وظل الملك يراوغهم ويماطلهم حتى اذن لهم بعد انقضاء تسعة اشهر .

وعادة قافلة الحيمى من بلاد الحبشة فى قافلة تزيد عن المائة نفر ولم يصحبهم دليل الملك الا مسافة عشرة مراحل فقط فاضطروا أن يدبروا شئونهم وأمنهم بأنفسهم فكانوا يربطون رئيس كل قرية يصلون اليها بالحديد ويحملونه معهم تحت الحفظ والامان حتى يخرجوا من قريته ويبلغوا بلده أخرى فيطلقون سراحه وذلك حتى لا يعتدى عليهم اهلها . وظلوا على هذا المنوال حتى وصلوا إلى بلدة دباروى فهاجمهم البدو النصارى فاطلقت القافلة عليهم الرصاص فلاذوا بالفرار . وفى اليوم التالى تجمع حولهم البدو وقد بلغوا جيشا عظيما وكادوا يودون بحياتهم لولا نجدة الترك التى لحقت بهم ففرقت شملهم . ثم وصلت القافلة الى بندر مصوع حيث فرقت على ثلاث سفن قاصدة ساحل « اللحية » ولكن هبت الرياح وهطلت امطار أغرقت سفينة الحيمى ثم انفرجت الشدة ووصلت بعثة الحيمى إلى مرسى اللحيه سنة ١٠٥٩ هـ بعد ان تكون الرحلة قد استغرقت واحد وعشرين شهرا من تركهم لهذا المرسى .

وقد سجل الحيمى كل ماشاهده فى رحلته فترك بذلك وصفا جغرافيا للمنطقة فوصف أهل بيلول بانهم بدون منكرو الصورة خالين عن التخلق بشىء من احكام الشرع الشريف وذلك لما شاهده من اختلاط رجالهم بنسائهم وكلهم عراة

لايسترون عوارتهم ولايستترون بمنكر عندهم من المعروف والبدع من الأمر المألوف واسانهم اعجمى بلغة تخصهم ليست من لغة الحبشة وهم يخافون البنادق ويهربون لرؤيتها[٢٣] .

ووصف القالة (الجلا) : بانهم امة شديدة البأس متينة المراس كثيرة العدو بعيدة الامد إذا توجهو للحرب[٢٤]

ووصف قبيلة الفلاشة : بانها قبيلة كبيرة من اعظم قبائل الحبشة على دين اليهودية وشريعة التوراة وكانوا من قبل ذلك خارجين عن طاعة ملك الحبشة لاختلاف الدين ولكنه غلبهم واستنزلهم من حصونهم فدخل أكثرهم فى النصرانية[٢] .

وقال عن الامهره : ان ليست فيهم شيء من المروءة او مكارم الاخلاق فهم فى اللؤم وشدة البخل كأنهم جميعا اخلاق رجل واحد ولم نستطع ان ندخل مواطنهم إلا بقهرهم[٢٦]

كما وصف ملك الحبشة : ورجاله بانهم كانوا فى أفخر هيئة واعظم ابهة يلبسون الديباج المطرزة بالذهب وفى ايديهم السيوف السنارية المحلاه كذلك بالذهب الخالص والوانهم غير مشوهة بالسواد الفاحم ورؤوسهم مكشوفة عن الشعر الجميد وفى ايديهم وأوساطهم الذهب المحلى بالفصوص الفاخرة ونفيس الجوهر .

---

(٢٣) سيرة الحبشة ص ١٠٣

(٢٤) نفس الموجع ص ١٣

(٢٥) نفس المرجع ص ٢٨

(٢٦) نفس المرجع ص٢٩

ورحلة الحيمى إلى بلاد الحبشة تعتبر رحلة استكشافية ناجحة أسفرت عن نتائج جغرافية على جانب عظيم من الاهمية .

فقد قام الحيمى بها فى القرن السابع عشر الميلادى فلم تكن هذه المنطقة من ميناء بيلول إلى بلاد الحبشة قد اكتشفت جغرافيتها علميا إلا من العرب . فقد عرفوا مسالكها كما سبق أن اشرت فى القسم الأول من البحث ، حتى البرتغال وهم اسبق الدول فى الاستكشافات الجغرافية لم يصلوا إليها فيعتبر الحيمى أول رحالة راد مسالكها وكتب عنها وقد استطاع أن يكتشف الطريق المؤدى من ميناء بيلول إلى بلاد الحبشة .

خامسا — محمد بن عمر التونسى

أما سبب قيامه برحلته فهو بحثه عن أبيه الذى سافر إلى دارفور وهو لم يبلغ بعد السابعة . وهو يخصص فى مقدمة رحلته جزءا كبيرا عن سبب سفر والده ملخصها أن جده ارتحل إلى سنار وجد من عطف ملكها ماجعله ينسى اولاده واوطانه فلما كبر والد التونسى تحرك شوقه إلى الحج ، وفى القصر التقى وبوالده صدفه وحاول أن يعود به إلى تونس ولكنه رفض . ورجع بمفرده حيث أقام فى القاهرة ثم وصلته رسالة من أخوته تخبرهم بموت والدهم فترك هو اولاده وهما الرحالة محمد وأخ اصغر منه ولم يعد يسمع عنه شىء حتى علم من أحد رجال سنار أن والده على قيد الحياة وهو من اعظم الناس عند السلطان فى دافور فسافر ليلحق به ومن ثم كانت رحلته التى سماها (تشحيذ الاذهان بسيرة بلاد العرب والسودان)

سير الرحلة

قام من الفسطاط على شاطىء النيل إلى المكان الذى يقابل المنيا ثم إلى منفلوط

مبق عدى ثم وصل إلى واحة الخارجة ثم ترك بولاق إلى القس ثم دخل المفاوز الحقيقية فوصل إلى محل يقال له الشب به بئر يسمى سليمة عليه رسوم ابنية قديمة وهو فى عرض جبل يسمى بهذا الاسم ثم وصل إلى لقية وبها آبار محاطة بالرمل وماؤها عذب زلال ثم قصد بئر مزغاوى ثم بئر النطرون وبينه وبين دارفور مسيرة عشرة أيام . ثم إلى بئر المزروب وهو أول اعمال دارفور فبئر السونية فسوق الدجاج ومنها إلى البلد المسمى كبكابية وهى تشبه ريف مصر إلا أنها اعمر منه وآهله بالسكان وبالقرب امنها جبل مره الذى يشق أقليم الفور من أوله إلى آخره وله عدة طرق لكل منها اسمها الخاص . وسار بمحاذاة الجبل فوصل إ بلدة والده وهى تسمى حلة جولتو حدى حلل أبى الجدول .

وقد وصف التونسى جغرافية هذه المنطقة من حيث التضاريس والمناخ والنبات الاودية والسكان وحالتهم الاقتصادية وفيما يلى بعض النتائج التى توصل إليها .

السودان واقاليمه[٢٧] ينقسم السودان إلى عدة ممالك أملمها من ناحية الشرق هى مملكة سنار ثم كردفان فدار افور ثم مملكة وادای المعروفة بدار صليح والخامسة الباقرمه والسادسة برنو ثم أدفز فقغز فتقبكتو وآخرها ملى .

إقليم دارفور[٢٨] أما إقليم الفور فيحده من جهة الشرق الطويشة ومن الغرب آخر دار السااليط ودار قمر ودار تامة ومن الجنوب الخلا الكائن بينها وبين دار فرتيت ومن جهة الشمال المروب .

ويشمل إقليم الفور من جهة المزروب الزغاوه ثم تندلتى فالفاشر ثم جديه كريو

---

(٢٧) تشحيذ الاذهان ص ١٣٦ ؛

(٢٨) المرجع السابق ص ١٢٩ (خريطة درافور ص ١٣٢)

ثم الريل ثم جديد رأس الفيل فتلدوا فتبلوبه وهى أعلى الحدود الشرقية للفور ثم بلدة التاجو والبيقو . ومن جهة الشرق يوجد اعراب بادية المسيرية والحمر الحبانية والرزيقات ومن الغرب ديار أباديما ثم خلاء حتى دار روكه ودار بيكه وشمالا وتمورکه وأباديما . ويتبع اقليم دارفور ممالك صغيرة تدين لها بالطاعة ويحكم كل مملكة ملك يعينه سلطان الفور .

ويشق دارفور من أولها لأخرها جبل مره ويقال أنه متصل بالمقطم المطل على القاهره ولكنه ليس قطعة واحدة بل هو متقطع من عدة أماكن وله عدة طرق ؛ وفى هذا الجبل أمم وعالم وكهوف كثيرة يحبس فيها أولاد الملوك وأخرى لحبس الوزراء وبه الكثير من الخيرات والحيوانات منها البقر والغنم والمواشى ترعى به بدون راع ولا يهاجمها سارق ولا ذئب[٢٩] .

وقد وصف التونسى منطقة دارفور من حيث أقسامها ومناخها ونباتها واهلها وصناعتهم وصفا دقيقا حتى يحيل للقارىء انها ليست من مشاهداته هو بل استعان على جمعها بفقرات من الكتب وهذا مايبدو فى الجزء الخالص بالنبات فقد ذكر انواعها بالتفصيل بطريقة يعجز عنها المشاهدة العابر ، كذلك كلامه عن الزواج من الجنس الواحد وقولة أن هذا يتنافى مع المعلوم يدل على أنه كان يطبق المعلومات العلمية على مايستنتجه واعتقد أن رحلة التونسى كانت مسحا دقيقا الجغرافيا منطقة الفور من الناحية الطبيعية والبشرية .

سادسا : سليم قبطان

التعريف بالرجالة :

هو سليم قبطان الضابط المصرى الذى قاد حملات الكشف عند منابع النيل الأبيض ومناطق النيل العليا فى عهد محمد على فى الفترة مابين سنة ١٧٣٩ — ١٧٤٢ م .

---

(١) خريطة (٤) فى نهاية البحث

وقد قاد الرحالة ثلاث حملات ارسلها محمد لمحاولة كشف منابع النيل فاستطاع أن يصل فى النيل الأبيض الى خط عرض ٤٢َ ٤ شمال خط الاستواء ثم لم يتمكن من مواصلة التوغل فيه بسبب العوائق الطبيعة ، وبالرغم من أن جهوده قد اقتصرت عند هذا الحد إلا أنه يعتبر اول من مهد السبيل لارتياد مناطق النيل العليا وحل هذا اللغز الجغرافى القديم .

وفى مؤتمر الجغرافيا الدولى الذى انعقد فى باريس سنة ١٨٨٩ وصف الدكتور فردريك بنولا رحلات سليم قبطان بانها كانت الاساس الذى بنى عليه حل مسألة النيل ذلك بفضل ماقام به من دراسات طبيعية وجغرافية لمجرى النيل الأبيض

النتائج العلمية والجغرافية لرحلة البكباشى سليم هى :

١ — دراسة جغرافية النيل الأبيض ومناطق النيل العليا التى تعد الأولى من نوعها واضافت المعلومات الجديدة لعلم الجغرفيا باعتبار أن أغلب هذه المناطق كان مجهولا تماما قبل هذه الرحلات .

وقد قامت الحملة بكتابة التقارير التى توضح الطرق والمسالك وعرض النهر عمقه وسرعة التيار ودرجة الحرارة وترتيب الجزر وأسمائها واتجاه سرعة الريح بالإضافة إلى وصف جغرافية هذه المناطق وتسجيل الخرائط ودراسة حياة القبائل والشعوب التى صادفتها الرحلة .

٢ — التمهيد لارتياد أعالى النيل والكشف عن منابعه والقضاء على اسطورة أن النيل ينبع من جبال القمر الواقعة بين خطى العرض الثامن والسادس شمال خط الاستواء

٣ — نقل تقاوى بعض الغلات المصرية إلى منطق النيل العليا مثـــل الذرة النيلية والذرة العويجى والحمص والفول وبعض أنواع الفاكهة .

٤ — فتح طريق الملاحة والتجارة فى النيل الأبيض والسودان الجنوبى بعد أن كان السودان الجنوبى يعيش فى عزلة تامة عن الشمال .

سابعا : الرحالة أحمد حسنين (١)

قام الرحالة أحمد حسنين بهذه الرحلة سنة ١٩٢٣ وابتدأ من السلـــوم على الرحالة شاطىء البحر الأبيض وكان فى نيته الاتجاه إلى واحة جالو عن طريق الجغبوب ولـكنه علم قبل رحيله بيومين أن الأعراب قطاع الطرق الذين ينتشرون فى هذه المنطقة يترصدون لقافلته فاضطر إلى تغيير خطة السير فاتجه إلى واحة سيوه وهى آخر مركز يتصل بالعالم المتمدين . وهذه الواحة تعتبر من اخصب الواحات الغربية . ومنها اتجـه إلى الجغبوب البيضاء وهى بلد عامر بالعلم والدين ثم تركها إلى جالو .

وفى الطريق هبت عاصفة رملية بلغت حد الخطر وكادت تؤدى بحياة قافلته وكان الطريق مملوءا بغرود من الرمل تعوق السير ومر ببئر سلامة ثم بئر عزيلة حتى اشرف على واحة جالو وهى مؤلفة من قريتين هما (العرق) و (اللبه) وتقع أوجله مسافة اثنى عشر ميلا غرب جالو وهى الواحة التى كتب عنها هيرودوتس أنها شهيرة بالبلح ثم ترك اللبه واتجه جنوبا إلى الـكفرة فمر بتلال الخويعات وعلم الفريق وعلم المزول فتلال الوشكه ثم وصل إلى مجموعة آبار الظيفن التى تتكون من بئر الظيفن ومطمن وبوحواء وبئر الحرش التى تعتبر اعذب تلك المجموعة ثم سار فى تلال تسمى أجراس وهى من حجر أسود ثم بين تلال عزز ثم علم حبيل الفضيل

(١) خريطة (٥) فى نهاية البحث

خسلسلة من تلال الهوايش ثم على جور المخزن فعلم الجاره وبفتها ثم مر بأ كثر الأعلام وهو جارة الشريف الذى يبلغ طوله ١٥٠ مترا وارتفاعه ١٠٠ متر ثم جارة الهوارية وهو العلم الكبير الدال على الأقتراب من واحة الكفرة ثم وصل إلى الهوارى وهى مكونة من ثلاث قرى : الهوارى والهواويرى والعوازل وهى أولى مراكز الكفره .

وقد اطلق اسم الكفرة فى عهد المستكشف الألمانى رولفس على [٣٠] الأربع واحات المتفرقة المسماة تيزربو وبوزيما وريبان وكيانو ولكن اسم الكفرة يطلق الآن على كيانو فقط ثم وصل إلى مدينة التاج ولما اسفر الرحالة عن رغبته فى أن يسلك طريق العوينات واجهته أقوى الصعوبات وهى امتناع البدو الذين يقودونه الطريق الذين يؤجرونه الجمال عن القيام بمثل هذه المغامرة إذ أن الطريق غير مأمون . وقد هلكت قبل ذلك جميع القبائل التى حاولت عبوره ونصحوه أن الطريق المعروف وهو اختراق واجنجا ثم واداى ثم ينحدر بعد ذلك جنوبا إلى دارفور ولكن الرحالة كان مصمما على كشف هذا الطريق واكتشاف واحتى اركنو والعوينات .

الطريق إلى واحة اركنو :

ترك الرحالة واحة الكفرة وسار فى منطقة من الحطب ثم دخل السرير ومر بتلال ثم بمكان يعرف بحطة الحوش ثم دخل السريره مره اخرى ورأى جارة سوداء ممتدة قليلة الارتفاع على بعد عشرة درجات من الجنوب الشرقى ثم مر بجبال كودى وسار فى تلال رمليه مغطاه بالصخور السوداء يتراوح ارتفاعها بين ثلاثة وعشر امتار وعلى اليسار كانت هناك سلسلة من التلال ثم دخل وادى

(٣٠) فى صحراء ليبيا ص ١٦٩

المراجيع وهى ارض جبلية عثر فيها على بيض نعام ثم سار فى تلال رملية عالية شديدة الانحدار . وفجأة ظهرت له على امتداد البصر جبال اركنو اولى الغايات التى يقصدها فسار بين تلال رملية ثم فى ارض صخرية صلبة مغطاه بالحصى . وعلى بعد ١٠٠ من شمال اركنو تل عظيم من الخرسان طوله كيلومتران وارتفاعه ١٠٠ متر وجبل اركنو من الجرانيت طوله على ارتفاع واحد ٥٠٠ متر ويتكون من سلسلة كتل مخروطية الشكل متلاصقة القواعد وركنه الشمالى الغربى هو المدخل إلى واحة اركنو وقد سميت الواحة بهذا الاسم ، إذ أن هناك شجره منفردة من النوع الذى يسميه الجرعان (اعراب المنطقة) اركنو ويسميه البدو (صرخة) فاتخذت المنطقة اسم الجرة اسما لها.

الطريق إلى واحة العوينات

ترك الرحالة اركنو وسار ضاربا فى الصحراء حتى وصل إلى الركن الشمالى الغربى لجبال العوينات وهناك وجد بئر عذب فى نهاية احد الكهوف ثم دخل واديا من الرمل انتثرت عليه الحشائش وبعض الشجرات تشبه فى رائحتها النعناع ثم صعد طريقا متعرجا فى جبل شديد الانحدار فانحدر إلى ارض منبسطة عند سفح الجبل وهى ام العوينات-وهناك قابل شيخ عرب المنطقة الملقب بملك العوينات .

ثم ترك العوينات وسار فى ارض صلبة مغطاه بالحجارة والزلط الكبير ثم فى عزورة صغيرة ثم مر بأرض منبسطة خالية من الحشائش وتوقف بعد ذلك عند تلال خرسان وهناك ضل الطريق -- وكانت هذه الفترة من اشق فترات الرحلة اذ أن الدليل فقد الطريق واخذ يتخبط فى الصحراء واستمر على تلك الحال فترة طويلة انتهت حين تسلق دروبا وعرة بين الصخور حتى وصل إلى قمة صخرة عالية فبدا له

من بعيد وادى أردى وهو وادى ضيق يبلغ طوله عشرة كيلو مترات تكتنفه صخور من الحجر الاحمر وهو من النوع الذى يسمونه كركور وهذا الوادى منخفض ضيق بين التلال متعرج كالثعبان وينتهى بعطفة مسدودة توجد فيها البئر ثم ترك الوادى وسار صوب الجنوب الشرقى منحدرا فى منحدرات سحيقة كثيرة الوعورة ثم فى سلسلة من تلال فى وسطها جبل اسلنجاه وعن اليمين جبل أجاه فوادى أجاه وهو بديع المنظر ضيق يتفرع قرب منتصفه إلى طريقين احدهما إلى البئر والآخر إلى الصحراء — وسار حتى وصل إلى بئر عنيبة فوادى عنيبه فوادى كونى مينا ثم انحدر بين عدد من الوديان حتى وادى هور الذى يمتد غربا إلى واداى وشرقا إلى السودان ويسمى فى وادى حوش ثم مر بعلم حجر كرار ثم علم حجر اردروا ثم انحدر إلى وادى دوراوية وسار جنوبا إلى ام بروفكتم فالفاشر ثم اتجه إلى واحة الابيض فالخرطوم ومنها اخذ القطار الى القاهرة فوصلها فى اغسطس سنة ١٩٢٣ . وبذلك تكون رحلته استغرقت سبعة اشهر وثلاثة وعشرين يوما امكنه فيها تحديد مركز آبار الظيمن ومكان السكفرة على خريطة افريقيا وكان موقعها الاول بعيدا عن مكانها الاصلى بمقدار ١٠٠ كيلو مترا كذلك اثبت وجود الواحتين المجهولتين اركنو والعوينات على خريطة الصحراء .

وأهم ما وصل إليه احمد حسنين من نتائج هامة هى

١ — تحديد الموقع الحقيقى لآبار الظيفن والسكفره .

٢ — اكتشاف واحتى اركنو والعوينات وتحديد موقعهما على الخريطة .

٣ — اكتشاف طريق فى الجنوب الغربى لمصر يجتاز سهل اردى وأنيدى فى افريقيا الاستوائية الفرنسية إلى دار فور وعين موارد المياه الواقعة فيه

٤ — تعيين المناسيب المضبوطة على طول الطريق وبذا أمكن الحصول على معلومات قيمة عن طبيعة تكوين الجبال فى منطقه واسعة لم يعرف عنها شىء من قبل .

٥ — اظهرت العينات الصخرية والحفرية التى جمعها عن امتداد طبقات العصر الميوسينى والتكوين الرملى إلى مدى ابعد من الحدود الغربية المصرية .

٦ـ اكتشاف جبال من صخور نارية فى العوينات واركنو داخل الحدود المصرية .

ومما سبق يمكن ان نلخص الاكتشافات الجغرافية العربية أو بمعنى ادق التوغل العربى لقارة افريقيا كالآتى :

- اكتشاف ساحل افريقيا الشرقى من الطرف الشمالى للبحر الأحمر حتى جنوب القارة عند كلوا.
- اكتشاف الساحل الشمالى وتدليل الصحراء الكبرى
- اكتشاف الساحل الغربى حتى منطقة الغابات
- اكتشاف اعالى نهر النيجر (ابن بطوطه)
- اكتشاف منطقة السوادان وكردفان ودارفور والتوغل حتى الساحل الغربى
- اكتشاف افريقيا الوسطى حتى المنطقة الشرقيه لحوض الكونغو
- اكتشاف جزء من النيل الأبيض
- اكتشاف واحات فى الصحراء الكبرى

وبالاضافة إلى هذه الاكتشافات التى قام بها العرب فقد تركوا دراسات لجغرافية شعوب هذه المناطق بل وتركوا حضارات عربية ودول اسلامية .

ويمكن القول ان العرب قد رادوا كل الهضبة الشمالية لقارة افريقيا

بالاضافة إلى اجزاء من الجزء الجنوبى ويتمثل فى اقصى الساحل الشرقى جنوبا وفى منطقة وسط افريقيا .

ولم يستطع العرب أن يصلوا إلى الساحل الغربى من الهضبة الجنوبية لانه فى الوقت الذى كان النفوذ العربى ينتشر بطيئا إلى الغرب ظهر الاستعمار البلجيكى الذى استطاع ان يقضى عليهم وعلى دولتهم فيما بعد . اما الجزء الجنوبى فلم يصل العرب إليه لانه لم يكن يعنيهم منه شىء اذ أن كل اهتمامهم كان منصبا على البلاد والمراكز الاسلامية وهذه جميعها تقع فى الهضبة الشماليه لافريقيا . بالاضافة الى ظهور المستعمرين وصعوبة طبيعة تلك الاجزاء .

عايده العزب موسى

مصادر البحث

١ — ابن بطوطه :

(ا) تحفة النظار فى غرائب الامصار وعجائب الاسفار (المطبعة الازهرية بمصر — الطبعة الاولى)

(ب) مهذب ابن بطوطه : تهذيب احمد العوامرى بك ومحمد جاد المولى بك (الجزء الاول — المطبعة الاميرية ببولاق)

— ٢ ابى القاسم بن حوقل النصيبى : كتاب صورة الارض (طبع بمدينة ليدن سنه ١٩٣٨ م — الطبعة الثانية)

٣ — احمد حسنين فى صحراء ليبيا

٤ — الحيمى الحسن بن احمد : سيرة الحبشة (تحقيق مراد كامل — وزارة التربية والتعليم سنة ١٩٥٨)

٥ — المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر (مراجعة محمد محيى الدين عبد الحميد — دار الرجاء للنشر)

٦ — الدكتور حسن احمد محمود : الاسلام والثقافة العربيه فى افريقيا (مكتبة النهضة ١٩٥٨)

٧ — الدكتور حسين نصار : رحلة ابن جبير

٨ — خير الدين التونسى : اقوم المسالك فى معرفة احوال الممالك (مطبعة الدولة بحاضرة تونس المحمية سنة ١٢٨٠ هـ الطبعة الاولى)

٩ — الدكتور زاهر رياض :

(ا) — الاستعمار الاوربى لافريقيا القاهره ١٩٦٠

(ب) تعليق على الاسلام فى اثيوبيا (فصلة من مجلة كلية الآداب — المجلد الثامن عشر — الجزء الثانى)

١٠ الدكتور عبدالعزيز كامل : قضية كينيا (المكتبة الثقافية العدد ٢٩ لسنة ١٩٦٠)

١١ — عبد المجيد جلون ـ هذه مرا كش (مطبعة الرسالة)

١٢ — عبد المجيد عابدين ـ بين الحبشة والعرب (مطبعة السعادة)

١٣ —الدكتور فيليب حتى ـ تاريخ العرب مطول (دار الكشاف)

١٤ — الدكتور نسيم مقار ـ البكباشى المصرى سليم قبطان
مطبعة لجنة البيان سنة ١٩٦٠

١٦ — نقولا زيادة : الرحالة العرب (الألف كتاب)

١٧ — يوسف خليل : السلالات البشرية فى افريقيا (مترجم)
(مطبعة العالم العربى)

١٨ — دائرة المعارف الاسلامية

المراجع الاجنبية :

١٩ — Fage : West Africa

١٠ — Fitzgerald . Africa

٢١ — T. Walter . Wallaband .. Contemporary Africa

كشف بحيرة طانا

يحتل نهر النيل العظيم مكانة كبيرة فى تاريخ مصر والمصريين فلقد كان كما هو الآن يفيض بصفة دورية فى الصيف وتشح مياهه فى الخريف تاركاً ذلك الغرين الخصب الذى يهديه إلى الرمال القاحلة الساخنة فلا عجب إذا نشأت نوع من الرهبة بالنسبة لهذا النيل الذى بفضل كرمه وسخائه قام هذا القطر الآهل بالسكان .

ولقد كان للمصريين القدماء دور مبكر فى البحث عن منابع النيل ويبدو أنهم كانوا على معرفة بالمجرى الرئيسى للنيل جنوباً حتى التقاء النيل الأبيض بالنيل الأزرق[١] ولقد انتقلت هذه المعلومات التى حصل عليها المصريون عن النيل إلى الفرس والأغريق والرومان ويحدثنا التاريخ عما أصاب قمبيز ملك الفرس من هلاك عندما خرج فى قوة حربية جنوبا للبحث عن منابع النيل ولا تزال مدينة مروى بآثارها واهرامها العتيدة خير شاهد على ما أصاب الملك قمبيز فى رحلته تلك[٢] وهيرودوت المؤرخ الاغريقى المعروف (٤٥٧ ق ٠ م) صعد مع النيل جنوبا حتى الشلال الأول — واعتقد هيرودوت أن منبع النيل يقع بعيد إلى الغرب فى منطقة بحيرة شاد .

وايراتوستيس الذى كان يشرف مكتبة الأسكندرية أوضح لنا بدقة تامه على خريطة رسمت حوالى سنة ٢٥٠ مجرى النهر بعيداً إلى الجنوب حيث توجد مدينة الخرطوم الآن . واوضح كذلك نهر العطبرة والنيل الأزرق . واراتوستيس هو الكاتب الأول الذى لمح إلى البحيرات الاستوائية على أنها منابع النهر :

وجوبا الثانى ملك موريتانيا الذى توفى سنة ٢٠ م جعل النهر ينبع من موريتانيا الغربية .

ويذكر سترابو الذى كان يعاصر الملك جوبا أن الباحثين الاوائل قد ربطوا

---

(١) Encyclopidia Britanica . Art Nile

(٢) Robert Brown , The Story of Africa P. 27 .

فيضان المناطق السفلى من النيل بالامطار الصيفية التى تسقط على الجبال الغربية وإن نظريتهم تلك ا كدتها مشاهدات وملاحظات الرحالة فى عصر البطالمة . (٣)

وخلال هذه الفترة ظهرت معلومات أ كثر صحة فيما يختص بالنيل وذلك عن طريق روايات التجار الأغريق الذى زاروا الأقاليم التى تسمى الآن بساحل زنجبار.

وهناك تاجر يونانى يدعى ديوجبين Diogenes كان عائدا من الساحل الشرقى لافريقيا سنة ٥٠ م اخبر هذا التاجر الجغرافى السورى مارينو Marinus أنه بمسيرة ٢٠ يوما من الساحل الشرقى لافريقيا إلى داخل أفريقيا يمكن الوصول إلى بحيرتين كبيرتين وسلسة من الجبال الثلجية وهى التى يحصل النهر منها على مياهه واطلق على هذه الجبال اسم جبال القمر .

ولقد نشر مارينو هذه الرواية فى أحد كتبه الجغرافية ورغم أن هذا الكتاب قد فقد إلا أن بطليموس أشار إلى هذه الرواية فى كتاباته حيث أنه أجمل فى كتابه وخريطته كل ماعرف عن النيل حتى منتصف القرن الثانى الميلادى .

ويذكر بطلميوس أن هناك بحرين ينبعان من بحيرتين أحداهما عند خط عرض ٦° والأخرى عند خط عرض ٧° جنوب خط الاستواء وتستمد البحيرتان مياههما من ذوبان الجليد المتراكم على سلسة من الجبال تمتد شرقا وغربا ويمكن القول أن ما ذكره بطلميوس يكاد يقرب من الحقيقه .

وحتى القرن الرابع عشر لم يستجد شىء إلى ماسبق أن عرف من جغرافية أعالى النيل فالكتاب العرب فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر يذكرون

---

(٣) Encyclopidia Britanica : Art Nile

البحيرات الكبرى ، ولقد افادت رواياتهم هذه فى أحياء أهتمام أوروبا بمشكلة النيل.

ويجعل الادريسى كلا من النيل والنيجر يستمدان مياههما من بحيرة كبرى ويتجه النيجر إلى الغرب والنيل إلى الشمال .

وظل هذا الاعتقاد سائدا حتى السنوات الأولى من القرن التاسع عشر .

وفى سنة ١٢١٥ استطاع القس البرتغالى بدرو بايز Perdro Paez أن يرى منابع النيل الأزرق وبعد عشر سنين جاء أيضا البرتغالى جيرونيمو لوبو Jeronimo Lobo الذى ترك لنا وصفا حيا لمجرى النيل وخروجه من بحيرة طانا.

ونشرت ترجمة انجليزية لروايات بايزولوبو فى سنة ١٦٦٩ بامر من الجمعية الملكية

وفى سنة ١٦٧٠ وصل جيمس بروس إلى أثيوبيا . وفى نوفمبر سنة ١٧٧٢ عاد إلى مصر بعد أن زار النيل الأزرق وتتبع مجراه حتى التقائه بالنيل الأبيض .

ويعتبر جيمس بروس من أعظم المستكشفين البريطانيين المشهورين درس اللغة العربية وتعلم بعض الأمهرية . وفى سنة ١٧٥٨ توفى والده وكان عليه أن يقيم فى ولاية كينادر مسقط رأسه غير أنه عندما إندلعت الحرب بين انجلترا واسبانيا فى سنة ١٧٦٢م تقدم بروس بخطة إلى الحكومة الانجليزية ترمى إلى انزال قوة بريطانية فى ميناء فرول فى كاليكيا وقابل بروس اللورد هاليفكس الذى كان رجلا واسع الاطلاع مهتما اهتماما كبيرا بمشكلة النيل .

فتحدث مع بروس حول مشروعه مستبعدا انزال قوة بريطانية فى ميناء فيرول كأمر غير ضرورى ومتعذر غيران اللورد انتهز هذه الفرصة واخذ يناقش

بروس حول مشكلة النيل بل اخذ يدفع بروس للقيام برحلة لمعرفة سر النيل الغامض.

واخذ بروس الموضوع باهتمام زائد كما اخذ اللورد على عاتقه ان يضمن لبروس وظيفة فى افريقيا يستطيع خلالها ان يلم الماما تاما باللغة العربية وان يجمع المعلومات الخاصة بداخل افريقيا والتى يمكن ان تفيده فى رحلته تلك .

واستطاع اللورد ان يجعل من بروس قنصلا فى الجزائر حيث يمكنه هذا المنصب من الاستعداد للقيام بكشف النيل .

وفى صيف سنة ١٧٦٨ وصل بروس إلى الاسكندرية بصحبة الرسام بالوجانو وفى مصر عمل بروس طبيبا لبعض الشخصيات الحاكمة فاستطاع ان يحصل منهم على بعض خطابات التوصية إلى الهيئات الاسلامية فى البحر كما حصل على بعض الخطابات الأخرى من بطريرك الاسكندرية إلى رجال الدين فى اتيوبيا (٤)

سافر بروس بعد ذلك إلى الصعيد صاعدا فى النيل حتى قنا وعبر الصحراء الى القصير على ساحل البحر الاحمر حيث ابحر فى زى بحار تركى ونزل فى جدة فى مايو سنة ١٧٦٩ وبعد ان بقى بعض الوقت فى الحجاز ثم عبر البحر الاحمر حيث نزل فى مصوع التى كانت تابعة للاتراك فى ذلك الوقت ومنها سافر الى جوندر عاصمة اتيوبيا آنذاك .

وكان على بروس فى ذلك الوقت ان يعمل على كسب رضاء ومحبة امبراطور اتيوبيا ورؤسائها حتى يستطيع تحقيق هدفه الذى اتى من اجله متكبدا المشاق والصعاب ولحسن حظه وجد الملك طفلا صغيرا فى رعاية امه Esther (٥) مريضا بالجدرى كما وجد بعض الاطفال الاخرين من بيت الملك فى قوسقام فريسة لهذا المرض واستطاع بروس بعنايته بهم ان يشفيهم وان يوقف الوباء بطريقة صحيحة ولقد كان لهذا اثر عظيم فى نفوس أفراد البيت الملكى الاتيوبى خاصة بعد

---

(4) Jame Bruce ; Travels to discover the Sources Of the Nile Vol III P. 633 .

5) Bruuce ; Travels to discoer the Sonrces Of the Nile Vol III P. 634.

أن فشلت محاولات رجال الـكهنوت فى العلاج ولقد كانت هذه الحادثه إلى جانب اتقانه اللغه الامهرية وشجاعته سببا فى أن يكون موضع ثقة الحاشية .

ولقد حظى بروس بمقـابلة الرأس ميشيل كما قابل الامبراطور وبعد كثير من المغامرات والتى خلالها كان بروس قد وطد صداقته بوالده الملك حصل على تصريح لتحقيق هدفه فى اكتشاف منبع النيل وكان هذا بطبيعة الحال النيل الازرق . ومنحه الملك لقب Bal Amba Ras أى صاحب قلمة الراس وهو منصب حربى من اكبر مناصب الدولة وقلعه الراس تقع فى مقاطعة رأس النيل القريبة من بحيرة طانا . وكان بروس لا يستطيع الاقتراب من هذا المـكان الا برضاء فاسيل Fasil زعيم الجلا الذى يحكم تلك المنطقة فاستطاع بروس أنه يكسب فاسيل إلى جانبه وذلك بمهارته فى الفروسيه بل أن فاسيل أعطاه حصانه .

ولـكى يصل بروس إلى هناك كان عليه أن يخترق منطقه واسعه تسكنها قبائل الاجوا البدائية وعلى ذلك فانه زود احد افراد القبيله (الأجوا) واسمه Waldo كمرشد له كما زوده بسبعة من زعماء الجلا كما صحبه ستراتس Strates هو أحد اليونانيين المقيمين فى اتيوبيا

ويقول بروس أن قبائل الاجوا الذين يعيشون فى سهل داموت ينقسمون إلى عائلات أو قبائل وهم يعيشون فى محبه ليس بينهم عداء او خصومه وان أحد هذه القبائل تحمل لقب جيش وهو اسم القرية التى يعيشون فيها والتى لا تبعد كثيرا عن منابع النهر غير أنها ليست على مرأى منها .

أما البلدة التي تقع على نفس السهل فانها تشرف على منحدر يبلغ ارتفاعه ٣٠٠ ياردة من سهل أسوا. Ossoa

وهذ الانحدار ينقسم إلى مدرجات يشغل كل طبقة منها مجموعة من البيوت التي لا يزيد عددها عن ثمانية أو عشرة . وقد لاحظ بروس أن هذه البيوت تقع فى وسط الانحدار بعيدا عن قمته كما أنها بعيدة عن السهل . ويذكر ان السبب فى بناء هذه المساكن فى هذه الاجزاء هو خوف سكانها من قبائل الجلا الذين كثيرا ماشنوا غاراتهم على هذا الجزء من اتيوبيا وابادوا بعض أفراد الاجوا .

ويقول أن واجهة هذا المنحدر التى تواجهة الجنوب لها مظهر أخاذ عندما ينظر إليها من سهل أسوا فتظهر المساكن فى كل طبقة من خلال الاشجار والشجيرات الكثيفة التى تغطى واجهة المنحدر .

ومن طرف منحدر جيش الذى تقع عليه القرية تأخذ الأرض فى الانحدار إلى الشمال وتهبط بك إلى طرف مستنقع مثلث الجوانب اتساعه أكثر من ٨٦ ياردة . وتنحدر الأرض من الناحية الشرقية انحدارا سهلا من قرية سا كالا الكبيرة Sacala والتى أعطت بدورها اسمها إلى هذه الناحية وهى تبعد حوالى ستة اميال من المنبع ولكن المسافة تظهر للعيان على انها حوالى ميلين فقط .

وفى وسط هذا المستنقع يوجد تل صغير دائرى الشكل وهو محاط بخندق ضحل تتجمع فيه المياه ثم يلتقى بها ناحية الشرق وعلى قمة هذا التل دير تقام فيه الشعائر الدينية ينتهى إلى البحيرة ذات السطح المائى الهائل الذى لاتدرك العين مداه . والذى تنتشر فيه على مرأى البصر مجموعة من الجزر الصغيرة التى تظهر فيها مجموعات من الاديرة والكنائس القديمة .

ويقول بروس أن مياه هذه البحيرة ليس لها طعم وكانت فى هذه الأونة باردة إلى درجة التجمد بالرغم من تعرضها لحرارة شمس منتصف النهار كما أنها خالية من الأشجار وليس هناك ألا انحدار جيش على جانبها الجنوبى والاشجار التى تحيط بكنيسة سانت ميشل فى الشمال وذلك كما جرت العادة فى غرس الاشجار حول الكنائس .

ويذكر بروس ايضا أنه فى يوم الاثنين الخامس من نوفمبر وهو اليوم التالى المجيئة إلى جيش كان الطقس صافيا مهيئا للرؤية فقد كنت قلقا جدا لأن اتحقق من البقعة الصحيحة التى يقع عليها المنبع على الكرة الارضية .هذا المنبع الذى بقى مدة طويلة مجهولا . فنصبت خيمى شمال سطح جبل جيش وثبت الآلة الخاصة (تيوليب) بكل عناية ممكنة إلى كل من سمت الرأس والافق واستطعت أن ستدل بما لا يقبل الشك أن خط الطول الذى يقع علية المنبع الأول للنيل هو ٣٠″ ٥٥′ ٣٦° شرق خط جرينتش .

ثم يقول أيضا أنه فى الليلة الرابعة انتابته بعض التأملات الكئيبة بالنسبة لموقفه أو حالتة الحاضرة. والشكوك بالنسبة لإمكان عودته سالما إلى وطنه ومخاوفه إذا لم يسمح بالعودة طبقا لما هو متبع فى أتيوبيا آنذاك إزاء الأجانب الذين يدخلون المملكة . إلى غير ذلك من الأفكار السوداء كلها تزاحمت فى نفسه وسلبته النوم .

ويقول أنه فى تلك اللحظة كان عتلك الشيء الرئيسى بل الهدف الذى طالما كان يصبو إلية ويقصد بذلك أنه استطاع أن يحقق ما كان يسعى إليه من كشف منابع النيل .

وكان اليأس يزحف على كالتيار الشديد فقمت من مخدعى واتجهت إلى بابه

خيمتى وكان كل شىء لا يزال كما هو . النيل الذى أقف عند منبعه . فهذا النيل لم يكن قادرا على أن يشجعنى أو ان يعوقنى عن المغاس غير أن برودة الليل وسكونه قوت أعصابى وطاردت تلك الأشباح التى أرقتنى وأزعجتنى .

ولقد حاول بروس أن يعرف ارتفاع المكان الذى تقع عليه المنابع فيقول أنه كان قد حصل من إحدى السفن الإنجليزية فى جدة على بعض الزئبق من النوع النقى فدفأ الأنبوبة بلطف على النار ثم ملأها بهذا الزئبق ولقد دهش عند ما وجد الزئبق يتوقف عند ارتفاع ٢٢ بوصة إنجليزية فاشتبه فى أنه ربما يكون بعض الهواء قد تسلل إلى داخل الأنبوبة فحاول بروس أن يتأكد من صحة التجربة فوضع الأنبوبة فى مكان دافىء فى الخيمة مغطاة حتى الصباح فوجد الزئبق عند نفس الارتفاع ومن ثم استنتج أنه على ارتفاع يزيد على ميلين من سطح البحر ويصف بروس الطقس فيقول أن الطقس بارد ليلا ويستمر كذلك إلى ما قبل طلوع الشمس بساعة .

وتتبع بروس الشاطىء الشرقى للبحيرة حتى وصل إلى طرفها الجنوبى حيث شاهد النيل يخرج من جملة مخارج من جنوب البحيرة أو بمعنى أدق من منبع واحد ينقسم إلى عدة فروع تتخللها الجزر .

ولقد وصف لنا بروس اللحظة التى شاهد فيها مخرج هذا النهر العظيم بألفاظ تدل على مدى تأثره بسحر هذا المنظر الخلاب وتخيل وقتها مدى الفخر الذى سوف يكسبه كأول أوروبى شاهده بل أول أوروبى وقف على مر هذا النهر القديم ويذكر بروس ان النيل يتجه – فور خروجه من المستنقع الصغير الذى يقع عند طرفها الجنوبى إلى الشرق مسافة ٣٠ ياردة مع زيادة قليلة فى المجرى غير أنه واضح تماما حتى يلتقى بحافة الأرض المغطاة بالعشب المنحدرة والتى تجعله يدور تدريجياً إلى الشمال الشرقى ثم ناحية الشرق وفى هذا الاتجاه الذى يجرى فيه النهر لمسافة ميلين يستقبل فيها كثيرا من الروافد الصغيرة التى تنبع من منابع على جانبى النهر (٦) .

(6) James Bruce, vol iii p. 645

ويصف بروس تلك البقعة فيقول « ليس هناك شيء أكثر جمالا من هذه البقعة فالتلال الصغيرة من حولنا كلها مغطاة بالخضرة والقمم متوجه بالأشجار الضخمة والمجرى الذى كنا نجلس على جانبه مياهه شفافة رقيقة كالبلور مغطاة بشجيرات سميكة تملوها أوراق سميكة وأغصان تنبثق منها أزهار صفراء جميلة .

ويعود بروس فيصف خروج النيل فيقول « ومن هذه المخاضة يتجه النيل إلى الغرب وبعد أن يمر فوق احجار مفككة من حين لآخر مسافة اربعة اميال تزيد زواية انحداره فيصبح انحداره شديدا حيث يوجد منسقط مائى يبلغ ارتفاعه حوالى ٦ أقدام وعندئذ يتخلص النهر من وعورته ويدخل سهل جوتو حيث يوجد شلاله الأول ومساقطه الصغيرة الأخرى .

وبوصول النهر إلى سهل جوتو يبدو النهر وكأنه تخلص من عنفه بل لايزيد حتى يرى أنه يسيل وفى نفس الوقت يمر فى انحناءات غير طبيعية تختلف عن أى نهر رايته محدثا اكثر من عشرين شبه جزيرة حادة الزويا لمسافة خمسة اميال وعلى طول مجراه سهل صلصالى عار من الا شجار .

وبعد أن يجتاز النهر هذا السهل يتجه ناحية الجنوب ويستقبل المياه التى تمدها به المجارى الصغيره الكثيرة . الجومتى والجوجويرى والكيبزا وهى المجارى الهابطة من آفورماشا والتى تلتقى مع النيل على بعد حوالى ٢٠ ميلا من منبعه . ومن ثم يبدأ النهر فى الجزيان بسرعة ثم يستقبل مرة ثانية عددا من الجداول الجميلة التى تنبع من مرتفعات ليتشامباراوهى سلسلة الجبال شبه الدائرية التى تمر حلفه والتى تبدو كأنها تتاخم وتلاصق جبال افورماشا .

ويقول بروس ان النهر يصبح بعد ذلك قويا فجوانبه عالية مغطاة بجذوع الأشجار القديمة لمسافة ثلاثة اميال ثم ينحدر المجرى إلى الشمال الشرقى ثم يلتوى التواءا

كبيرا وعندئذ يلتحم بنهر دبوا الصغير الذى يأتى من الشرق . ثم يعبر النهر فى اتجاه شبه دائرى حيث يستقبل نهر ذى اوها ثم يتجه إلى الشرق حيث يقع شلاله الثانى عند كر

وبعد مسافة ثلاثة أميال من هذا الشلال العظيم يدفع نهر جيا بمياهه إلى النيل وعلى الرغم من أن مجراه يتجه ناحية الشمال مارا خلال مايتشا Maittshe فى الشرق واروسى Arousi وسانكرابر Sankraber فى الغرب فان النهر لا يزال منحدراً تجاه بحيرة طانا بعد أن يستقبل أنهار بوها Boha وأملاك أوها وهما النهران الصغيران الاتيان من الغرب والاسار Assar والعروسى Aroussi والكلتى Kelti وهى الأنهار الكبيرة الآتية من الشرق ويخترق النهر الطرف الجنوبى لبحيرة طانا لمسافة سبعة فراسخ محتفظا بلون مجراه مميزاً عن لون البحيرة وذلك حتى يتدفق خارجا من طرفها الغربى فى إقليم دارا Dara حيث توجد هناك مخاضة وعلى الرغم من عمقه الشديد وخطورته إلا أنه سرعان ما يستعيد مظهره كنهر والمجرى العميق هنا سريع التيار وجسوره عاليه على طول مجراه لمدة أميال ومغطاة بالخضرة ويجتاز النهر فيما بعد أسفل دارا متخطياً حدود إقليم فوجارا المنبسط المحصور بين بحيرة طانا وجبال بجمدر حتى يصل النهر إلى الشلال الثالث عند التا Alta

ويتبع بروس النهر بعد ذلك فيقول « يتجه المجرى الآن ناحية الجنوب الشرق وفى هذا الاتجاه يفسل بمياهه الجزء الغربى من بجمدر عن يساره

وأمهره على يمينه والنهر عندئذ يلاصق أو يحيط بولاية جوجام حتى أنه فى الدائرة التى يحدثها فى جريانه فى إتجاه منبعه تبقى هذه الولاية دائما على يمينه .

ويتحول النهر الآن إلى ناحية الشمال ويقترب من منبعه حيث تكون المسافة بين

النهر ومنبعه حوالى ٦٢ ميلا فقط والمجرى هنا عميق جدا وسريع التيار وان كان فى بعض الفصول من السنة لا يكون عميقاً لدرجه يمكن الانسان من خوضه ويقال أن الجلا عندما غزا أتيوبيا عبروه فى كل الأوقات بدون صعوبة أما سابحين فيه أو على جلود الماعز المنفوخة الممتلئة بالهواء أو بوسائل أخرى .

وتكثر التماسيح فى هذا الجزء من النهر ويقول بروس أن الأهالى فى هذه المنطقة يدفعون خطرها وإذاها بما لديهم من طلاسم وتماويذ . وملاصق للجوبجاس Gongas ومتاخم لهم فى الشمال تمتد سلسلة عظيمة من الجبال المرتفعة يسكن الجانب الغربى منها قبائل الجونجا وقبائل أخرى كثيرة .

واستطرد بروس قائلا أنه من هذه المناطق يؤتى بكمية كبيرة من الذهب كما يجلب منها الرقيق ويتمكن بروس من عبور النهر عند مخرجه من البحيرة ويتبع ساحلها الجنوبى حتى يصل إلى نهر تنتش إباى أو إباى الصغير الذى يصب فى البحيرة من ناحية الجنوب الغربى والذى يعتبره الجغرافيون المنبع الحقيقى للنيل . فتتبعه بروس حتى بدايته فوجده قصيرا لا يكاد يصل إلى المشارف الشمالية العليا لهضبة جود جام وتابع بروس النهر ملازماً جانبه الأيسر حتى وصل إلى شاطئ بحيرة طانا من جديد وتابع بروس سيره نحو الشمال حتى وصل إلى بلدة تشركن التى تقع إلى الغرب من جوندار ولكنها قريبة من المنابع العليا إلى نهر الرهد واتجه بروس بعد ذلك إلى الغرب حتى وصل إلى منابع هذا النهر فتتبعه شمالا بغرب حتى وصل إلى مدينه سنار . وواصل الرحالة سيرة مارا بكثير من المدن الكبيرة الآهلة بالعرب ولم يلبث بروس أن وصل إلى نقطة التقاء هذا النهر (النيل الأزرق) بالنيل الأكبر فتتبع هذا الأخير حتى شندى ومن هناك ركب البحر إلى القاهرة .

وأن المجهود العظيم الذى قام به بروس ليستحق كل التقدير والاعجاب ويكفى انه خاطر بحياته تدفعه الرغبة فى البحث والاستقصاء وبالرغم من فترة

الفوضى التى كانت تجتازها اثيوبيا انذاك فانه تمكن من القيام برحلة من اخطر الرحلات واقد دون بروس رحلته ومخاطرة ومشاهداته فى كتاب من خمسة اجزاء يعد من امتع ما كتب عن هذا الجزء من افريقية وبذلك وقف العالم للمرة الاولى على حقيقه خروج النيل من بحيرة تانا واذا ما عرف العالم هذه الحقيقة لم يعد يهم بعد ذلك بالكشف عن منابع منيل فقد ظن انها كشف نهائيا بهذه الرحلة وليس للنيل منابع أخرى فاتجهت جهود المستكشفين إلى جهات أخرى من افريقيا .

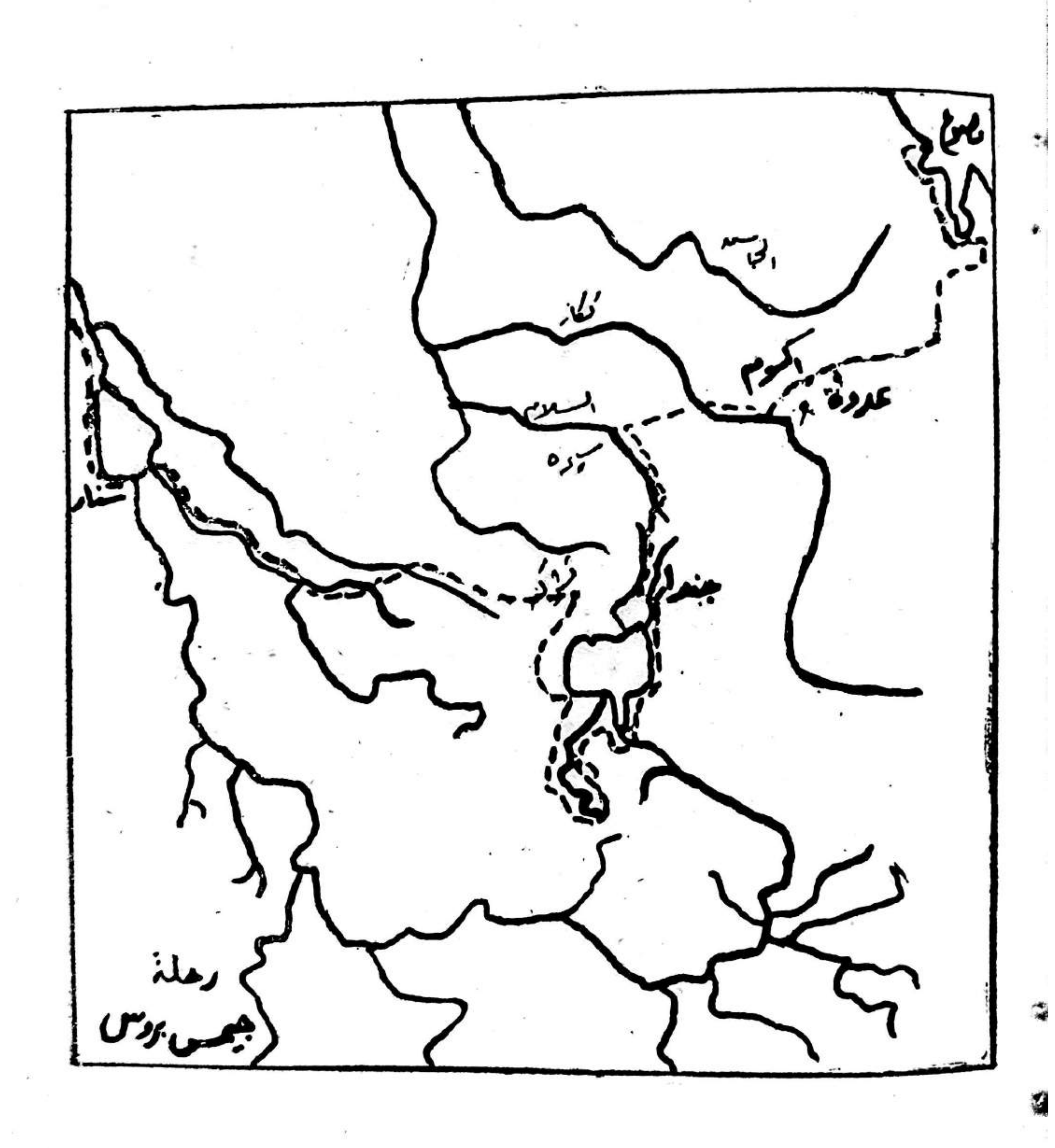
الان المطلع على ما كتبه بروس فى كتابه تحقيره لجهود من سبقوه يدرك ما كان عليه بروس من غرور فهولا يود أن يكون له منافس فى مضمار الكشف أو البحث . فنجد بروس مثلا يحقر مجهودات بايزو لوبو عندما عرف من وانفيل رسام الخرائط المعروف أن هذين البشرين قد سبقاه كمستكشفين لمنابع النيل الازرق بل أن بروس يحمل حملة شعواء على لوبو ويسعى لان يظهره على أنه مجرد ناقل وصف بايز والواقع أن بروس لم يكن عادلاً فى ذلك فحقيقة هناك كثير من الشبه أو الصلة بين روايات بايز ولوبو الا أن لوبو يدخل فى تفصيل اكثر من بايز ومما لا شك فيه أن لوبو كان فى المنطقة حول بحيرة ظانا سنة ١٦٢٥ أو سنة ١٦٢٦ ولا بد انه تمكن من رؤية منابع النهر(٧) .

لقد استغرقت رحلة بروس فى اثيوبيا قرابة ثلاثة اعوام من منتصف سنة ١٧٧٠ إلى بداية سنة ١٧٧٣ ومن الاسكندرية اخذ طريقة إلى مرسيليا فى وقت كان يسود فيه السلام بين إنجلترا وفرنسا(٨) .

---

(7) Harry Johnoston . The Nile Quest p. 78.

(8) Harry Johnoston , The Nile Quest p. 80.


مصوع
أكسوم
عدوة
السلام
جندر
رحلة
جيمس بروس

واستقبله العلماء الفرنسيون بعطف بالغ وقضى بروس بعض الوقت فى باريس مع العلماء الفرنسيين وكان إرافقه مسيو بفون Buffon .

وفى باريس عرف بروس أنه لم يكن المكتشف الوحيد للنيل الأزرق ذلك أن رانفيل Danville استطاع أن يبرهن لبروس أن بحيرة طانا كمجرى بحر الزراف، كانا معروفين فى أوروبا عن طريق رحلات المبشرين الجزويت أمثال بايز ولوبو وفوق ذلك فان رانفيل حاول أن يقنع بروس أن النيل الأزرق لم يكن المجرى الرئيسى وأن منابع النيل الغامضة لا يزال ثلثاها سراً لم يكشف بعد .

وأنه لعجيب حقاً أن دانفيل بمعلوماته التى جمعها من القناصل الفرنسيين فى مصر كانت صحيحة فيما ذكرته عن منبع النيل أكثر مما أوضحه بروس نفسه رغم أن دانفيل نشر خريطته قبل وصول بروس إلى باريس بعام واحد .

ورغم ما قوبل به بروس فى باريس من حفاوة إلا أنه قوبل باستهزاء وسخرية فى بريطانيا وكانت قصصه التى ذكرها عن عادة أهل أتيوبيا فى سلخ الماشية وشرب دمها موضع التندر والفكاهة فى مقاهى لندن ويقول روبرت براون (لقد كان الناس فى انجلترا ينظرون إلى ما يقوله بروس بعين الشك والسخرية . فقد كانوا يهزأون من رواياته ومشاهداته ولم يكن للمقاهى إلا الحديث عن أساطير العرب الذين يضربون الأفيال بالسيوف وأهل أتيوبيا الذين يقطعون شرائح اللحم من الثيران الحية) .

ولقد كان لهذه السخرية التى قوبل بها بروس وهذا الاجحاف بجهوده والمخاطر التى لاقاها أثرها فقد أخر بروس نشر رحلاته سبعة عشر عاما منذ عودته إلى انجلترا [١٢] .

---

(١٢) Harry Johnston . Tre Nille Quest

ولقد كان لرحلة بروس آثار عظيمة فى كل من انجلترا وفرنسا فقد حفزت روايات بروس مسيو بفون على أن يحث الحكومة الفرنسية للعمل على كشف منابع النيل .

وعلى أى حال فإن الرغبة فى حل مشكلة النيل بدأت تنتعش فى أوربا فإن نشر رحلات البرتغاليين الجزويت فى بداية القرن الثامن عشر كما أن تمكين اللورد هاليفكس لبروس للقيام برحلته ثم أخيراً قيام الجمعية الأفريقية دليل على بداية هذا الاتجاه فى انجلترا . كما لقى هذا الموضوع فى فرنسا اهتماماً كبيراً وإن كان من أجل أسباب سياسية (١٣) .

عمر عبد العزيز عثمان

(١٣) Harry Johnston . The Nile Quest P . 90

المراجع

(1) Bruce : Travels to Discover the Source of the Nile .

(2) Robert Brown : The Story of Africa and its Explorers.

(3) Harry Johnstone : The Nile Quest .

(4) Margery Perham : African Discovery .

(5) Encyclopedia Britannica .

كشف منابع النيل الاستوائية

مما لا شك فيه أن النيل قد لعب الدور الأول فى نشأة الحضارة فى مصر مما أثار رغبة الكثيرين فى الكشف عن منابعه ، فظلت « مسألة النيل » موضع بحث قرابة ست آلاف سنة إلى أن ظهرت بريطانيا فى أفريقيا فى العصر الفكتورى تبحث عن أسواق جديدة للتجارة ، فوجدت فى أفريقيا ميادين فسيحة لألوان متعددة من النشاط ، فأسرعت بإرسال بعض رجالها البارزين ، فانتشروا وسط أحراش أفريقيا متحملين أهوالا لا قبل لهم بها بين الأمراض والحمى والحيوانات الضارة . وكان تجار الرقيق يسببون لهم كثيراً من القلق ويدبرون لهم المؤامرات . هـــذا بالإضافه إلى أن تجارة الرقيق كانت تمثل أكبر مزاحم للبضائع البريطانية هنالك .

ومهما كانت دوافع بريطانيا ورجالها لأعمال الكشف إلا أنه من الإنصاف أن نذكر أن الفضل الأول فى حسم مسألة النيل يرجع إلى الرواد البريطانيين .

وأول من اهتم بالبحث عن مسألة النيل فى بداية القرن الثامن عشر هو « ريتشارد بكوكو » وقد سافر فى النيل حتى الشلال الأول ، ونشر كتاباً حول رحلاته واستكشافاته [1] . وتلاه جيمس بروس فى أواخر القرن ١٨ ، فقد نزل فى الاسكندرية وسافر إلى أتيوبيا وقام بجولة فيها حتى بلغ مخرج النيل الأزرق من بحيرة طانا وتتبع مجراه من أتيوبيا إلى ملتقى النيلين ثم سار شمالا إلى بلاد النوبة فمصر . ثم عاد إلى بلاده . وقد نشر رحلاته فى سبع مجلدات ، وصف فيها جميـع البلاد التى زارها ، ورسم بروس فى خرائطه مجرى النيل الأزرق بكثير من الدقة [2] .

---

(١) Nile Quest

(٢) نهر النيل .

ولكن منابع النيل الاستوائية ظل أمرها مجهولا ، فالجهود التى بذلها المستكشفون كانت تنتهى دائما عند أعالى النيل الأبيض فى منطقة السدود ، حتى جاء عهد محمد على فكان فاتحة عصر جديد فى تاريخ الاستكشاف الأفريقى عامة والنيل بوجه خاص . فقد يسر الفتح المصرى للسودان دخول الرحالة والمستكشفين إلى هناك ، فقام عدد كبير منهم بزيارة السودان فى السنوات التى أعقبت الفتح المصرى .

واقتصرت رحلاتهم على أقاليم السودان الشمالى التى امتدت إليها الإدارة المصرية مثل النوبة وسنار وكردفان والتاكا ، أما أقاليم السودان الجنوبى التى لم تكن الإدارة المصرية قد امتدت إليها فلم يستطع الرحالة التوغل فيها . حتى فتحت حملات البكباشى سليم قبطان الطريق إليها . فقد سارت هذه الحملات جنوباً فى مجرى النيل الأبيض لكشف منابعه وتقدمت نحو الجنوب إلى خط عرض ٥٢ ٤° شمال خط الاستواء وقاربت الوصول إلى هذه المنابع ، ولكن لم تستطع بسبب العوائق الطبيعية فى مجرى النهر مواصلة تقدمها إلى أبعد من هذا الحد ، وعادت إلى الخرطوم دون أن تحقق هدفها .

وبالرغم من ذلك فقد كان لهذه الحملات أثرها فى إبطال الوهم الذى كان يسود اعتقاد الجغرافيين والمكتشفين أمثال دارفين وبرون وكايوه من أن نهر النيل ينبع من جبال القمر الواقعة بين خطى العرض الثامن والسادس شمال خط الاستواء . فاتضح لهم على أثر ذلك أن النيل إنما يبتدىء مجراه من الجنوب وأن رأسه تختفى بعيداً فى قلب أفريقيا .

والدراسات العلمية والجغرافية التى أجريت على مجرى هذا النهر وأجزاء النيل العليا التى وصلت إليها الحملة ، وما جمعته من المعلومات والأخبار المحققة عن هذه الجهات البعيدة ، كل هذا قد مهد السبيل لارتياد أعالى النيل والكشف

عن منابعه ، فهى من هذه الوجهة قد وضعت الأساس (الذى بنى عليه حل هذا اللغز الجغرافى القديم)(٣) .

وعلى أثر حملات البكباشى سليم قبطان فى النيل الأبيض وفتح طريق الملاحة فيه توافد على مناطق النيل العليا عدد من التجار المغامرين والمبشرين أمكنهم إلى جانب تحقيق أغراضهم التجارية والتبشيرية جمع مزيد من المعلومات الجغرافية عن هذه المناطق ، فساعدت هذه المعلومات بدورها على تحقيق هذا الكشف الجغرافى .

ومن بين هؤلاء المغامرين « برون روليه » الفرنسى ، وقد قصد هذه الجهات للتجارة وتبادل السلع مع سكانها الزنوج فى أواخر عهد محمد على ، وقد استطاع أن يتجول فى بعض ربوعها ، وأن يقدم وصفاً جغرافياً للمناطق التى زارها فى النيل الأبيض حول غندكرو ، وفى بحر الغزال وأن يكشف مسافات بعيدة من هذا النهر .

وعلى الرغم من هذه الجهود التى بذلت ، فقد ظل امر واحد غامضا ، وهو منابع النيل الاستوائية ، فقد ظل العالم المتمدن جاهلا حقائق تلك المنابع ، لايكتفى باخباره المنقولة عن القدماء أوعن اقوال التجار المتضاربة . بل يريد معلومات عملية دقيقة عن النهر وخاصة عن منابعه .

وقد وجد الروادو المغامرون من حكام مصر بعد محمد على التشجيع والتعضيد الكافى ، وذلك أن سعيد باشا واسماعيل باشا ، قد رغبا فى اكمال العمل الجغرافى الذى كان قد بدء فى عهد محمد على . فاستطاع صمويل بيكر الانجليزى أن يحصل

---

(٣) سليم قبطان : الدكتور نسيم مقار .

من سعيد باشا على فرمان بمساعدة ممثلى الحكومة المصرية له فى أثناء رحلته للكشف عن منابع النيل .

وكانت مسائل الكشف الجغرافى التى اهتم بها الرحالة تسير جنبا الى جنب مع الكشف الاجتماعى لنظم حياة القبائل التى عاشوا فيها وسمعوا عنها . وسردوا تفصيلات كثيرة عن حياة هذه القبائل ومستواها الحضارى وعاداتها وتقاليدها ونظم معيشتها . وقد رسمت هذه المعلومات لاوربا وانجلترا بوجه خاص صورة مكتملة المعالم للحياة فى ادغال القارة ، كما نقلت اليهم الطرق والوسائل التى يمكن بها الاتصال بهذه القارة . ولكننا سنكتفى بتناول النواحى الجغرافية فى الكشف مع الإشارة بشكل عابر إلى النواحى الاجتماعية عند تتبعنا لرحلة كل من هؤلاء الرواد . لأننا بصدد بحيث حركة الكشف الجغرافى وحدها .

وقد رأينا ان نضع كل رحالة بترتيب أهميته لا بتسلسل السنوات التى قدم فيها . وإذا كان ستانلى يعد اهم مستكشف فى القارة الأفريقية الا أنه لا يعتبر كذلك بالنسبة لاعماله الكشف فى المنابع الاستوائية للنيل .

لذلك فقد وضعنا سبيك فى المقدمة ويليه صمويل بيكر ثم غور دون باعتباره قد تولى حكم مديرية خط الاستواء بعد بيكر مباشرة . ثم اقتصرنا بالنسبة لستانلى على نقل رحلاته الخاصة بمنابع النيل الاستوائية فقط . واخيرا تعرضنا لرحلة بتريك باعتباره مستكشفا لمنطقة بحر الغزال التى تمد من مناطق المنابع الاستوائية الكشفية .

جون هانينج سبيك (١٨٢٧ — ١٨٦٤)

يصف « جونستون » الرحالة سبيك بأنه أهم مستكشفى القارة الافريقية بعد ستانلى . فلا عجب أن تثير اهتمامنا حياة ذلك الرحالة الكبير ، وتجعلنا ننقل نبذة عن حياته قبل أن نتتبع رحلاته واستكشافاته .

التحق سبيك بالجيش الهندى فى عام ١٨٤٤ ، وقام بعدة رحلات فى مجاهل هضبه التبت ، واستكشف الجزء الجنوبى الغربى منها ، واجتذبته هواية الرحلات والاستكشاف فلحق فى عام ١٨٥٤ بريتشارد برتون فى عدن وحصلا معا على تصريح لاستكشاف الاراضى الواقعة على الضفة الأخرى من الخليج . وقد ذهب سبيك مع برتون إلى الصومال ولكنه جرح وعاد الى بلاده. وكانت القارة الغامضة قد اجتذبت اهتمامه وخاصة مجموعة الحيوانات المختلفة الغريبة التى تعيش فيها (٤) . فما لبث أن عاد ولحق ببرتون مرة أخرى فى عام ١٨٥٦ . وبذل أقصى الجهود للوصول إلى بحيرة نياسا الشهيرة (٥) .

وفى نهاية عام ١٨٥٦ وصل المستكشفان إلى زنجبار ثم ذهبا فى جولة الى مومباسا وعبا ، وسمعا هناك اشاعات وقصص حول الجبال المغطاه بالجليد ، والبحيرة التى كان العرب يسمونها « أوكيروى Ukerewe » وهى بحيرة فيكتوريا . وبعد فترة امضياها فى هذه البلاد عادا إلى زنجبار للاستعداد للرحلة .

وفى نهاية عام ١٨٥٧ وصلت حملة برتون وسبيك إلى أنياموزى Unyamwezi وقد قابلهم عرب زنجبار المقيمون هناك بترحاب شديد وخاصة الشيخ سناى Snay الذى يعد أول عربى يدخل أوغندا ، وقد أخبر سناى المستكشفين عن وجود ثلاث بحيرات مختلفة — نياسا ، تنجانيقا ، فيكتوريا — واصيب برتون بالحمى أثناء أقامته فى « أنياموزى » فتولى سبيك قيادة الحملة ، ثم ذهبا معا لاكتشاف بحيرة تنجانيقا وعادا ثانية إلى أنياموزى ، ومرض برتون مرة أخرى (٦) وعلم برتون وسبيك من العرب فى كازيه أن بحيرة كبيرة تقع فى الشمال ويستغرق الوصول إليها ١٥ أو ١٦ يوما سيرا على الاقدام ، وقدموا إليهما تفاصيل دقيقة حول موقع هذه البحيرة بحيث استطاع سبيك أن يرسم خريطة لها . فطلب سبيك من برتون

(4) Mile Quest by Sir Hary Joonston

(٥) جونستون

(٦) Perham

السماح له بتكملة الرحلة نحو الشمال ، واصطحب معه بعض أفراد الحملة وعبر أنياموبزى ثم أوزو كوما .

وفى ٣٠ يولية عام ١٨٥٨ رأى سبيك خليج « موانزا Mwanza » وهو أحد الخلجان الجنوبية فى بحيرة فيكتوريا . ثم اتجه شمالا على طول هذا الخليج وفى ٣ أغسطس عام ١٨٥٨ رأى سبيك بحيرة كبيرة تمتد إلى الافق البعيد فى اتجاه الشمال ووجد فيها كثيرا من الجزر الصغيرة والكبيرة . وأطلق سبيك عليها اسم « بحيرة فيكتوريا « نسبة إلى ملكة انجلترا » . ثم عاد إلى برتون فى «kase» . وأخبر برتون نبأ اكتشافه ، وهنا دب الخلاف بينهما لأن برتون لم يصدق روايته ولم يقتنع أن ما اكتشفه سبيك هو منبع النيل ، وعادا وهما على خلاف إلى جزيرة زنجبار ، ثم رجع سبيك وحده إلى أنجلترا فى عام ١٨٥٩ .

وقد أثارت اكتشافات سبيك لمنابع النيل حماس الجغرافيين والعامة على السواء وكان لهذا النبأ دوى هائل كاد أن يطغى على نبأ اكتشاف برتون لبحيرة تنجانيقا ، مما أثار برتون وضايقه كثيراً ، فعاد إلى انجلترا فى نفس العام .

ولكن هذه الضجة لم تمنع الكابتن جيمس أوغسطس جرانت الذى كان يعمل مع سبيك فى الهند من أن يلح عليه أن يصحبه معه .

وجرانت ، رحل رياضى كسبيك له إلمام بعلم الحيوان والنبات . ونباتات إفريقيا هى هوايته الرئيسية ، وقد نشر على نفقته الخاصة ثلاثة مجلدات صور فيها أهم المجموعات النباتية التى جمعها ، وقد أدت جهوده فى هذا المجال إلى المساهمة بنصيب كبير فى الابحاث الخاصة بأفريقيا (٧) .

وقبل أن يغادر سبيك انجلترا ، عمل ترتيبات عن طريق القنصلية البريطانية

---

(٧) Nile Quest

فى زنجبار لارسال حمالين ومؤن إلى انياموىزى حتى يتمكن من مواصلة طريقه إلى بحيرة فيـكتوريا .

والحـكومة البريطانية فى الهند هى التى بذلت الـكثير من أجل فتح شرق أفريقيا أو أنشاء مراكز فيها ، فمنحت حملة سبيك ٥٠ بندقيه وكمية كبيرة من الذخيرة ، وأقرضته كل الاجهزة الخاصة بالمقاييس وعمليات المسح التى تتطلبها الرحلة ، كما قدمت إليه هدايا ثمينة — ساعات ذهبية — ليقدمها للعرب الذين ساعدوه فى جملته الأولى (٨) .

واتصل سبيك بيتريك الذى رقى إلى منصب القنصل العام بالسودان وطلب منه أن يضع تحت تصرفه زوارق فى غندكرو وأن يرسل فريقا من الرجال فى نفس هذا الاتجاه ليقدموا له المساعدات عندما يضطر إلى الوصول إلى هذه المنطقة من النيل .

وعاد رسبيك وجرانت انجلترا مارين بطريق الـكاب ، ومن مدينة الـكاب اتجهت الحملة إلى زنجبار . وفى بداية عام ١٨٦٠ تم تنظيم حملة سبيك وبدأ رحلته إلى الداخل . وكانت الحملة تتكون من جاويش فى الجيش البريطانى ، ٩ من رجال الشرطة من الهوتنتوت ، وملازم فى الجيش الهندى ، ٢٥ شخصا من الفرقة التابعة لسلطان زنجبار ، ورجل عربى من رؤساء القوافل ، ٧٥ من العبيد المحررين ، وواحد من الادلاء ، ١٠٠ من الحمالين الزنوج . وإثنين من الخدم الخصوصيين السود الذين يتحدثون باللغة الهندوستانية ، وطباخ أسود اللون أيضا ، ومترجم .

وكان سبيك من ناحيته يوجه اهتمامه الأول إلى وضع خريطة للبلاد التى يمر

---

(٨) نفس المرجع

بها ويتم ذلك بتحديد معدل السير باستخدام الساعة ومشاهدة مؤشرات البوصلة طول الطريق ووضع علامات خاصة بالتلال الموجودة فى هذا الطريق أو ذاك وملاحظة مساقط المياه وباختصار كان يلاحظ ويسجل كل ما يتعلق بالمسائل الطبوغرافية .

وقد شقت الحملة طريقها حتى « أوساجارا » بدون عناء كبير ، فالإنسجام الكامل والاتفاق التام بين سبيك وجرانت قد كفلا نجاح الرحلة ، ولكنهما واجهه بعض المتاعب فى أوساجارا . والمصاعب التى واجهت سبيك حتى بلاد رومانيكا تتلخص فى الآتى :

١ — هروب الحمالين وتركهم لسبيك .
٢ — سرقة ممتلكاته .
٣ — جدب الأرض وندرة المياه .
٤ — الضرائب .

فنى « يوساجارا » واجهوا بعض المتاعب مع رؤساء القافلة واشتد مرض الهوتنتوت حتى أصبحوا عديمى الفائدة وأصيب الكابتن جرانت بالحمى[٩] . ثم توجهوا بعد ذلك إلى « أوجو » وهى عبارة عن هضبة تنتشر فيها المجاعة بسبب ندرة الميـــاه وكثرة الإغارات التى يشنها الماساى من الشمال أو Wahehe من الجنوب . وشعب الواجوجو نفسه مشاغب فكثيرا ما سبب المتاعب للقوافل المارة .

ولكن مشا كل سبيك لم تنته عند هذا الحد فعند ما ذهب إلى مركز الحملة عند حدود أنياموزى علم أن ستة من رجال الهوتنتوت قد ماتوا ، وأن ٢٥ عبدا من عبيد سلطان زنجبار و٩٨ حمالا من بلاد أنياموزى قد هربوا . وكل ما لديه

---

(٩) Perham

من بغال وحمير قد نفق . ونصف ما يملكه قد سرق وقد وقع عليه هذا الخبر وقع الصاعقة ، إذ ما كاد يفرغ من جمع شتات الحملة ليواصل السير حتى فاجأته هذه الكارثة التى لم يعمل لها أى حساب .

وأثناء إقامته فى أنياموبزى سمع من العرب هنالك عن وجود جبل مرتفع فى بلاد هيما التى تقع غرب بحيرة فيكتوريا . وسمع أيضاً عن وجود بحيرة أخرى تختلف عن بحيرة فيكتوريا تميل مياهها إلى الملوحة ويسميها العرب البحيرة المالحة بسبب رواسب الملح الموجودة على شواطئها .

وأمضى سبيك هناك فترة طويلة جمع فيها عددا آخر من الحمالين ومن جديد بدأت الرحلة فى أكتوبر عام ١٨٦١ إلى « أوسوى » وهى تقع فى الجنوب الغربى لبحيرة فيكتوريا وهى محاطة تماما بالتلال . وكثيرا ما تعرضوا للسرقة فيها ليلا .

وبوصول الحملة إلى « كراجوى » فى نوفمبر عام ١٨٦١ انتهت المشاكل التى واجهتهم فى هذا الطريق القفر الشاق الذى بدأ من زنجبار . فلم يجدوا أرضا جدباء كما كان الحال من قبل ، ولم يعودوا يتعرضون للسرقة ، أو يشكون من صعوبة الحصول على الحمالين ، فقد أمدهم « رومانيكا » ملك البلاد بكل ما كانوا يطلبونه فى كرم وسخاء ، ولم تفرض عليهم الضرائب ، فقد بعث رومانيكا إليهم ليقابلوهم على حدود البلاد ، وأبلغوا سبيك أن رومانيكا لن يحصل منهم على أى ضرائب ، وأنه أمر الأهالى أن يمنحوه ما يشاء من الطعام هو وأفراد الحملة على نفقته الخاصة .

وواصلت الحملة السير داخل حدود كراجوى حتى أوريجى وهناك صعدوا أحد التلال ورأوا مياه عريضة واعتقدوا أنها بحيرة فيكتوريا نفسها ، وأحسوا بانتصار كبير لهذا الاكتشاف ولكنهم ما لبثوا أن عرفوا من الأهالى أن هذه المياه

عبارة عن بحيرة منفصلة وأن نهر « كيتانجولى » هو الذى يتصل ببحيرة فيكتوريا ، وأخبرهم الأهالى أن وادى « أوريجى » كان فيما مضى مغطى بالمياه ويمتد حتى « أوها » . وكانت كل الأراضى المنخفضة التى ساروا فيها من « أوسوى » يحتاج عبورها إلى الزوارق ، ولم تكن سلسلة التلال القائمة إلا عبارة عن سلسلة من الجزر فى المياه ، ولكن البلاد جفت وتحولت بحيرة « أوريجى » إلى مستنقع صغير .

وفى « ويرانهانجا Weranhangs » رأوا مسطحا مائيا جميلا يرقد بين التلال فأطلق على هذه البحيرة إسم « ويندرمير » لأن جرانت كان يعتقد أنها تشبه كثيرا بحيرة ويندرمير بانجلترا . وهذه البحيرة هى إحدى البحيرات الكثيرة فى المنطقة ، تنصرف إليها مياه الأمطار التى تسقط على التلال ، تماما مثل الأوريجى ثم تنصرف إلى بحيرة فيكتوريا عن طريق نهر كيتانجولى .

وعندما عادوا إلى خيامهم كانت غلالة من سواد الليل تزحف على الأفق بينما شفق الشمس ما زال يغطى جزءا من السماء وحينئذ لفتت نظره على البعد فى بلاد « رواندا » قمم عالية تلامس السحاب ، فتذكر فى الحال القصة التى سمعها من العرب عن وجود جبل رائع مغطى بالسحب ويسقط عليه دائما الثلج والبرد . وكان ذلك اكتشافا هاما فقد تبين أن هذه الجبال هى الحد الفاصل فى خط تقسيم المياه فى إفريقيا .

وأثناء إقامته فى بلاد « رومانيكا » سمع من أحد رجاله عن وجود بحيرة ملحة ينصرف إليها نهر من جهة الشمال ، جعله يعتقد فى صحة الأخبار التى سمعها من قبل عن وجود مثل هذه البحيرة ، فأرجأ البت فى هذا الوضوع حتى يستكشف بحيرة البرت .

وسار سبيك ميمما شطر أو غندا ، وفى ١٦ يناير عام ١٨٦٢ وصل إلى نهر

كيتانجولى وقد أكد سبيك فى رحلته السابقة التى قام بها عام ١٨٥٨ أن نهر كيتانجولى يصب فى بحيرة فيكتوريا من الجهة الغربية .

وحتى يتأكد سبيك من أن نهر موارانجو يخرج من بحيرة فيكتوريا جمع الأهالى وسألهم عن المكان الذى يخرج منه هذا النهر فقال البعض أنه من التلال الواقعة فى الجنوب ولكن الأغلبية أجمعت على أنه يخرج من البحيرة . وكان ذلك رأى سبيك فقد كان يظن أن نهرا عريضا متدفقا إلى هذا الحد لا يمكن أن تتجمع مياهه من أى مكان آخر سوى البحيرة .

وطلب سبيك أن يقابل متيسا ملك أوغندا وذهب أحد الرسل ليبلغ هذا الخبر إلى الملك ، وقد فوجىء متيسا بوجود رجل إبيض فى بلاده قادما من بعيد ، خصيصا لمقابلته ، وفرح متيسا بهذا النبأ إلى حد أنه رفض أن يتناول شيئا من الطعام حتى يأتيه سبيك فى الحال(١٠) .

وقد قابله الملك بالفعل فى قصره بترحاب شديد وتبادلا الهدايا . وقرر الملك أن يمنحه أرضا وماشية وعددا من الرجال والنساء حتى إذا ما فكر فى مغادرة أوغندا سيذكر أن هناك شيئا يجعله يعود مرة أخرى .

وبعد بضعة أيام بعث « متيسا » إلى سبيك ليلحق به فى النيانزا . ولم يفهم سبيك ماذا يقصد بالنيانزا إذ أن معناها فى لغتهم بحيرة ولا تعنى أكثر من ذلك . فذهب على الفور وعبر فى طريقه التلال والمستنقعات ، ثم عبر الجانب الغربى لخليج مارشيزون ووجد الملك وحاشيته هناك . فقرروا إتيان البحيرة ونزلوا فى خليج مارشيزون وجدفوا قليلا حتى وصلوا إلى إحدى الجزر . وقاموا بصيد أفراس البحر التى تكثر فى هذه المنطقة وتجولوا قليلا .

---

(١٠) Journals of speeke P, 283

كان سبيك فى هذه الفترة ينتظر جرانت فى قلق ، وفى مايو ١٨٦٢ وصلت رسالة منه يخبره فيها أنه قادم فى موكب عن طريق البحيرة من كيتانجولى . فأراد سبيك أن يذهب بنفسه لمقابلته فى الطريق ولكنه عاد واكتفى بانتظاره رغم الفرصة المتاحة له لارتياد البحيرة بنفسه وارسل متيسا زورقين خصيصا لاستقبال جرانت .

وبعد وصول جرانت أراد سبيك استئناف الرحلة إلى « أونيورو » . وطلب من الملك مده بالزوارق ليصل بها إلى « جانى » ، حيث يتوقع أن يجد بتريك هناك فى إنتظاره ليمده بالمراكب اللازمة لعودته إلى الخرطوم . وكان يريد أن يسير فى البحيرة ثم يتجه إلى النهر حتى يصل إلى جانى . ويعرض سبيك إلى الأسباب التى دفعته إلى التفكير فى السير فى النهر بقوله : « ينبغى فتح طريق للتجارة ، تجد فيه البضائع الأوربية طريقا دائما المرور إلى أوغندا[11] . »

عندئذ قرر أن يذهب مباشرة إلى جانى ، وطلب ألف رجل لمرافقته فى الطريق الذى سيسلكه من « كيدى » إلى « جانى » . فظنوا أنه ينوى الحرب ولكنه أخبرهم أن هذا العدد الضخم ما هو إلا وسيلة لمنع أى محاولة للدخول فى حرب . كما طلب عددا من الزوارق ولكن قائد أسطول متيسا أعترض على ذلك بقوله أنه يوجد ماء ضحل بين خليج مارشبزون وبين منطقة « كيرا » ومن كيرا إلى « أوراندوجنى » عدد كبير من الجنادل . فتم الإتفاق على أن يصطحبهم أحد حراس الملك وأن تقدم لهم الزوارق فى أوراندوجنى .

وبدأوا السير فى ٧ يوليو عام ١٨٦٢ متجهين شمالا حتى وصلوا إلى « كارى » بطريق البر ، ومن هناك افترق سبيك وجرانت . فقد أتجه سبيك إلى الشرق

---

(١١) Journals of speeke P. 422

ليصل إلى أوراندوجنى وعبر « لواجيرى » بينما اتجه جرانت إلى الغرب ليصل إلى بلاد كرازى .

ومرة أخرى يعتمد سبيك على أقوال الأهالى دون توخى الدقة العلمية فيرسم فى خريطته نهر لواجيرى خارجا من بحيرة فيكتوريا وبالرجوع إلى الخرائط الحديثة نجد أن نيل فيكتوريا هو وحده الذى يخرج من البحيرة .

وأخيراً وصل إلى « أوراندى وجنى » ووقف على ضفة النيل ويبلغ عرض النهر فى هذه المنطقة من ٦٠٠ إلى ٧٠٠ ياردة تنبث فيه الجزر الصغيرة والصخور فى هذه الجزر بعض أكواخ الصيادين ، أما على الصخر فلا يوجد إلا التماسيح تستجم تحت الشمس .

وعلى الضفة المقابلة للنيل فى هذه المنطقة تقع بلاد « يوسوجا » . وقد وجد فى أوراندوجنى ثلاث زوارق فى إنتظاره فطلب عددا أكبر حتى يستطيع أن يسير فى النيل « لأنه أعد الأمر مع الملك على أن يجعل النيل هو طريق المواصلات مع إنجلترا[١٢] . » باعتبار أن كل قادم إلى أوغندا للتجارة أو للزيارة يفضل أن يسلك طريق النهر .

ومعنى ذلك أن مسألة استكشاف منابع النيل لم تكن موضوع إهتمامه الوحيد . مما يجعلنا نعتقد أن الهدف العلمى لم يكن وحده الدافع لإرسال بعثة سبيك الاستكشافية وان فتح الطريق التجارى أمام البضائع البريطانية كان يسير جنبا إلى جنب مع عملية الاستكشاف .

وعلم سبيك أن النيل غير صالح للملاحة فى تلك المنطقة فسار برا على ضفته اليسرى .

---

(١٢) Journals of speeke p. 463

وبعد أن رأى بنفسه شلالات ريبون ومخرج النيل عاد مرة أخرى إلى أورندوجنى من نفس الطريق. ووجد فى إنتظاره خمسة زوارق وخمس بقرات من الماعز أرسلها متيسا خصيصا له وبذلك استطاع سبيك أن يبدأ السير فى النيل من أورندجنى ، ولكنه ما كاد يترك حدود المنطقة التابعة لمتيسا ويدخل حدود « أونيورو » حتى قابله عدد ضخم من الرجال المسلحين يصيحون صيحات الحرب ، فلم ير بدا من العودة ، ودخلوا نهر « لواجيرى » ووصلوا قرب « كارى » ، وعلم هناك أن معسكر جرانت ليس بعيدا ، وأمضى يومين مقتفيا أثره .

وفى ١٥ فبراير عام ١٨٦٣ وصل سبيك إلى غندكرو وقابل صمويل بيكر ، وكان أول من سأل عنه هو بتريك . وعلم أن ثلاث سيدات هولانديات هن البارونة « فان كابيلان » ومسزومس« تينيه » اتجهن إلى غندكرو على ظهر أحد المراكب البخارية لتقديم المساعدة لسبيك ولكنهن عدن إلى الخرطوم بسبب مرض أصابهن .

وقبيل أن يغادر غندكرو أعطى بيكر كل المعلومات الخاصة بـ Mnts Nzigé (بحيرة البرت) وأعطاه بيكر مراكبه الخاصة ليصلا بها إلى الخرطوم .

وقابل بتريك أخيرا وعاتبه لأنه لم يجده فى انتظاره فى جانى كما وعده فاعتذر له وقدم له كل ما يلزمه من الملابس والطعام لرجاله .

وعلم بتريك من سبيك أنه كان يمكنه بناء سفينه عند مادى والسفر بها جنوبا فى النيل لأن العاج موجود بكميات وفيرة هناك والطريق صالح للملاحة مما يسهل عليه نقل البضائع .

وسافر سبيك فى النيل ومر بأول رافد له وهو بحر الغزالى وبدلا من أن يجد بحيرة ضخمة كما هو مذكور فى الخرائط التى رسمت بانجلترا عند منحنى النيل ،

وجد مساحة صغيرة من المياه كأنها « بركة بط[١٣] » ثم وصل إلى الخرطوم ومنها إلى القاهرة . وفى عام ١٨٦٣ كان سبيك وجرانت فى إنجلترا .

وقاد برتون حملة ضد سبيك مستغلا فرصة عدم نجاحه فى تتبع مجرى النيل بعد خروجه من بحيرة فيكتوريا ، وأخذ يهاجم آراء سبيك كلها سواء ما يتعلق بمنبع النيل من البحيرة ، أو من جهة حجم البحيرة وأهميتها . فتقرر أن يواجه كل منهما الآخر فى مناظرة عامة يحتكم فيها كل طرف إلى الجمهور .

وقد نظمت فعلا هذه المناظرة فى الجمعية البريطانية فى « Batn » وبينما كان برتون جالسا على المنصه فى انتظار سبيك ، بينما كان النظارة يترقبون حضوره ، جاء نبأ وفاة سبيك أثر رصاصة خطأ أثناء الصيد .

وهنا انتهت حياه الرحالة الكبير وهو ما زال فى عنفوان شبابه ، ورغم حياته القصيرة فقد أتم عملا كبيرا ، خلد اسمه بين كبار المستكشفين إذ يكفيه فخرا أنه أماط اللثام عن مشكلة حيرت العالم أجيالا طويلة ، وظلت سرا غامضا قرونا عديدة ، هو لم يكتف بتحديد موقع منابع النيل ، بل حدد ايضا موقع خزان النيل الكبير — بحيرة البرت — بكثير من الدقة .

صمويل هوايت بيكر
(١٨٢١ — ١٨٩٣)

إن الظروف التى إرتبطت بقدوم صمويل بيكر إلى أفريقيا تختلف تماماً عن ظروف سبيك ، وإن كان الهدف فى الحالتين لا يختلف . فبينما نجد سبيك يبدأ رحلته إلى المنابع الاستوائية عقب مظاهرة من الجدال والنقاش العنيف فى لندن ، وإشترك الشعب الإنجليزى فى الاكتتاب لرحلته ، وتقديم الحكومة الانجليزية والجمعية

---

(١٣) سبيك ص ٦٠٩

الجغرافية الملكية كل المساعدات اللازمة له ، نجد أن صمويل بيكر يشق طريقه إلى القارة فى هدوء متحملا عبء مصاريف الرحلة كلها .

بدأ بيكر رحلته من القاهرة إلى الخرطوم عن طريق النيل مصطحباً زوجته . وظل هناك ١٤ شهراً يستكشف الروافد التى تنبع من الحبشة لتصب فى النيل .

وفى نهاية عام ١٨٦٢ غادر بيكر وزوجته الخرطوم وسارا فى النيل جنوبا ومعهم ثلاث مراكب . إحداها « ذهبية » لاستعماله وزوجته، والاثنتان الباقيتان للمؤونة والرجال المسلحين والملاحين . وقد إصطحب بيكر معه ٤٥ رجلا مسلحا ، ٤٠ ملاحا ، وبإضافة الخدم يبلغ مجموعهم ٩٦ رجلا . وشحن المراكب بكمية من المؤونة تكفى ٤ شهور . كما أخذ معه ١٠٠ أردب من القمح ، حتى يقدم لسبيك عند مقابلته ما يلزمه من المؤونة [١٤] .

وواصل سيره حتى وصل إلى ملتقى النيل بنهر السوباط وبعد مسيرة ٦ ميل فى إتجاه الغرب وجدوا ما يشبه البحيرة تمتد إلى مسافة تتطلب الملاحه فيها عدة أيام ، ثم تختفى فى النهاية وسط المستنقعات والأعشاب الكثيفة ، وفى الفصل المطير تأخذ شكل بحيرة حقيقية .

وتبين بيكر أن هذه البحيرة هى بحر الزراف وعلم من الدليل الذى يرافقه أنها ليست إلا فرعا من النيل الأبيض قادم من بلاد « علياب » وليست بحيرة منعزلة . وتبلغ شدة التيار ميل فى الساعة[١٥] . وقد واصل السير حتى بحر الغزال ، وملتقى النهرين هناك يشبه بحيرة مساحتها ٣ ميل طولا ، وإتساعها يختلف بإختلاف الفصول .

ويبلغ عمق البحيرة عند ملتقى بحر الغزال من ٧ إلى ٩ أقدام ويجرى تيار

(41) Decouverte de l' Albert Nyanza . Baker
(51) Decouverte de l' Albert Nyanza . Baker P. 30

قوى سواء فوق أو تحت نقطة التقاء النيل ببحر الغزال ، بينما مياه البحيرة راكدة فى هـذه النقطة بالذات . معنى ذلك أنه خلال هذا الموسم لا تصل مياه من بحر الغزال إلى النيل نتاج بحر الغزال ، لأن المياه تمتصها كثير من المستنقعات .

وكلما توغلوا إلى الجنوب كلما وجدوا مساحات هائلة من المستنقعات التى لا يمكن النفاذ منها . ومما زاد من متاعبهم أن رياح الشمال التى ساعدتهم منذ أن غادروا الخرطوم أصبحت مجرد هواء بسيط فكان عليهم أن يقوموا بجر المراكب باستمرار . ويختلف إتساع منطقة المستنقعات فى بعض المناطق يبدو أنها تمتد إلى مسافة تقرب من ٢ ميل على ضفتى النهر ، وفى جهات أخرى لا ترى على مدى البصر . ثم توقفوا بالقرب من إحدى قرى النوير على الضفه اليمنى إلى جانب ذهبيتين تابعتين « لخورشيد أغا » وهو أحد كبار تجار العبيد الأغنياء. فواصلوا السير مع مراكب خورشيد أغا ولم يكن يصادفهم فى الطريق سوى المستنقات والناموس وتعرجات مجرى النيـل والتواءاته وفى ١٩ يناير إستطاعوا أن يخرجوا من هذه المستنقعات التى كانت تبدو وكأنها بلا نهاية .

وفى ٣١ يناير بدا لهم فى الأفق جبل لادو Lado وفى ٢ فبراير رأوا فى الجنوب الجبال الواقعة فى ضواحى غندكرو . وحتى ذلك الوقت لم يكن قد تعرض لهم أحد بالعداوة أو الإيذاء « وتبين لى بالفعل أن سلوك السكان يتوقف كثيراً على سلوك الرحالة [١٦] . فقد كانو يحيون بسرور بالغ الأهالى القاطنين فى القرى الصغيرة المنتشرة بين الأشجار الخضراء التى تملأ المكان كله» .

وعندما وصلوا إلى غندكرو لم يجدوا إلا آثار مركز البعثة التبشيرية . . بقايا الكنيسة والبستان الذى كان يحف بها . وتعد غندكرو مجرد محطة لتجار

---

(١٦) بيكر ص ٦٠

الحاج الذين يقيمون فيها شهرين فى العام كله، ثم تتحول إلى صحراء جرداء عندما ترحل السفن إلى الخرطوم

وقد وجد بيكر أن غندكرو قطعة من جهنم بسبب الحرارة الشديدة هناك . ووصفها بأنها مستعمرة لقطاع الطرق ، بسبب عدم إهتمام السلطات المصرية بالادارة هناك فقد وجد الرشوة قد أفسدت كل شيء .

وبعد أن أمضى ١٢ يوماً فى غندكرو قابل فى إثنائها سبيك وجرانت، ويقول بيكر فى كتابه « عندما قابلت الرحالة كان أول ما تبادر إلى ذهنى أن الحملة التى أقوم بها قد توقفت تماما ، فقد ظننت أنهما أتما إكتشفا منابع النيل ، ولكنهما أطلعانى على خطوات رحلتهما وأفهمانى أنهما لم يتما اكتشاف النيل بالمعنى الصحيح وأن جزءا هاما من النيل لم يزل فى حاجة إلى الكشف

وقد سر بيكر لذلك فمنذ ذلك الحين أخذت رحلته الاستكشافية طابعا يبعث على الاهتمام ، فاذا كانت مسألة منبع النيل قد كشفها سبيك فما زال الأمر مجهولا بالنسبة لتلك البحيرة التى تمد النيل بكمية كبيرة من المياه . وحقيقة وجود بحيرة تمتد فى خط مباشر من الجنوب إلى الشمال مع النظام العام للنيل الذى يسير فى نفس الاتجاه يدل بطريقة لا يرقى إليها الشك أن « نزيجــــا » تمثل وضعا هاما فى حوض النيل .

وظل بيكر فى غندكرو سنة بأكملها ، ذلك لأن أحداثا كثيرة إعاقته عن الإسراع فى بدء الرحلة ، فقد تمرد رجاله من حمالين وأدلاء ، بل أعدوا مؤامرة لقتله بنفس السلاح الذى قدمه لهم ، ولكنه تمكن من التغلب على التمرد بفضل إثنين من العبيد المخلصين ، واضطر بسبب ذلك أن يظل هناك فى إنتظار عدد آخر من الرجال الذين سيرافقوه فى رحلته.

ولكنه فى إصرار وعناد لم يقبل أن يتراجع وأن يعود إلى الخرطوم. فقرر أن يسافر مع القافلة التابعة لخورشيد أغا رغم إنذاراتهم بضربه بالرصاص إذا ماتتبعهم ولكن كانت مغامرة لا بد أن يخوضها وإلا إنتهى به الأمر إلى الإنسحاب من الرحلة والعودة إلى بلاده . وبدأ فعلا مغامراته مقتفيا أثر قافلة خورشيد أغا ولم يكن يرافقه ادلاء أو تراجمة حتى وصلوا إلى نهر « أصوا » على خط عرض ١٢ . ٣° . ويلقى هذا النهر كمية كبيرة من المياه فى النيل ثم وصلوا الى شوا Shoua وهو عبارة عن جبل من الجرانيت يبلغ طوله حوالى ٨٠٠ قدم .

وبعد يومين من وصوله إلى شوا هرب منه كل الحمالين الذين احضرهم من أوبو. لأنهم علموا أنه ينوى الذهاب الى كرازى الذى يخشونه ويرهبون جانبه . وفى ١٨ يناير غادر شوا بعد أن استطاع أن يدبر قافلة أخرى . وكان الطريق شاقا تكتنفه المستنقعات من كل جانب . وكلما اجتازوا واحدة من هذه المستنقعات اعترضتهم الاخرى بعد مسافة لا تزيد عن نصف ساعة سيرا على الاقدام .

وفى ١٠ فبراير عام ١٨٦٤ وصل الى مقر كرزارى ملك أونيورو ، وقد استغل الملك فرصة الظروف السيئة المحيطة ببيكر واحتياجه إلى حمالين لاكتشاف البحيرة الغربية المجهولة ، فسلب منه كل مايملك هو وزوجته ، ثم وافق على منحه مايحتاج اليه من الحمالين والادلاء . فاصطحبه الادلاء إلى نهر كافور حيث كانت القوارب فى انتظارهم لتقلهم إلى بحيرة البرت عند الظهر إذا ماوصل السير فى الصباح الباكر .

ويصف بيكر شعوره فى تلك الفترة فيقول . «فى تلك الليلة لم استطع النوم اطلاقا ليالى عديدة وظللت أعمل جاهدا للوصول إلى منابع النيل

وفى صباح يوم ١٤ مارس عام ١٨٦٤ واصل بيكر طريقة قبل مشرق الشمس وعبر واديا عميقا ، ثم تسلق بعض التلال القائمة هناك حتى وصل إلى القمه ، وفجأة

ظهر ثمة جهده ، فني اسفل المكان الذى كان يقف فيه كانت تنبسط البحيرة ، وكأنها مياه بحرفضي لامع يمتد إلى الافق البعيد فى الجنوب والجنوب الغربى ، وتتلألأ تحت اشعة الشمس ، وفى ناحية الغرب لمسافة تتراوح بين إلى ١٠٠ كم كانت جبال زرقاء تبدو وكأنها خارجه من المياه ، وتصل إلى ارتفاع أكثر من ٢٠٠٠ متر . فصاح قائلا : « اذن انجلترا قد اكتشفت منابع النيل[٧١] .

ويصف بيكر البحيرة بقوله : « كانت الامواج تتكسر على الشاطىء بينما فى الأفق فى الجنوب الغربى تبحث العين عبثا عن حدود للبحيرة وكأنها مضطرة إلى اكتشاف حدود للمحيط الاطلسى[٨١] » .

وبالرجوع إلى خريطة بيكر التى رسمها بنفسة مبينا فيها خط سير رحلة الأولى عام ١٨٦٤ نجد أنه لم يستطيع أن يحدد فى خريطته الحدود الجنوبية للبحيرة ، ذلك لأنه لم يجد أحدا من الادلاء يمده بأية معلومات عنها . ومن ثم ظن بيكر أن حدودها أبعد ما يمكن تصوره وبذلك فشل بيكر فى تحديد حجم البحيرة ومساحتها . ويذكر الدكتور عوض فى كتابة أن مساحة البحيرة تبلغ حوالى ٥٣٠٠ كم٢ .

وقد اخطأ بيكر فى تصور وجود روافد كثيرة للبحيرة . كما اخطأ فى اعتقاده بوجود شالين مهمين فى غرب البحيرة ذلك لان ليس للبحيرة البرت روافد هامة سوى نيل فيكتوريا والسمليكى وبالرجوع الى دائرة المعارف البريطانية و كتاب الدكتور عوض نجد أنه ليس هناك أى ذكر لروافد أخرى للبحيرة وان كل ماينصرف إليها سواء من الشرق أو الغرب مجرد جداول صغيرة .

وقد امضى بيكر ومن معه ٨ أيام فى فا كوفيا فى انتظار الزوارق التى ستقلهم إلى « مجونجو » لأن الطريق مرتفع وكثير التعرج ، والشاطىء الشرقى للبحيرة تكتنفه كثير من الصخور التى تعوق السير فيه إلى مسافة طويلة .

---

(71) Le Lac Albert par Baker P. 219
(81) Le Lac Albert P. 226

وأخيرا وصلت الزوارق ، وساروا فى البحيرة على مقربة من الشاطىء الشرقى لها ، ولم يكن يزيد عددهم عن ١٣ شخصا ، وكانوا متقدمين عن موعدهم عاما كاملا. وفى الطريق شاهدوا كثيرا من افراس البحر والتماسيح تنتشر على الشاطىء .

ثم داهمتهم الريح فجأة قادمة من جهة الجنوب الغربى ، واضطروا ان يلجأوا إلى الشاطىء بالقرب من أحدى القرى ، وفى اليوم التالى بعد أن هدأت الريح واصلوا السير بالزوارق ولكن المطر أخذ يهطل عليهم بشدة ، وعندما جاء الليل اضطروا إلى أن يرسوا على الشاطىء ولكنهم لم يجدوا قرى مجاورة ، فاضطروا أن يمضوا الليل تحت سيل المطر المنهمر (١٩) .

وبعد أن أمضوا ثلاثة عشر يوما فى البحيرة وصلوا إلى الطرف الشمالى لها والبلاد التى تقع فى الشمال تشبه الدلتا فى شكلها . وبينما تنمو فى الضفة الشرقية اعشاب ونباتات كثيفة « تكون صحراء من النباتات « كانت ترتفع على الضفه الغربية جبال تبلغ ٤٠٠٠ قدم فوق سطح البحيرة . وكان ارتفاع هذه الجبال يقل كلما تقدم نحو الشمال . وعلم انهم وصلوا إلى بلدة « مجونجو » ولكنه لم يستطع أن يجد مكانا صالحا لرسوم الزوراق بسبب كثافة الاعشاب وفضل ان يستمر فى التجديف حتى يجد مكانا مناسبا (٢٠) .

وبعد أن ساروا مسافة ميل عبر هذه النباتات الكثيفة اتجهوا فجأة نحو الشرق ودخلوا قناة واسعة تحيطها على الضفتين نباتات كثيفة . كان هنا كما قيل له مصب نهر سومرست . وهو نفس النهر الذى عبره عند جنادل « كروما » وبينما كان التيار هناك شديدا تكتنفه الصخور عند الجنادل إذا به يتحول إلى مياه راكدة عندما يلتقى ببحيرة البرت .

---

(91) Decouverte de l' Albert N'yanza P. 336

(٢٠) نفس المرجع ص ٣٥٨ .

وقد اتجه بيكر إلى مصب نيل فيكتوريا حيث أراد أن يستكشف مجراه قبل أن يصب في بحيرة البرت . ولكنه ترك مخرجه من بحيرة البرت وبذلك لم يثبت بيكر علميا أن النهر الذى يخرج من بحيرة البرت هو نفس نيل فيكتوريا الذى يدخل البحيرة من الجهة الشرقية كما بقيت المنطقة الواقعة بين مخرج بحيرة البرت إلى بلدة عولى دون أن يستكشفها ، وسار فى النيل حيث يضيق بعد « مجونجو » وكان التجديف شاقا لأنه ضد التيار . ولكنهم أستمروا فى ذلك وقدر بيكر أنهم سوف يشاهدون الشلالات إذا ما اجتازوا منحنى النهر فطلب من الملاحين مضاعفة التجديف فى هذا الإتجاه ولكنهم رفضوا ، فأكد لهم أنه لا يريد إلا مجرد رؤية الشلال رؤى العين ولو على بعد ، بعدأن وعدهم ببعض الهدايا ، فضاعفوا التجديف رغم شدة التيار فى هذه المنطقة ، فظهر الشلال هائلا عملاقا يبلغ إرتفاعه حوالى ١٢٠ قدما . ويصف بيكر مياه الشلال بأنها بيضاء كالثلج ، وهذا اللون الأبيض الذى يختلف مع اللون الأسود للصخور المحيطة به يضفى على اللوحة كلها منظرا رائعا خلابا ، ويضفى النخيل المتناثر على الصخور مزيدا من السحر إلى اللوحة(٢١) .

وقد أطلق بيكر على هذا الشلال اسم « مارشيزون » نسبة إلى رئيس الجمعية الجغرافية الملكية .

وعاد بيكر إلى بلاده ، فنشر فى عام ١٨٦٦ كتابين أحدهما يسمى .

„The Albert Nyanza Great Basin“

والكتاب الثانى اسمه "Explorations Of the Nile sources"

وفى عام ١٨٦٨ نشر كتاب Nile tributaries of Abyssinia

وفى نفس العام منحته الجمعية الجغرافية فى باريس « نيشانا ذهبيا » تقديرا لجهوده فى أعمال الكشف الجغرافية .

---

(12) Découverte de l'Albert N'yanza. P. 368

الرحلة الثانية لصمويل بيكر

إذا كان بيكر قد قام برحلته الأولى فى المنابع الاستوائية من أجل الكشف العلمى ، فلم تكن رحلته الثانية تستهدف هذا الغرض وحده . ففى بداية عام ١٨٦٩ قدم بيكر إلى مصر مرة أخرى ولما يمض على سفره أكثر من ثلاثة أعوام وكان بصحبة الأمير « دوجال » ولى عهد المملكة فيكتوريا ونجلها الذى أصبح الملك أدوارد السابع . وقد دارت محادثات بين الخديوى إسماعيل وولى عهد إنجلترا حول تولى صمويل بيكر قيادة حملة إلى الجنوب لضم الأراضى الواقعة فى جنوب فاشودة حتى البحيرات الكبرى إلى أملاك الحكومة المصرية ، وقد أيد ولى العهد تأليف هذه الحملة وشجع على إرسالها[٢٣] ، وتم الاتفاق بين الحكومة المصرية وصمويل بيكر فعين حكمدارا لمديرية خط الاستواء بعقد مدته ٤ سنوات من عام ١٨٦٩ إلى ١٨٧٣ وبراتب سنوى قدره ١٠ آلاف جنيه .

فأخذ بيكر يعمل على الاعداد للحملة ، وأمر بانشاء ثلاث بواخر حمولة الأولى ٢٥١ طن ، والثانية ١٠٨ طن ، والثالثة ٣٨ طن ، ومركبين من الحديد طول الواحد ٣٠ قدما وعرضه ٩ أقدام . وأوصى بعمل آلات بخارية لقطع الأخشاب وكان يتحتم نقل كل ذلك من الأسكندرية إلى غوندكرو أى مسافة ٤٨٠٠ ك م على ظهر الجمال مرة والسفن مرة أخرى .

وقد اصطحب بيكر زوجته فى هذه المرة أيضا ، كما صحب جماعة من الإنجليز هم الملازم جوليان ألين بيكر ابن أخيه ومن رجال البحرية الملكية ، ومستر أودوين هجنبوثام المهندس الملكى ، ومستر وود السكرتير ، والطبيب جوزيف جيرج ، ومستر ماركو بولو رئيس مخازن الحملة ومترجمها ، ومستر ماك ويليام

---

(٢٣) تاريخ مديرية خط الاستواء — عمر طوسون .

رئيس مهندس البواخر ، ومستر هواتيفيلر ومستر سامسون وهيتشمان ومستر ومسول من بنائى السفن والمراجل ، وإثنان من الخدم .

وأعد بيكر ٣٦ مركبا تصعد النيل إلى الخرطوم حاملة المهمات والذخائر ، منها ٦ بواخر وخمسة عشرة سفينة شراعية وخمس عشرة ذهبية . وكانت الأوامر قد أبلغت إلى حكمدار السودان العام بأن يمد فى الخرطوم ٢٥ مركبا شراعيا ، ٣ بواخر ، وأن يهىء الجمال والخيول اللازمة للنقل برا بحيث يكون كل ذلك معدا عند قيام الحملة .

وبذلك تكون قوة الحملة البحرية مؤلفة من ٩ بواخر ، ٥٥ مركباً شراعياً ، متوسط كل منها ٥٠ طن . وقوة الحملة العسكرية تتكون من ١٢٠٠ جندى ، ١٠ مدافع جبلية [٢٤] .

وبعد أن وصل الأسطول إلى فاشودة وهى محطة الحكومة فى بلاد الشلك ، واصل السير جنوبا إلى ملتقى النيل ببحر الزراف . ودخلوا بحر الزراف ووجدوه مليئاً بالنباتات والأعشاب المائية التى تكون جزراً عائمة تحول النهر كلة إلى مستنقع ، وتحت ضغط المياه الموجودة ينقسم النهر إلى عدد لا حصر له من القنوات الصغيرة . فأخذوا يعملون على تنقيته من كل هذه السدود حتى يستطيعوا أن يشقوا طريقاً فيه ، وسرعان ما تبين لهم أن النهر أصبح ضحلا ، واستحال استكمال السير فيه ، فعادوا من حيث أتوا لاقامة مركز فى بلاد الشلك [٢٥] . وذهبوا إلى حاكم فاشودا وهناك على بعد ٤٠ كم أنشأ بيكر مركزاً دائما للحملة ، وأطلق عليه اسم التوفيقية نسبة إلى محمد توفيق باشا الابن الأكبر للخديوى اسماعيل .

---

(٢٤) تاريخ مديرية خط الاستواء — عمر طوسون :

(٢٥) Ismailia P. 30

ثم قرر بيكر أن يستكشف النيل الأبيض حتى يعثر على طريق عبر السدود وسافر في ١١ أغسطس عام ١٨٧٠ ، وبعد أن سار في النيل ٣٠ ساعة وصل إلى منحنى يقع على بعد ٢٠ كم من نقطة التقاء النيل ببحر الزراف ، ثم أوصلتهم قناة ضيقة إلى بحر الغزال ، وكانت سمات هذا النهر قد تغيرت عما كانت عليه في رحلته الأولى فقد تحول إلى مجموعة متتابعة من البحيرات ، يستغرق عبورها عدة ساعات بلا منفذ آخر سوى الممر الذي يقع في الغرب ، وعلم أن هذا الممر هو نفسه بحر الغزال (٢٦) .

ولاحظ أن النهر كان ممتلئاً بالماء وخالياً من النباتات المائية التي كانت تعوق السير وقام بقياس هذه البحيرات والمجرى الرئيسي ووجد أن متوسط العمق يبلغ ٢ متر ، ولاحظ عندما رست المراكب على الشاطيء أن كل ما يلقون به لا يتحرك مما يدل على عدم وجود تيار مائي ، وكان بيكر يعتقد دائما بوجود منفذ للمياه من جهة الغرب تخفيه أعشاب طويلة ويرسل إلى النهر مياه « الجور » والروافد الأخرى ولكن عمليات البخر ونمو النباتات الاسفنجية تسبب في ضياع كمية كبيرة من المياه . وقد قام بدراسة بحر الغزال حتى يؤكد كما ذكر في رحلته الأولى أن هذا النظام غير العادي من البحيرات والمستنقعات لا يأتي إلا بالقليل من الماء إلى النيل الأبيض أو ربما لا شيء منه . وبعد أن أمضى ١٠ أيام في التجول في بحر الغزال عاد إلى المعسكر .

وشدوا رحالهم مرة أخرى إلى بحر الزراف ليشقوا طريقاً عبر السدود للوصول إلى غندكرو ، وبعد سفر دام ٣٦ يوماً وصل الأسطول عند ملتقى بحر الزراف . وقد صادفت الحملة هناك عقبة جديدة ، ذلك أن الطريق الذي قطعته الحملة في العام الماضي اعترضته السدود مرة أخرى واحتاج الأمر إلى حفر خنادق وجر المراكب

---

(٢٦) Ismailia P. 77

وتفريغها وشحنها مراراً وتكراراً . واستمروا من ١١ فبراير إلى ٩ مارس عام ١٨٧١ يقومون بعمل « فوق طاقة البشر » كما يقول بيكر ، ونجحوا فى فتح قناة مستقيمة بلغت ٥٥٠ متراً ، وبينما كانوا يقومون بهذا العمل الشاق وجدوا أنفسهم قد خرجوا إلى النيل الأبيض مرة أخرى حيث تمتد المياه وتختفى السدود وبذلك نجح بيكر فى فتح ممر فى النيل الأبيض [٢٧] .

وفى ١٥ أبريل عام ١٨٧١ وصلوا غندكرو وأقام بيكر محطة هناك أطلق عليها اسم « الاسماعيلية » نسبة إلى الخديو اسماعيل باشا . ولم يلاق بيكر أى ترحيب من قبائل البارى فى غندكرو ، فأرسل فى طلب رئيس قبيلة البارى المدعو « اللورون » وطلب منه أن يعترف بتبعيته لحكومة الخديوى فى مقابل حمايته من إغارات القبائل الأخرى . فوعده « اللورن » بإجابة مطالبه . ولكن تجار الرقيق كانوا قد أفهموه أن بيكر إذا لاقى صعوبات كبيرة سيضطر أن يعود بحملته إلى الخرطوم . وقد عمل اللورون فعلا على خلق المتاعب أمام حملة بيكر أملا منه فى أن تعود أدراجها كما فعل الأوربيون الذين زاروا غندكرو من قبل . ولكن بيكر أصر على القضاء على كل مقاومة واحتفل بضم غندكرو رسمياً إلى مصر [٢٨] وترتب على ذلك أن أعلن تحريم الاتجار فى العاج واعتبره ملكا للخديوى . وقد لاقى مقاومة كبيرة من قبائل البارى فى غندكرو ، ومن بعض الضباط الذين تواطئوا مع تجار الرقيق . فقرر بيكر أن يقوم بجولة فى المنطقة للتعرف عليها والتقرب إلى البارى وفعلا استطاع أن يعقد صلحاً معهم . وبعد أن نجح فى استتباب الأمن فى المنطقة ، واطمأن إلى وجود مركز قوى فى المحطة ، قرر أن يتجه إلى الجنوب حتى يفتح طريق المواصلات مع بحيرة البرت ، وترك فى معسكر غندكرو ٣٤٠ رجلا من ضمنهم ٥٢ بحاراً واصطحب معه ٢١٦ ضابطاً

---

(٢٧) نفس المصدر ص ٩١ .

(٢٨) تاريخ مديرية خط الاستواء

وجندياً ليستكمل بهم الرحلة . ووصلوا إلى « لا بورى » وأقاموا محطة هناك . وواصلوا السير جنوباً ، فوجدوا نهر « أصوا » وبعد عن معسكرهم بأربعين كم ولم يكن النهر عميقاً فى تلك الفترة رغم هطول الأمطار بشدة ، ولكن كان من الصعب على مثل حملته الخوض فيه فعبروا النهر ووجدوا سلسلة من الجبال على الضفة الغربية للنيل يطلق عليها العرب اسم جبل « كوكو » ويبلغ ارتفاعه من ١٠٠٠ إلى ١٢٠٠ متر ويهبط بسلسلة من المنحدرات الصخرية حتى يصل إلى النيل .

وعلى بعد ٦٠ كم من « لا بورى » وصلوا إلى منطقة يطلق عليها الأهالى اسم أفودو Affoudo وبالرغم من أن قناصى العبيد خربوا المنطقة كلها الا أن بيكر اصر على تسميتها الأرض الموعودة ، لأن النيل كان ينساب على يمينها وكأنه شريط من الفضة قادما من بحيرة البرت هادئا عميقا دون أن تعترضه أية جنادل لمسافة تقرب من ١° درجة . فأنشأ مركزا هناك وسماه « الإبراهيمية » نسبة إلى والد اسماعيل باشا ويؤكد بيكر فى كتابه أن محطة الابراهيمية ستكون يوما عاصمة أفريقيا الوسطى وسيكون ميناؤه على النهر بالقرب من نقطة التقائه بأنيامى . ومن هذه النقطة ستنقل البضائع إلى غندكرو بواسطة الحمال فى مسافة تبلغ ١٩٣ كم ويمكن بعد أن تختصر هذه المسافة بعد خط سكة حديد أن يكمل خط المراكب التجارية ، وبعد الانتهاء من الخط الواقع ما بين القاهرة والخرطوم يستلزم الأمر شق طريق امام المراكب البخارية إلى افريقيا الوسطى أى من البحر الأبيض إلى خط الأستواء(٢٩) .

ثم اتجه إلى فاتيكو حيث أقام محطة هناك وغادرها فى ١٨ مارس عام ١٨٧٢ بعد أن اقنع الأهالى أنه ليس لديه نيات عدائية تجاههم وانما يريد القضاء على

---

(٢٩) الاسماعيلية ص ٢١٢

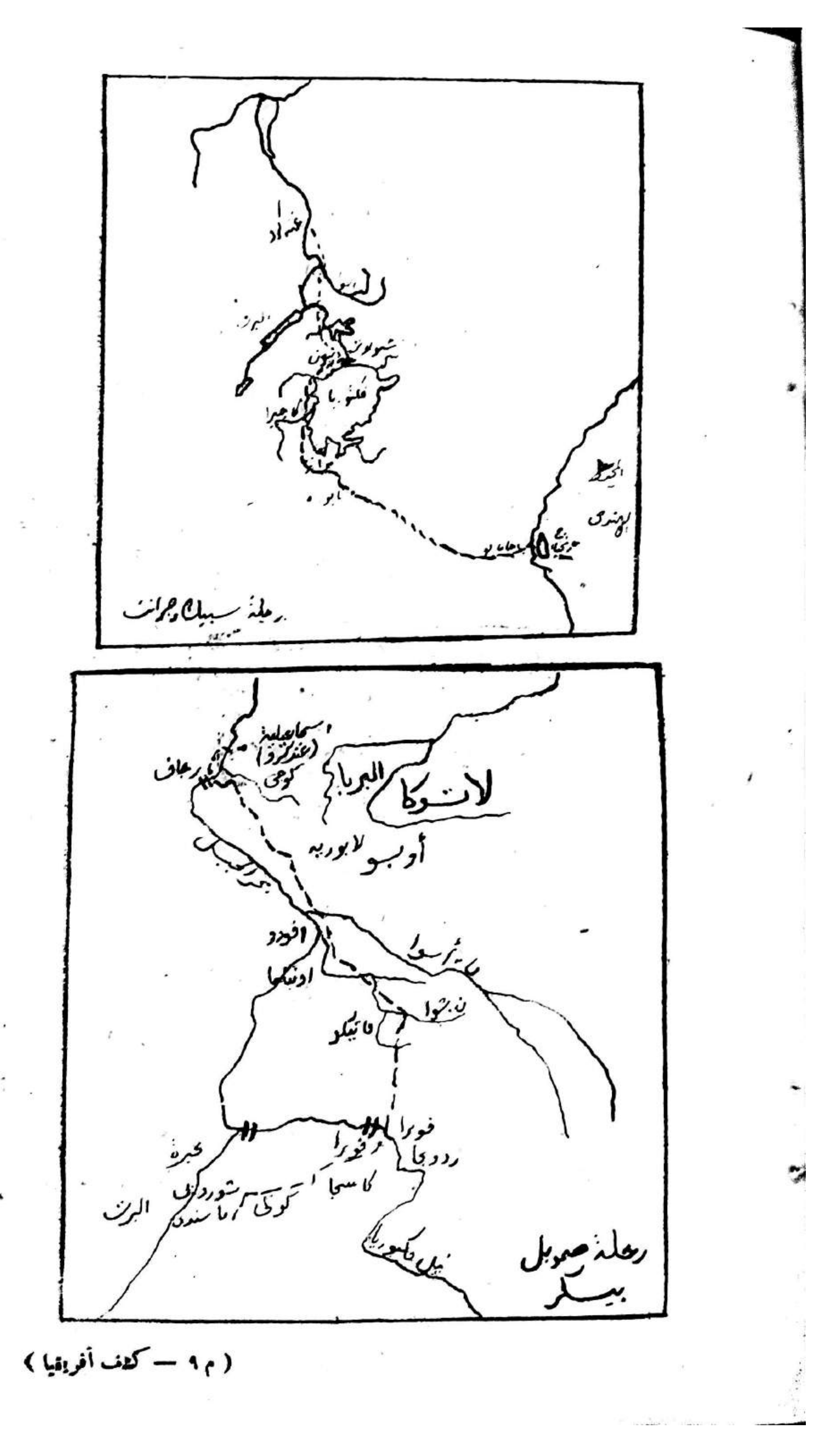
الفوضى والإرهاب الذى اثاره أبو السعود على طول مناطق النيل الأبيض مع اعوانه تجار العبيد فرحبوا به وأخبروه أنهم سيلتفون حول الإدارة الحكومية الصالحة ، وإن كل ما يرغبون فيه هو الحماية والعدالة .

وللمرة الثانية يصل بيكر إلى نيل فيكتوريا وأقام محطة فى « فويرا » ومنها إلى « كيسوتا » ، ثم وصل إلى « كوكى » فى ٢٦ ابريل وقابل زعيمها وهو يدعى « كيلاكرا Killakara ويقول أنه الرجل المهذب الوحيد الذى قابله فى بلاد أونيورو وهناك تركه جميع الحمالين وهربوا ، فاضطر أن ينتظر قليلا حتى يحصل على غيرهم ومن ثم استطاع أن يواصل رحلته ، فشاهد فى الطريق آثار الحرب الاهلية التى نشب عقب موت كمرازى ، وانتهت بقتل الملك الشرعى Miro — Kabba وتولى Kabba — Miro — Rega الملك بعده . وصعد أحد التلال القائمة فى تلك المنطقة وشاهد على بعد ٣٢ كم غربا مياه بحيرة البرت . وأخيرا وصل إلى « ماسندى » عاصمة أونيورو ، وهى عبارة عن هضبة مغلقة من الغرب بسلسلة جبال تحف ببحيرة البرت . فأقام هناك المركز الأخير الذى انشأه بيكر باسم الحكومة المصريه . وقد نجح بيكر فى الاستيلاء على أونيورو وتمت الاحتفالات بضمها إلى حكومة الخديوى فى مصر ، وتبلغ مسافة بين ماسندى والاسماعيلية ٥٥٠ كم[٣٠] .

وهنا كانت مدة عقد خدمته قد انتهت فمنحه الخديوى رتبة الباشويه تقديرا لجهود فعاد إلى انجلترا مع زوجه فى عام ١٨٧٤ واشترى فى جنوب « ديفون » قطعة أرض أقام فيها بيتا له أمضى فيه بقية حياته.

---

(٣٠) نفس المرجع ص ٢٨٠


رحلة سبيك وجرانت
لاتوكا
البريا
رجاف
كوجى
أوبو
لابوربه
افودو
اودنكا
فاتيكو
فويرا
ردوجا
كاسجا
البرت
رحلة صموئيل
بيكر

شارل جورج غوردون

١٨٣٣ ـ ١٨٨٥

لم يأت غوردون إلى منطقة منابع النيل مستكشفا وإنما قدم إليها بصفته الرسمية كحاكم لمديرية خط الاستواء ، فقد أرادت الحكومة المصرية أن تعين خلفا لصمويل بيكر بعد انتهاء مدة عقده ، واتفق أن كان نوبار باشا فى السفارة البريطانية فى الآستانه ، فقابل غوردون وتعرف به وعرض عليه الأمر ، وكان غوردون من مهندسى الجيش البريطانى ، وكان يشغل فى ذلك الوقت منصب العضو البريطانى فى اللجنة الدولية للاشراف على الملاحة فى نهر الدانوب .

وتمت المساعى بعد ذلك لتعيين غوردون ، فوصل إلى القاهرة فى فبراير عام ١٨٧٤ فقابله الخديوى إسماعيل وعرض عليه منصب حاكم عام لمديرية خط الاستواء بمرتب سنوى قدره ٢٠٠٠ جنيه .

كان السودان كله منذ رحيل سير صمويل بيكر حتى تاريخ تعيين غوردون تحت سيطرة حاكم واحد ، ولكن الخديوى غير هذه الطريقة وقسمه إلى قسمين :

١ ـ السودان مع فاشودة كحد جنوبى ، وقد ولى عليه إسماعيل أيوب باشا .

٢ ـ مديرية خط الاستواء وهى تشمل جميع المناطق الخاضعة لسلطة الحكومة المصرية ابتداء من جنوب فاشودة ، وتشمل أيضا المناطق التى يجب أن تتكون منها وقد ولى عليها غوردون باشا[٣١] .

وبدأ غوردون رحلته من القاهرة فى ٢١ فبراير عام ١٨٧٤ وبعد ٢٠ يوما من مغادرته القاهرة وصل ومعه حملته إلى الخرطوم وكان من اليسير على حملة أن تواصل

---

(٣١) تاريخ مديرية خط الاستواء .

السير لأن أكداس الحشائش المشتبكة ببعضها فى المنطقة المعروفة بالسدود قد أزيلت ، فقد ذهب الحكمدار العام للسودان « إسماعيل أيوب » إلى تلك الجهة على رأس أورطة من عساكر السودان قبل قدوم غوردون بمدة أسابيع وعمل على فتح طريق للمواصلات مع غندكرو التى كانت وقتئذ تحت إشرافه .

وقام الجنود بمجهود متواصل استغرق ثلاثة أسابيع أزيلت بعدها أكداس النباتات الهائلة ، وقدمات الكثير من العمال متأثرين بحمى الملاريا والدوسنطاريا والحميات الأخرى الخبيثة ، أما أولئك الذين ظلوا على قيد الحياة فقد كانت حياتهم مهددة بدودة غانا الرهيبة التى تسمم المياه .

وفى ١٧ أبريل عام ١٨٧٤ وصلت الحملة إلى غندكرو ، واستقبلهم هناك قائد الحامية الاميرالاى وؤوف بك الذى كان حاكما بالنيابة للمديرية منذ سفر صمويل بيكر وقدم الرسل من قبل متسيا ملك أوغندا ومعهم هدايا من العاج وغيره ، وأعرب الملك عن رغبته فى أن يرتبط مع حكومة مصر بعلاقات ودية ، وطلب ارسال احد العلماء كى يعلمه الدين الاسلامى هو وشعبه . كما استقبل غوردون رسلا من قبل الأمير « ريونجا » خصم كباريجا ملك أونيورو يعرضون رغبة الأمير فى صداقة الخديوى .

وعاد غوردون إلى الخرطوم وفى أثناء رحلته أتم رسم مسودة خريطة مجرى النيل بين الخرطوم وغندكرو .

ثم عاد إلى غندكرو ليضع المشروعات اللازمة لتنسيق الاتصال بالمناطق الواقعة تحت سيطرته ويستعد لعمل استكشافات منظمة فى الأنحاء التى كانت لا تزال مجهولة من النيل والبحيرات الكبرى ، لأنه كان يريد فتح طريق نيلى للمواصلات يحل محل وسائل النقل البرى المرهقة ، ولكنه وجد أن استخدام

النيل للنقل جنوب غندكرو فيه شيء من المجازفة ، فقد كان يسود الاعتقاد حتى ذلك الوقت أن النيل ابتداء من الرجاف حتى دوفيليه غير صالح للملاحة ولا يمكن استعماله لهذا الغرض فاضطر غوردون أن يسلم بالفكرة مؤقتاً إلى حين دراستها (٣٢) .

ومن ثم ارسل غوردون إلى دوفيليه مع مستر كامب المهندس الانجليزى اجزاء باخرة صغيرة لتركيبها هناك وكلف ابا السعود بمهمة الاشراف الدقيق على عملية نقل اجزاء الباخرة ، لأنه كان يعلق عليها آماله فى السفر فى النيل فيما بعد دوفيليه إلى بحيرة البرت .

وكان غوردون قد نجح فى توطيد العلاقات الحسنة مع قبائل لوقير المعروفة بعدائها الشديد للاجانب، فقد كان المسافر يضطر لأن يرسم منحنى كبير ليتجنب عدوان هذه القبائل عليه ، فيقطع المسافة فى ١٠ أيام ، بينما إذا مر عبر هذه البلاد استطاع أن يقطع الطريق فى ٤ أيام . كما نجح غوردون فى انشاء خط من المحطات تربط جنوب البلاد بشمالها . وكانت تراوده الامال فى عبور الشلالات بالباخرة مع ٦ أو ٨ مراكب أخرى ، وأن يقيم محطات على طول نيل فيكتوريا فى بحو نجو وانفينا ومرولى وعلى بحيرة فيكتوريا نفسها .

واراد غوردون استكشاف المنطقة بنفسه فغادر لابورية قاصدا دوفليه وتوقف فى أول يوم على بعد ٢٠ كم جنوب المحطة الأولى . وكان النهر ضيقا جدا فى هذا المكان ولا يزيد عرضه عن ٤٠ مترا ، وفى اليوم التالى وصل إلى دوفيليه دون أن يعترض الاهالى طريقه . ثم غادر دوفيليه وسار فى طريق يبعد قليلا عن النهر حتى يتجنب الشواطئ المغطاة بالغدران ، وبعد أن قطع حوالى ١٠كم عاد وسار على الشاطئ

(٣٢) تاريخ خط الاستواء .

وهناك صعد إلى صخرة فوجد أن النهر امام الصخرة ضيق وينحصر انحدار الماء منه فى مضيقين يبلغ عرض كل منهما حوالى ٢٠ مترا ، ويفصل احدهما عن الأخر صخرة ويستمر الماء فى الانحدار بنسبة ١ : ٦ وهو يفور ويجيش إلى مسافة ٣ كم ثم يسكن الماء وينساب هادئا . وكانت النقطة التى وقف عندها غوردون هى شلالات «فورا التى كان يطلق عليها اسم «مكديه» وبعد أن شاهد غوردون بنفسه منطقة الشلالات هذه ادرك أنه من العبث أن يفكر فى نقل الباخرة عن طريق النيل وأن السبيل الوحيد إلى ذلك هو نقلها مفككة عن طريق البر .

وفى يناير عام ١٨٧٦ قرر أن يقوم برحلة إلى « مجونجو » ولكنه تبين أن الجنود المقيمين فى المراكز التى أنشأها ، يعانون نقصا شديدا فى المؤونة والذخيرة ، ففضل استخدام السفن فى نقل ما يحتاج إليه الجنود ، بدلا من استخدامها فى عمليات الكشف [٣٣] .

وقرر غوردون أن يستكمل رسم خريطته من دوفيليه إلى كيرى حيث تقع شلالات فورا ، وعندما وصل إلى كيرى علم أن الرحالة Piaggia كشف بحيرة بين مرولى واندروجانى على نيل فيكتوريا طولها ٨٠ كم . وعندئذ تبين غوردون أن شاليه لونج كان على حق عندما أشار إلى وجود هذه البحيرة أثناء رحلته إلى أوغندا ، وكان غوردون يظن أنها ليست سوى منخفض من الأرض مغمور بالمياه . وبالرجوع إلى الخرائط الحديثة وجدنا أن بحيرة كيوجا هى المقصودة فهى تقع فى هذه المنطقة . وكان سبيك قد سلك ذلك الطريق ولكنه لم يفطن إلى وجودها .

وعندما عاد غوردون إلى دوفيليه وجد أن الباخرة نيانزا قد أعدت للرحيل

---

(٣٣) عمر طوسون ص ٢٤٧

فركبها وسار إلى مجونجو . وكان عرض النهر يتراوح بين كيلو متر واحد وخمسة كيلو مترات وماؤه ينساب هادئا ، وكانت جزر البردى منتشرة فى سائر أرجائه وتمتد على طول ضفتيه أوحال من الطمى تحول دون الدنو منها إلا بصعوبة كبيرة وفى ٢٨ يوليو وصل إلى (مجونجو) عند مصب نيل فيكتوريا فى بحيرة ألبرت، وكان يحجب مدخل النهر عدة جزر من شجيرات البردى .

وظل غوردون متتبعا مجرى النهر من « مجونجو » إلى فويرا ثمانية أيام متواصلة واضطر أن يسير فى بعض المناطق عشرات الكيلومترات على الأقدام تحت سيل المطر المنهمر ، وبين الأدغال حتى يتتبع بنفسه كل جزء فيه ويستكمل خريطته ، وكان يقطع فى كل يوم مسافة طويلة يضيفها إلى خريطته أولا بأول حتى وصل إلى فويرا فاتضح له أن من فويرا إلى مساقط مارشيزون توجد سلسلة مساقط أخرى يختفى بسببها تدريجيا فرق الألف قدم التى فى منسوب المياه بين فويرا ومجونجو .

وكان النهر صالحا للملاحة بين فويرا وأورندوجنى فقرر إنزال إحدى البواخر للملاحة فى هذه المنطقة ووصل بها إلى مرولى ، وقرر أن يصطحب معه مائة جندى ويرسم خريطة للنهر بين مرولى وبناميوجو وأورندوجنى . أما الجزء الواقع بين أورندوجنى وبحيرة فيكتوريا فقد اضطر أن يؤجل تخطيطه . وكان هذا الجزء هو الوحيد من النهر بين بريرو والبحيرة الذى لم يكن قد خطط خريطته[٣٥] .

ولا يهمنا كثيرا الجزء الذى تركه غوردون ، فقد أشرنا من قبل فى رحلة سبيك أنه تتبع نيل فيكتوريا من أورندوجنى حتى مخرجه من البحيرة ، وهذا هو الجزء الوحيد من النهر الذى تتبعه سبيك فاذا كان غوردون قد اضطر إلى التوقف عند أورندوجنى والعودة من حيث أتى فلا يقلل ذلك من أهمية العمل الذى قام به،

---

(٣٥) عمر طوسون ص ٢٥٧

ويكفى أنه كان أول رحالة يتتبع هذا النهر ، ويقطع الشك باليقين ، ويثبت علميا أن نيل فيكتوريا يدخل بحيرة البرت ولا يسير بمحاذاتها كما كان يعتقد البعض .

وبالرغم من أن غوردون لم يستمر أكثر من عامين ونصف حاكما للمديرية خط الاستواء ، وبالرغم من أن اهتمامه الأول كان منصبا على إقامة سلسلة من المحطات والمراكز ، فلم يحل ذلك دون اهتمامه بالمسائل الجغرافية ، فقد بعث بضابطين إنجليزيين هما واطسون وشبيدل ليقوما بعملية مسح النيل والطواف ببحيرة البرت. ولعلنا نذكر أن بيكر قد أشار فى كتابه (الاسماعيلية) أنه ترك لغوردون مسألة الطواف بالبحيرة حتى تكون البواخر قد تم تركيبها وبذلك يستطيع أن يحسم بعض المسائل الخاصة بروافد البحيرة ومساحتها .

وسافر واطسون وبعد أن سار بضع مراحل رجع إلى دوفيليه وعاد إلى بلاده لسوء حالته الصحية . أما شبيندال فقد تابع سيره فى النيل حتى وصل إلى « وادلاى » وهى أقرب المراكز لبحيرة البرت . وهنا علم أن مرض الجدرى منتشر فخشى على حرسه من الهلاك وعاد أيضا إلى دوفيليه دون أن يتمكن من إنجاز مهمته .

ولما لم ينجز الضابطان الانجليزيان اللذان بعث بهما غوردون مهمة الطواف ببحيرة البرت قرر تكليف « رومولوجيسى » بالقيام بهذه المهمة .

كان جيسى يعمل مهندس بواخر وقد ولد فى القسطنطينية عام ١٨٣١ ثم التحق بخدمة الحكومة المصرية وتولى حكم مديرية بحر الغزال ومنح لقب باشا فى عام ١٨٨٠ . وقد بدأ جيسى بالفعل فى الاستعداد للرحلة وحصل على باخرة ومركبين من الحديد كان بيكر قد استقدمهما منذ سنة إلى غندوكرو ، وكان نقلهما إلى دوفيليه وهى النقطة المزمع الاقلاع منها لا يخلو من صعوبة . فقد اضطر جيسى لإتمام عملية النقل أن يجمع ٧٠٠ رجل من « مكاركا »، وجمع من غندكرو ٣٠٠ من

الحمالين ، وكان الطريق كله محفوظا بالمصاعب وكان عليهم أن يجتازوا جبالا شاهقة وغابات ليس بها مسالك مطروقة ، ولما وصلت الحملة إلى دوفيليه شرعت فى تركيب الباخرة والمركبين . وفى ٧ مارس عام ١٨٧٦ غادر دوفيليه ومعه سفينتين وفى صحبته ١٨ ملاحا من الدناقله و ١٢ جنديا وسار فى النيل إلى بحيرة البرت .

وقد أتم جيسى ارتياد سواحل البحيرة فى ٩ أيام ، فوجد طولها ٢٢٥ ك م وعرضها ٨٠ ك م ولكنه لم يستطع الاقتراب من الضفة الغربية بسبب عداء الأهالى وذكر انه لا يخرج من البحيرة من ناحية الضفة المذكورة أى نهر كما ذكر أيضا أن الماء فى الجزء الجنوبى قرب الغور .

وقد سجل جيسى أنه رأى مصب نهر واسع فى الطرف الجنوبى للبحيرة ، ولكنه لم يتصورا أبدا أن لهذا النهر أهمية جغرافية . ولم تكن المعلومات التى ذكرها جيسى دقيقة فى تفاصيلها . ولم يؤكد وجود نهر السمليكى أو جبال روزورى . ومن الطريف أن جيسى عند ما قدم تقريره إلى غوردون حول اكتشافاته فى بحيرة البرت قال له غوردون : « يا للأسف انك لست إنجليزيا » .

هنرى مورتون ستانلى

(١٨٤١ — ١٩٠٤)

كان اكتشاف سبيك لبحيرة فيكتوريا مثار مناقشات طويلة مات خلالها سبيك ، دون أن يرد على تحدى برتون له وظلت مسألة أهمية بحيرة فيكتوريا معلقة . وظل السؤال الحائر كما هو . . هل بحيرة فيكتوريا واحدة أو مجموعة من المستنقعات والبحيرات الضخمة كما زعم برتون ؟ فقرر ستانلى الطواف ببحيرة فيكتوريا لحسم هذه المسألة . وأحضر معه من إنجلترا لهذا السبب أجزاء

مفككة لزورق مصنوع من خشب الأرز يبلغ طوله ٤٠ قدما وعمقه ٦ أقدام وبدأ رحلته فى نهاية فبراير ١٨٧٤ من جزيرة زنجبار وسار عبر بلاد أنياموبزى فى طريق موازى لذلك الذى سار فيه سبيك ولكن إلى الشمال قليلا حتى وصل إلى الجنوب الشرقى من بحيرة فيكتوريا فى قرية « كاجيهوى » وهناك اختار ١١ من رجاله وطلب منهم إنزال الزورق إلى الماء للتجديف فى البحيرة(٣٦) فأحسوا بخوف ورعب شديدين وقالوا له أنهم يصلحون لأى عمل على البر لا فى الماء لأن الأمواج العالية تخيفهم وتبث الرعب فى نفوسهم ! ! وبعد مجهود استطاع أن يقنعهم بالنزول إلى الماء . وبدأ السير فى البحيرة فى ٨ مارس عام ١٨٧٥ واتجه شرقا ووصلوا إلى خليج سبيك ومنها إلى جزيرة Ukerewe ، وقال سكان الجزيرة أن الطواف حول البحيرة سيستغرق عاما كاملا ، لأن هناك قوما لهم ذيول طويلة يسكنون سواحل البحيرة ، وآخرين يعيشون على أكل لحوم البشر ويفضلونها على لحوم الماشية والماعز .

وقد ضاعفت هذه المعلومات من رعب الرجال المرافقين لستانلى . ولكنه أصر على استكمال المهمة التى بدأها . وقد طاف حول جزيرة « أكيروى » فأكد ما ذكره سبيك من أنها جزيرة وليست شبه جزيرة ، وقد قابل فى طريقه أقصى الروافد التى تغذى البحيرة من الجنوب وهو نهر « شيميو »(٣٧) . ومضى فى طريقه حتى وصل إلى جزيرة يسميها « وانوما » فى الشمال الشرقى وقد طاف حولها ، ووضعها فى خريطته بعيدة عن خليج نابليون ، وبالرجوع إلى الخرائط الحديثة نجد أن هذه الجزيرة مقابلة لخليج نابليون ويذكر الدكتور عوض أن إسمها « بوفوما » .

---

(36) Through the dark est Continent. By Stanley P. 102
(37) Outobiography of Stanley P. 305 by Doeothy Stanley

وبعد أن أمضى ٢٢ يوما فى البحيرة وصل إلى حدود بلاد أوغندا ، وقد بعث الـكاباكا برسله إلى ستانلى عند ما علم بأمر طوافه فى البحيرة على ظهر زورق ، واستقبله فى قصره وأكرم وفادته . وقدقابل « ليدان » مبعوث فوردون إلى بلاد الـكاباكا واستعار منه نظارته المكبرة ، لأن نظارته لم تعـــد صالحة للاستعمال فأعطاها لمقيسا من بين الهدايا التى قدمها إليه . واتفق معه أن ينتظره حتى يطوف ستانلى بالجهة الغربية للبحيرة ويصل إلى مركزه ويعود إليه ليعيد إليه نظارته[٣٨] . وبعد أن ترك جزر Séssé اتجه جنوبا فقابل نهرا إسمه نيل الـكسندرا ، مجراه عميق وعرض المصب ١٥٠ ياردة فحاول الصعود فى هذاالمجرى ولـكن التيار كان شديدا فاضطر أن يتخلى عن هذه الفـكرة بعد أن قطع ثلاثة أميال . ويقول فى ص ١٥٤ : « لا أعرف نهرا يعادله فى الأهمية من بين روافد بحيرة فيكتوريا » والأهالى يعدون هذا النهر بمثابة الأم لنيل فيكتوريا . وبعد ما يقرب من ثلاثة أشهر وصل مرة أخرى إلى معسكره .

وبذلك يكون ستانلى قد أتم الطواف ببحيرة فيكتوريا فلم يترك مجالا للشك فى أهمية اكتشاف سبيك لبحيرة فيكتوريا وقد استطاع أن يحدد بكثير من الدقة جزرها الرئيسية ومجموعة الجزر الصغيرة بها . ولـكنه أخطأ فى تقدير مساحة البحيرة فقد ذكرت زوجته فى كتابها أنه قدر أن مساحتها ٢١٥٠٠ ميلا مربعا[٣٩] وهذا التقدير أقل من الحقيقة فمساحتها فى الواقع ٣٦٨٢٨ ميلا مربعا ، ويبدو أنه وجد سلسلة من الجزر فظن أنها حدود البحيرة فوضع حدودا خطأ للبحيرة . وقد أدرك أن ليس للبحيرة شكل القلب كما كانت ترسم فى الخرائط السابقة .

---

(38) Stanley P. 135

(39) Outobiography of Stanley P. 379

ثم ذهب ستانلى جنوبا إلى بحيرة تنجانيقا بعد أن مر على جبال مفمبيرو . وما يعنينا من استكشافه لبحيرة تنجانيقا وطوافه بها أنه وجد أن لها منفذا واحدا هو نهر « لوكوجا » الذى يقع شرق « اللوالابا » وبذلك تأكد أن ليس لبحيرة تنجانيقا أى صلة ببحيرة البرت .

وبعد أن طاف ستانلى ببحيرة تنجانيقا ـ كما ذكرنا ـ سار فى اتجاه نهر لوكوجا حتى وصل إلى نهر لوالابا ذلك النهر الذى كان قد اكتشفه ليفنجستون واعتقد أنه إما أن يكون منبع النيل أو النيجر أو الكونغو ، فأراد ستانلى أن يحسم هذه المسألة التى ظلت معطلة منذ وفاة ليفنجستون ، فسار فى نهر لوالابا فإذا به يقوده إلى المحيط الأطلسى ، فتبين ستانلى أن نهر اللوالابا ما هو إلا الكونغو وأن ليس له أية علاقة بالنيل .

ثم قام ستانلى بحملة أخرى لانقاذ أمين باشا الذى كان حاكما لمديرية خط الاستواء وانقطعت الاتصالات بينه وبين الحكومة المصرية على أثر قيام الثورة المهدية . وقد قام فى هذه الرحلة بتتبع مجرى نهر السمليكى إلى إلى نقطة خروجه من بحيرة أدوارد فوجد أن هذه البحيرة متصلة بقناة صغيرة متعرجة تسمى كافيررو تمر هذه القناة ووجد أنها متصلة ببحيرة دويرو التى اكتشفها فى عام ١٨٧٦ و بذلك تأكد له أن كلا البحيرتين متصلتان .

وقد سمع ستانلى أن الأهالى يصفون بحيرة البرت ادوارد بأن مياهها احلى من العسل وشذاها أعطر من المسك ولكنه سخر من هذا الوصف وقال أن مياه النهر الميسورى المحملة بالطين لابد أنها أفضل من مياه بحيرة ادوارد[٤٠] .

ولم يوضح ستانلى شكل البحيرة أو مساحتها ، وقد اعترف هو نفسه بذلك وقال أنها فى حاجة إلى حملات علمية أخرى لتقدم ذكرة أصدق وأدق من كل مايتعلق بوضع البحيرة وشكلها ومساحتها .

---

(40) Autobiography of Stanley

جون بتريك

(١٨١٣ — ١٨٨١)

لعل الظروف التى دفعت جون بتريك إلى السفر إلى السودان والقيام برحلته فى حوض بحر الغزال تختلف كثيراً عن ظروف جميع الرواد الذين قدموا فيما بعد فجون بتريك لم يأت القاهرة ليستكشف منابع النيل كما فعل بيكر بعد ذلك ولم يقم باستكشافه أثناء عمله فى خدمة الحكومة المصرية كما فعل غوردون بعده . فقد قدم جون بتريك إلى القاهرة بناء على طلب محمد على ليستفيد من خبراته باعتباره مهندس مناجم ، فغادر إنجلترا فى ٢٥ مارس عام ١٨٤٥ وقابل محمد على الذى كلفه أن يسافر إلى السودان للتنقيب عن الحديد . وقد وصل الخرطوم ومكث هناك أسبوعا ثم ركب زورقا أمده به الحاكم العام فى السودان وسار فى النيل الأبيض ، ومر على عرب الحسانية ثم على كردفان ورأى شجر الصمغ هناك ودهش للارباح التى تحصل عليها حكومة محمد على من وراء تجارة الصمغ ،وقدر أن الربح الصافى يبلغ ٤٤ ألف جنيه .

لذلك ترك باتريك خدمة الحكومة المصرية عقب وفاة محمد على ،وانتهزفرصة الغاء احتكار منتجات السودان ، فأنشأ لنفسه مركزا فى الأبيض للاتجار فى صمغ كردفان وأقام هناك حتى عام ١٨٥٣ . ثم حول نظره إلى تجارة العاج وذلك لأن التجارة الأولى قد تدهورت بسبب زيادة صادرات الصمغ من شواطئ غرب أفريقيا ، وكانت الملاحة والتجارة قد أخذتا طريقهما فى هذا النهر على أثر الحملات

---

(٤٢) Egypt, the Sudan and Central Africa : John Petherick P. 200

(٤٢) بتريك ص ٣٣٦

الكشفية التى قام بها البكباشى المصرى سليم قبطان ١٨٣٩ — ١٨٤١ للكشف عن منابعه .

وقام بتريك بتجهيز حملته ، فأعد بعض أطنان من الخرز والودع « وما شابه ذلك من الأشياء التى يطلبها الزنوج .

وكان عليه بعد ذلك أن يختار أفراد الحملة الذين سيصحبونه، ولم تكن بالمهمة السهلة ، لأنه يريد أشخاصاً يثق بهم لأنه سيمدهم بالأسلحة النارية وسيعلمهم كيفية إستخدامها .

وفى ١٩ نوفمبر عام ١٨٥٣ بدأ رحلته من الخرطوم ، وكانت تضم ١٢ ملاحا ، و ٢٠ رجلا من قبائل العرب ، وإثنين من التراجمة من قبائل الدنكا ، وبدأ السير فى النيل جنوبا ، وكانت التماسيح وأفراس البحر تظهر لهم من كل جهة ، ومرو على عدد من القبائل ، وكان بتريك يقدم لهذه القبائل بعض الخرز فى مقابل ما يحصل عليه من الأغنام . (٤٢)

وفى اليوم الثامن من بدء الرحلة وصلوا إلى مدينة « كاكا » وهى أول مدن قبائل الشلك وأهم المدن جميعا ، فهى المدينة الوحيدة التى يسمح فيها للاجانب أن ينشئوا مراكز للتجارة . وقد قام بتريك بدراسة قبائل الشلك من الناحية الاجتماعية وتعرف على نظام حياتهم وتقاليدهم وعاداتهم ونظمهم الاقتصادية وكذلك درس معظم القبائل التى إتصل بها وتبادل معها التجارة ودون كل ذلك فى كتابين ولن نعرض للنواحى الاجتماعية التى كتب عنها بتريك أثناء رحلتيه الأولى والثانية فان ما يعنينا هنا هو ما قام به من إكتشافات جغرافية أثناء ممارسته لتجارة العاج

---

(٤٣) بتريك ص ٢٤٠

كما يهمنا أن نتتبع رحلته ونتبين المناطق التى إستطاع التوغل فيها وإستكشافها .

واصل بتريك السير فى النهر حتى وصل خط عرض ٩ شمال خط الاستواء ، ثم حل بحر الزراف وتبين أن حجمه لا يزيد عن نصف حجم نهر السوباط وأكد أنه أحد فروع النيل ولكنه لا يتصل به فى الجنوب ، فهو منفصل عنه فى خط عرض ٦ شمال خط الاستواء . والأراضى الواقعة بينه وبين بحر الجبل تسكنها قبائل « بوهر Bohr » وذكر أن هذه المنطقة جزيرة متسمة مغطاة بغابات كثيفة وتعد ملجأ طيبا لانواع الحيوانات المختلفة من الفيلة والزراف والغزال والجاموس والخرتيت [11] .

ثم ساروا بعد ذلك فى قناة ضيقة تقع على ضفتيها النباتات والأعشاب المائية الكثيفة .

ثم إتجهوا إلى مساحة كبيرة من المياه مغطاة بغابات من البوص كانوا يظنون من قبل أنها ليست إلا قناة ضيقة وبذلك تركوا المجرى الرئيسى للنيل وإتجهوا إلى المغرب . وقد وجدوا فى طريقهم روافد عديدة فساروا فى واحدمنها كان يؤدى إلى إحدى البحيرات فتتبعه بتريك بأحد الزوارق الصغيرة فوجده يتجه إلى الغرب بعد نقطة التقائه بالبحيرة بمسافة ميلين ولكنه تبين إستحالة التقدم أكثر من ذلك بسبب النباتات الكثيفة التى تغطى المياه فعادوا من حيث أتوا وواصلوا سيرهم فى إتجاه الجنوب .

وبعد أن ساروا عدة ساعات فى النهر دخلوا مساحة هائلة من المياه تحيط بها النباتات الكثيفة ، وتمتد إلى مدى البصر ، وساروا فى هذه البحيرة طيلة ٦ أيام

---

(٤٤) بتريك ص ٣٦١

دون أن يجدوا منفذا يخرجون منه . ووجدوا أخيرا الجزر التى يعيش عليها بعض الصيادين ، فسألوهم عن الطريق إلى منفذ يخرجون منه فساروا حتى وجدوا أرضا يستطيعون الهبوط فيها وكانت عبارة عن جزيرة تسمى « كيت Kyt » تقع على خط عرض ٨° شمالا

وفجأة هددهم أهلها بالقتل فلم يجد مفرا من العودة. وذهب إلى نهر السوباط وأقام علاقات تجارية مع قبائل الدنكا وأنشأ بعض المراكز التجارية هناك ثم عاد إلى الخرطوم .

وفى أكتوبر عام ١٨٥٤ غادر الخرطوم بعد أن جهز حملة تضم عددا أكبر من الرجال ، وقد صمم فى هذه المرة أن يواصل إستكشافاته فى الداخل ، بعد جزيرة كيت التى عاد منها فى رحلته الأولى ، ووصل فعلا إلى هذه الجزيرة ولكنه لم يجد العداء الذى صادفه فى العام الماضى ، الأمر الذى لم يكن يتوقعه . فقد رحبت به القبيلة التى تقطن هناك فاقام بينهم وحصل على ثقتهم ، وعلم أن السكان الذين ظهروا له فى العام الماضى ليسوا من أهل هذه الجزيرة وإنما فريق من قبائل النوير .

ومكث بينهم فترة من الوقت أرسل خلالها بعض رجاله إلى القبائل المجاورة بحثا عن العاج ؛ ولكنهم كانوا يذهبون ولا يعودون إليه وكان رجاله يتركونه واحدا بعد الآخر . فبعث فى طلب بعض الرجال والمؤونة . وقد اضطر أن يستعين بالحمير لحمل ما لديه من أمتعه وخرز . ولكنه استطاع بفضل بعض رجاله المخلصين أن يحصل على كميات من العاج وعاد فى إبريل عام ١٨٥٥ إلى الخرطوم .(٤٥)

---

(٤٥) بتريك

(٤٦) بتريك ص ٣٦٠

وفى نوفبر من نفس العام قرر أن يقوم برحلة أخرى مزمعا التوغل أ كثر إلى الجنوب وسار فى النيل حتى وصل إلى نقطة التقائه ببحر الغزال ، ولم يكن لدى بتريك أجهزة للرصد وإنما كان يعتمد على الملاحظات والمذكرات التى يرصدها من تغيرات دفة المركب والافتراضات التى جاءت فى بيان « أرنو Arnaud » من أن مصب البحيرة يقع فى ١١،٩° شمالا .

وقد وصل إلى جزيرة كيت وتوقف هناك . وأراد أن يواصل السير جنوبا فاصطحب معه ٤٠ رجلا من العرب المسلحين واثنين من البغال. وساروا متجهين إلى نهر « جور Djour » وهو أحد الروافد الهامة لبحر الغزال ، فعبروا منطقة مستنقعات فى الجنوب ، ثم مجرى صغيرا لأحد روافد البحيرة (بحر الغزال) حتى وصلوا إلى بلاد « جور » وقد استقبلهم الأهالى هناك بالهتافات المرحة . ووجدهم يشبهون أهالى المناطق التى مر عليها ابتداء من جزيرة كيت إلى بلاد جور. وأنهم ينتمون فى الأصل إلى قبيلة « الدنـكا » . وقد وجد لديهم كثيرا من الأغنام والماعز ، وأدهشه أنهم لا يستعملون الملح ولا يعرفونه .

واتجه من جور إلى بلاد « جوا Djua » التى تقع على خط عرض ٦° شمالا فأتم صفقة رابحة مع قبائل « دور Dor » التى تسكن هناك . فقد حصل على كل ما لديهم من العاج مقابل بعض مما لديه من الخرز .

ولم يسلم بتريك ورجاله من عدوان الأهالى ، فقد سجن بعض رجاله لدى قبائل « دور » وتعرض هو نفسه لبعض محاولات الاعتداء عليه ولكنه نجا منها ، وعاد مرة أخرى إلى الخرطوم .

وفى ديسمبر من نفس عام ١٨٥٦ ، بدأ رحلته من جديد وقد ضاعف عدد أفراد الحملة . وكان غرضه فى هذه المرة أيضاً فتح أراضى جديدة فى الجنوب. فوصل

فى هذه المرة أيضاً فتح أراض جديدة فى الجنوب . فوصل إلى مركزه فى «جور» واستطاع أن يسوى الخلافات القائمة بين رجاله وبين قبائل « دور » وواصل السير حتى وصل إلى قرى « كركور Kurkur » ومنها إلى قبائل « مورا » وقد أخبره رئيس القبيلة هناك أن بلاده تمد آخر منطقة فى العالم ، وأنه لم يسمع عن وجود أهالى يسكنون فى جهات أبعد من ذلك . ولكن بتريك لم يصغ إلى كلامه ومضى فى طريقه إلى الجنوب وقام بجولة جهة الشرق مر فيها على بعض القرى فاستقبلوه استقبالا حاراً وحصل منهم على العاج الذى يريده ، وفى أثناء ذلك كان رجاله يقومون بجمع العاج من مناطق أخرى متفرقة .

وقد واصلوا الطريق فى الجهة المقابلة لشاطىء النهر الذى عبروه حتى وصلوا إلى « جوتو Gootoo » ، ومروا على عدد من القرى بعد ذلك وكان الأهالى يحذرون بتريك ورجاله من التوغل إلى الجنوب حيث تقع قبيلة نيام نيام . وقد جاء فى رواياتهم له أن هذه القبيلة كثيراً ما تعتدى عليهم ، وتأكل كل من يقع فريسة تحت يديها . ولكن كل ذلك لم يثنه عن عزمه فى مواصلة الطريق . وحاول أن يستميل بعض الأهالى لمصاحبته إلى هناك ، وأغراهم ببعض الهدايا ، فذهب معه البعض بصفة حمالين . وعندما بدت فى الأفق قرية « موندو Mundo » وهى أول قرية لقبائل نيام نيام ، ألقوا بما يحملون وفروا هاربين ، ولم تنجح كل المحاولات التى بذلت لإعادتهم ، فاضطر من بقى معه من الرجال أن يحملوا ما ألقى به الحمالون وساروا إلى القرية . وعندما تنبه الأهالى لقدومهم ، دقوا الطبول وتجمعوا نحوهم يحملون السهام والدروع استعداداً للحرب .

وتقدم بتريك ورجاله بهدوء حتى وصلوا القرية ، وقد دهش أفراد القبيلة المظهر الهادىء الذى بدا على هؤلاء الأغراب واقتربوا منهم حاملين سهامهم والتفوا حولهم وأخذوا يتصايحون بلغة لم يفهمها أحد ولكن بتريك ورجاله

أظهروا رباطة جأش وهدوء غريبين ، ذلك أنهم كانوا على ثقة من أن السلاح الذى يحملونه له تأثير حاسم من أول بادرة خطر (٤٧) .

وقد أراد بتريك أن يهددهم هو الآخر ويستخدم نفس الأسلوب ، فلوح لهم بما يحمله من أسلحة نارية وبنادق وأفهمهم عن طريق التراجمة أنه إذا لم يكن يحمل دروعاً وأسهم مثلهم إلا أن قطعة الخشب التى تنتهى بقضيب من الحديد (البندقية) هى السلاح القوى الذى يفوق كل ما لديهم من أسلحة . ولكن رئيسهم لم يبد عليه الاقتناع وفى هذه الأثناء مر أحد الفيلة من بعيد ، فطلب منه الرئيس أن يثبت صدق كلامه ويصيد هذا الفيل أمامهم ، وأكد له أنه إذا فعل ذلك فسيحترمه ويثق فيه .

وعلى الفور أطلق بتريك بضعة رصاصات على الفيل أردته قتيلا ، وكانت مفاجأة مذهلة لأفراد القبيلة ، حتى أن بعضهم ولى هارباً ليختبىء فى بيته والبعض الآخر سقط على الأرض مغشياً عليه .

وكان لهذا الصيد تأثيره السحرى فيهم ، فما لبثوا أن انقلبوا أصدقاء له ، فأقام بتريك بينهم منتظراً انتهاء موسم المطر . لأن الأهالى فى تلك المنطقة لم يكونوا يملكون العاج الذى يبحث عنه ، ومن ثم كان عليه أن ينتظر الفيلة التى تظهر على أثر هطول الأمطار .

وفى ١٣ فبراير هطلت الأمطار ولكنها لم تستغرق أكثر من ٥ دقائق وبالرغم من ذلك فقد دق الأهالى الطبول ورقصوا وتصايحوا فرحين بالمطر . لأنه بشير بقدوم الفيلة التى أصبحت أنيابها لأول مرة مصدراً للثروة . وعلى أثر هطول هذا المطر الخفيف قدم قطيع يبلغ عدده ١٨ فيلا دفعة واحدة ، واشتركت

---

(٤٧) بتريك ص ٤٠٨ .

القبيلة كلها في صيده وانتزاع أنيابها ، واستغرقت العملية منهم يومين ، وبعد كل هذا الجهد الذى بذلوه من أجل الحصول على سن الفيل ، قدموه إلى بتريك مقابل بعض ما لديه من الخرز (٤٨) .

وبعد أن أتم بتريك هذه الصفقة الرابحة غادر موندو وهى آخر نقطة وصل إليها فى رحلته ، وفى العودة لم يسلك نفس الطريق الذى قدم منه فقد مر على كانجامبو وبعض القرى المجاورة ووجد بعض رجاله هناك يجمعون له العاج فقام بجولة نصف دائرية ، وعاد إلى محطته فى « لونجو » .

وغادر بتريك الخرطوم فى ٣١ مارس ، وبعد شهرين وصل إلى القاهرة ومنها إلى انجلترا فوصلها فى يوليو عام ١٨٥٩ .

وقد نشر بتريك كتاباً عن رحلته فى السودان عام ١٨٦١ تحت عنوان :

Egypt, the Sudan and Central Africa

ثم تقرر تعيينه قنصلا لبريطانيا فى أواسط أفريقيا . فكلفته الجمعية الجغرافية أن يقابل سبيك وجرانت فى مناطق خط الاستواء ليمدهم بالزوارق فى غندكرو ويساعدهم فى طريق عودتهم إلى الخرطوم باعتباره ملماً بأحوال هذه المناطق .

وقد وصل إلى الخرطوم وسار فى النيل الأبيض ثم قام برحلة تجارية إلى كردفان ، فلم يتمكن من تقديم المونة اللازمة لسبيك ، وعلى أثر ذلك أعفته الحكومة الانجليزية من منصبه ، فاضطر إلى مغادرة البلاد فى عام ١٨٦٥ بعد أن قضى فيها حوالى ١٦ عاما (٤٩) .

عايدة ثابت

---

(٤٨) بتريك ص ٤٧٠ .

(٤٩) جون بتريك — دكتور نسيم مقار .

المراجـــــع

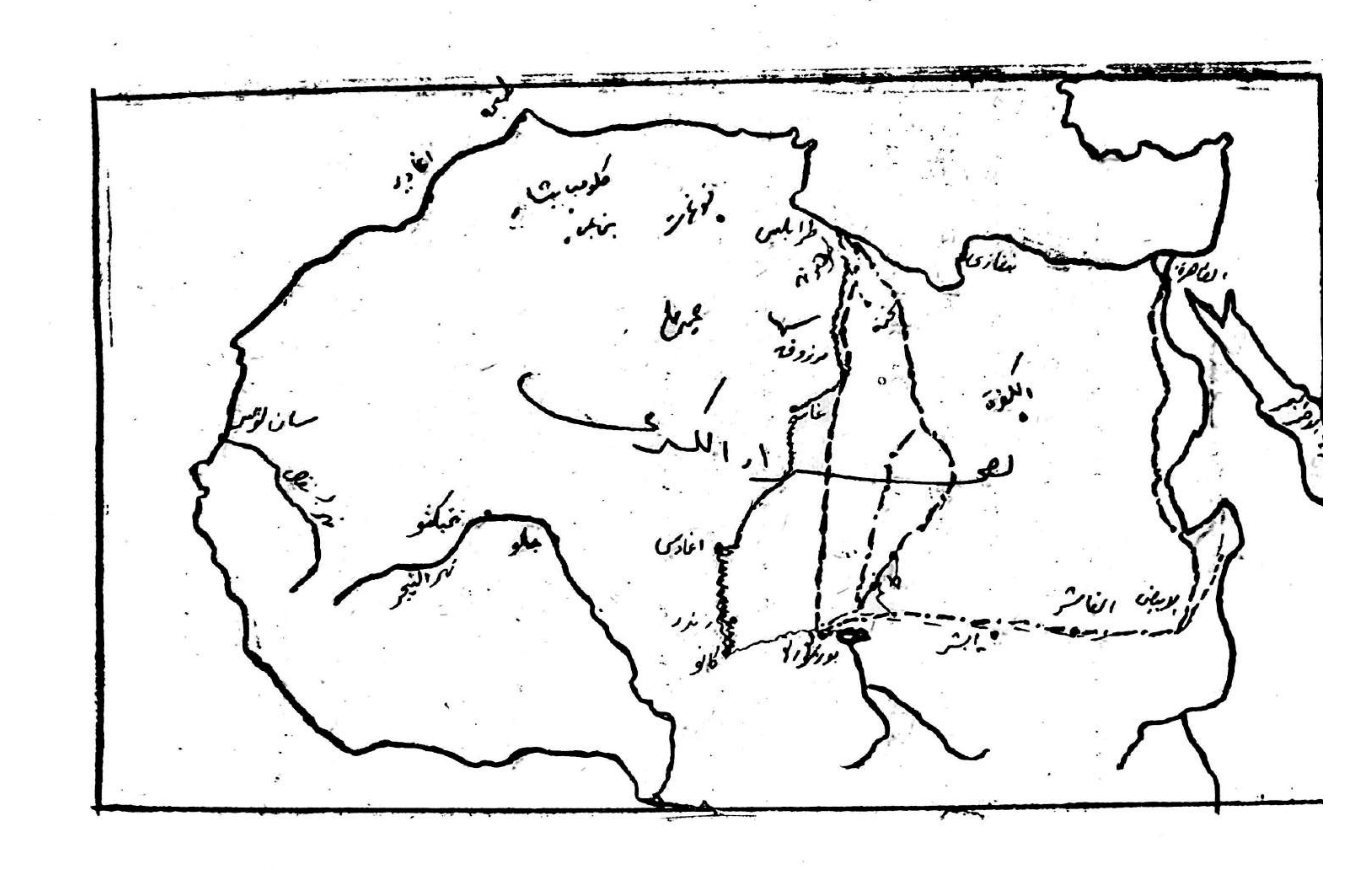
عمر طوسون   تاريخ مديرية خط الاستواء

محمد عوض محمد   نهر النيل

نسيم مقار   سليم قبطان

جون بازيك

Alen Morhead ; The White Nile
Burton : Voyage aux Grandes Lacs
Delo Ronciere , Decouverte de l'Afriqueau Moyen Age.
H. Stanley , Through the Darkest Continent.
Johnstone , Nile Quest
Patrick , Egypt. Sudan and Central Africa
Perham , M. , African Discovery.
Samuel Baker , Ismailia,
Speake ; Journals of the Discovery of the Sources of the Nile.
Encyclopedia Britannica.


اغادير
طرابلس
بنغازي
القاهرة
الكفرة
اغادس
تمبكتو
نهر النيجر
سان لويس
غات
كانو

كشف الصحراء

الجزء الصحراوى من أفريقيا الذى يعرف الآن باسم الصحراء الكبرى أطلق عليه القدماء أسماء كثيرة فقد عرف باسم ليبيا فى القرن الثانى الميلادى كما ذكر بطليموس الجغرافى ثم أطلق عليه أرض الصحراء فى كتابات عبد الحكم والادريسى فى القرنين التاسع والثانى عشر الميلادى ثم عادت تسمية ليبيا إلى الظهور فى عهد متقدم إلى أن استقرت اخيرا على تسمية الصحراء بالكبرى فى كتابات المحدثين .

وسطح الصحراء الكبرى يبين لنا طبيعة تكوينها الجيولوجى فتغلب عليه الهضاب التى تعرضت لعوامل التعرية العنيفة وتكثر به الجبال المنعزلة وسط المنخفضات وبعض السلاسل الجبليه فى الصحراء وهى نتيجة لحركات كبرى قديمـــة .

وأشهر تضاريس الصحراء الكبرى جبال أطلس وكتلة الحجارة وهضبة تيدميت ومنخفض فزان وبخاصة منطقة مرزوق كما يمتاز الجزء الغربى من الصحراء بقلة ارتفاعه وندرة جباله وكثرة الكثبان الرملية .

ومناخ الصحراء الكبرى جاف يمتاز بالبساطة ويحول امتداد سلاسل جبال اطلس بين الرياح المطيرة التى تأتى من البحر الأبيض المتوسط وبين الداخل الصحراوى وفى بعض ارجائها يكون شىء من النضرة والخضرة ولكن هذا لايرجع إلى غزارة الأمطار بل إلى قدرة الأرض على الإحتفاظ بالماء على مستوى قريب لعدم مسامية الطبقات .

وعلى العموم يعتبر اجتياز الصحراء الكبرى من المشاق نظرا أولا لندرة المياه وثانيا لاطراد التضاريس المتشابهة فيها وإملالها .

وتمثل الواحات قطاعا ضئيلا فى موارد الحياة لسكان الصحراء فهى تغل البلح كما أن هناك بعض الصمغ فى جنوب أوراس فى موريتانيا والملح فى شمالها أما زراعه الشعير فى الواحات فإنها نادرة بحيث لا تفى بحاجات السكان .

وفى القديم كانت الصحراء أكثر خصوبة أكثر سكانا نسبيا وفى الأزمنة البعيدة جاء إلى الساحل الشمالى الغربى لأفريقيا قوم بدائيون ممن كانوا يقطنون حوض البحر الأبيض المتوسط وقرنا بعد قرن عندما أصبحت جافة وقلت الأمطار وجفت الأنهار التى تخترق وديانها تراجع السكان إلى الأماكن التى يتوافر فيها الخصب فى الصحراء .

ومن القبائل التى تقطن الصحراء الطوارق والتيبو .

ويتوطن التيبو حول هضبة تبستى وينتشرون فى جميع ارجاء الصحراء الكبرى فى الشرق وكان مركزهم فى القديم واحة الكفرة .

والتيبو الشماليون من أصل نقى من البربر أما التيبو الجنوبيون فقد امتزجت دماؤهم بالتزاوج مع الأجناس شبه الزنجية الموجودة فى أطراف الصحراء الكبرى وديانة التيبو الاسلام وإن لم يكن الدين عندهم كاملا بل مازالت تشوبه بعض مظاهر الوثنية القديمة . والتيبو شعب من الرعاة وهم لا يحبون الطوراق وهى القبيلة الكبرى فى الصحراء فكانت قوافل التيبو لا تستطيع إلى القرن الماضى أن تدخل إلى أرض الطوارق.

والطوارق من أكبر قبائل الصحراء وهم من شعوب البربر ومن عاداتهم

أن يضعوا أسفل عيونهم لثاما يغطى الأنف والفم ولا يبين منه سوى العينان لذلك لقبوا بالملثمين ويسكنون المنطقة ما بين الساحل الشمالى لأفريقيا إلى تمبكتو ومن فزان إلى قرب بحيرة تشاد وينقسمون إلى عدة بطون رئيسية هى :

طوارق آير The poeople of Air وطوارق الأحجار وطوارق عسكر Asger وغيرهم من طوارق النيجر الذين يسمون طوارق علم ميدان .

والطوارق من رعاة الأبل والماعز وهم معتدون بأنفسهم اعتدادا شديدا وهم مشهورون بالفروسية والشجاعة يدينون بالاسلام من عاداتهم عامة الزواج بأكثر من واحدة كما أن الطوارق هى القبيلة الوحيدة فى صحراء أفريقية التى تتكلم لغة خاصة بها وتكتبها بكتابة خاصة بها تشبه الاختزال .

وكشف الصحراء يواجه صعوبات عدة منها صعوبات بشرية وصعوبات طبيعية . أما الصعوبات الطبيعية فأولها مايقابله الرحالة من ندرة الماء الذى هو عنصر ضرورى من عناصر الحياة اليومية للانسان . وتتركز الحياة فى الصحراء حول الآبار والعيون حيث تقوم الواحات والمساحات القليلة الصالحة للزراعة الفقيرة أو للرعى

ويمثل الماء الجزء الأكبر من حمولة القوافل عبر الصحراء ودونه تهلك الأحياء ومن أكبر المصائب أن يشرد جمل يحمل مياه أو تنفجر قربة .

ومن المصائب الطبيعية أيضا احتمال الضلال فى الصحراء وسط متاهات الكثبان الرملية المتشابهة أو المعالم المطردة التى تلتبس على السائر ..أو أن يضل الطريق

بليل فإذا كان الصباح لم يعرف أين هو .

والعواصف الرملية الشديدة هى أحدى المصاعب الجمة من الطبيعة الثائرة فى الصحراء كما يقول دنهام فى كتابه رحلات فى أفريقيا .

أما المصاعب البشرية فهى وجود مجال القافلة وتجهيزها للرحيل فمن الشاق أن يتوفر للراحل فى الصحراء كل شىء بيسر ودون تعب فإذا توفر له الرجال لم يكتمل له عدد الدواب فإذا توفرت هذه فقد يترك الدليل القافلة أو يتدخل بعض أفراد القافلة باستشارة النجوم والطوالع قبل الرحيل كما أن هناك أيضا الخوف من بعض الأماكن غير المطروقة التى يستولى على المحليين منها الرعب لكثرة الأقاويل والأساطير المروية عنها .

فإذا جهزت القافلة وسارت ميمونة الطالع مباركة الرحيل فليس من المستبعد أن تتعرض فى الطريق لغارات قطاع الطرق الذين يوجدون فى بعض الأنحاء وقد لا يكون بغيتهم السلب والنهب بل قد يكونون من القبائل التى لا تأمن الغرباء مهما كانوا فى نفس المنطقة وعلى أى الأحوال فالتقاء قافلتين أو أى جماعتين من الناس على درب فى الصحراء يكون دائما وأبدا لقاء ريبة وتوجس حتى يستأمنوا ويسلموا .

والقبائل فى الصحراء قد تكون قبائل تعمل على إبقاء الغرباء بعيدا عن مناطقها فلا يتيسر لأى أن يصل بين مكان ومكان كما كان حال الطوارق فى غدامس Ghadames أو أن تكون قبائل إيجابية فتقوم هى نفسها بالتجارة والاتصال بالأقاليم المختلفة على أطراف الصحراء ثم بالتالى يكون رجالها قوام قوافل التجارة والكشف فى داخل الصحراء .

ومن المصاعب البشرية التى تواجه الرحالة — وهو عادة غريب عن المنطقة التى أتى

إليها بسبب الكشف — المرض وهو يعتبر من أهم المصاعب ، فنصف الرحالة الذين أتوا إلى أفريقيا أتوا مرضى ونذكر منهم على سبيل المثال الدكتور أودنى ومستر ريتشى وكلابرتون .

ويقول دنهام فى معرض الحديث عن مصاعب الارتحال فى الصحراء (لا يستطيع أى مسافر فى أفريقيا أن يقول أنه لا يتحمل هذا ولا يطيق ذاك فمن المدهش أن تعرف عندئذ كيف يتلاءم ذوق الرجل مع حاجته فى مثل هذه الظروف . . فمنذ أشهر قليلة كنت لا أحتمل فكرة شرب حليب النوق أما اليوم فى الصحراء فإنى أعتقد أنه من أكثر المرطبات نعمة . . .)

والرحالة اليوم فى العصور الحديثة يتمتعون بتسهيلات ومزايا لم يكن يتخيل واحد من الرحالة فى الأزمنة القديمة إنه واصل إليها . . وسنعرض فيما يلى لبعض الرحلات التى تمت فى الصحراء الكبرى عبر مختلف الأزمنه قبل القرن التاسع عشر .

لاشك أن الرومان كان لهم فى عصورهم المتأخرة إتصال كبير بالصحراء الإفريقيه الكبرى فنجد فى غرزه Ghirga على بعد ١٧٥ ميلا من جنوب شرق طرابلس مزارعين من أصل رومانى ويحتمل أنهم كانوا محاربين ومما لاشك فيه أنهم قد عبروا الصحراء منذ نحو ألف سنة إلى السودان[١] .

كما وجد دكتور أودنى فى بلدة جرما Germa فى شرق مرزوق Marzuk . مبنى وبالذهاب إليه تبين إنه على طراز غير طراز بقيه منازل المنطقة[٢] وأرتفاعه

---

(1) Brigge . Triles of the Solora — P. 35

(2) Norratiueol Trauels and di° Coucris tin Nocthern and Central Afirca U . I — P. Iix

حوالى ١٢ قدماً — ويقول الدكتور أدونى أنه أثر قديم أقامه الرومان .

وفى الحقيقة أنه وأن لم يكن لدينا معلومات ثابتة عن هذه الرحلات الرومانية عبر الصحراء الإفريقيه الكبرى إلا أنه من الواضح أنها كانت لجلب خيرات الجنوب من العبيد والذهب والعاج . . .

ومن أهم الرحلات التى كشفت بها مناطق الصحراء الكبرى بل وشمال أفريقيا على العموم الرحلات التى قام بها الرحالة العرب بعد نزولهم فى شمال أفريقيا ، ونظرة واحدة إلى خريطة الأدريسى تبين لنا أن معالم الصحراء كلها من دار فور وكرد ووادای وكانو التى أصبحت مدناً إسلامية كلها كانت معروفة للعرب دخلوها وعمروها وأقاموا فيها نظمهم ونشروا فيها دينهم .

وأشهر الرحالة العرب فى منطقة الصحراء الكبرى هو ابن بطوطه الذى سنقصر كلامنا فى هذا البحث على عجالة قصيرة لرحلاته فى صحراء أفريقيا . .

بدأت رحلة ابن بطوطة فى الصحراء الافريقيه الكبرى من ميناء سبته لكنها فى الحقيقه قطعت بزيارته لوالى فاس حيث أقام عنده ثم استاذنه فى الرحيل إلى سجلماسه التى وصلها فى فبراير سنة ١٣٥٢ م وفى تافيلا عزم على عبور الصحراء فاشترى جمالا ومؤونة تكفيه لأربعة أشهر ثم شد الرحال إلى تغزه التى وصلها بعد مسيرة خمسة وعشرين يوماً ويقول ابن بطوطه أنه قد وجد المساكن والمساجد فى تغزة مبنية من حجارة الملح ثم غادرها فى مسيرة عشرة أيام فى صحراء قاحلة فوصل إلى أيوالاتان وهى فى حسبانه أقصى بلاد السودان وغادر ابن بطوطة أيوالاتان فى طريقه إلى مالى ولاحظ للمرة الأولى تخزين الماء فى أشجار الباوبات وعندما وصل إلى نهر النيجر عند كارشا كو أسماه النيل كما قال عنه « أنه يجرى من

هناك حتى كابارا ثم زاغا ثم بعرج إلى تمبكتو ثم جاو جاو . ولا يستطيع أى رجل أبيض أن يذهب إلى هناك لأنه قد يقتل قبل وصوله [٣] .

وبعد أن أقام ابن بطوطة فى مالى ثمانية أشهر وكان ذلك فى فبراير سنة ١٣٥٣ ووصف أحوالها وحاكمها ونسائه والحياة هناك كما وصف أفراس النهر فى النيجر وقد حسبها قطيعاً من الفيلة رحل إلى تمبكتو ثم غادرها فى قارب صعد به فى النيجر إلى جاوجاو التى أعد فيها العدة لاختراق الصحراء إلى مدينة تجده أكبر معاقل قبيلة الطوراق وعند وصوله إليها جاءته رسالة من سلطان مراكش يستدعيه فيها إليه فغادر تجده مارا بآير وهاجار إلى سجلماسه مرة أخرى ومنها إلى فاس * .

أما الرحالة الأوربيين الذين عرف عنهم أنهم اجتازوا الصحراء الكبرى فكثيرون منهم فرنسى من مدينة تولوز Toulose يدعى نسلم دبزالجيى Anslem-D'Iasolguiers غادر فرنسا عام ١٤٠٢ م وارتحل إلى النيجر حيث تزوج فى صنغاى أميرة من أميرات جاو وعاد معها إلى الشمال مخترقا الصحراء الكبرى تصحبهم إبنتهم الصغيرة وستة من العبيد . . . ووصلوا إلى الشاطىء حيث أبحروا إلى تولوز فوصلوها سنة ١٤١٣ وقد اشتهر واحد من العبيد الستة الذين صحبوا انسلم بأنه يحترف الطب وهو ابن على [٤] وقد عالج ولى عهد فرنسا فى ذلك الحين وشفاه فنالته من ذلك شهرة عظيمة .

---

* أنظر مقال جهود الرواد العرب فى كشف أفريقيا .

(3) Syhes , A History of ExplorationP. 95

(4) Briggs, Tirles of The Seclora P, 43

ولم تنل قارة افريقيا نصيبا من الاهتمام لدى العالم ولدى دول أوروبا خاصة كهذا الاهتمام الذى لقيته خلال القرن التاسع عشر والذى تركز عليها حتى انتهى فى منتصف القرن وأواخره إلى احتلال القارة واستعمارها لقد كانت هناك رحلات للكشف فى القرون السابقة وخاصة فى القرن الرابع عشر وكانت هناك محطات بحرية ومراكز اجنبية انشئت على سواحل افريقيا . وكانت هناك بعض الحاميات العسكرية لكن هذه المراكز وهذه المحطات لم تكن الا من اجل الوصول إلى الهند . وظلت هذه المحطات مهمله زمنا طويلا تعمل فى تجارة العاج أو فى تجارة الرقيق .

وبمناسبة الحديث عن الرقيق فان واحدا من أهم أسباب الالتفات إلى افريقيا فى القرن التاسع عشر هو احتياج اصحاب المزارع الكبيرة التى تنتج القصب والقطن والمطاط فى أمريكا إلى الأيدى العاملة التى تستورد من السواحل المقابلة من القارة الأفريقية .

ويتميز القرن التاسع عشر بان سياسة رحلات الكشف التى تمت خلاله فى أفريقيا اوعلى الاصح تتميز سياسة الكشف ثم الاستعمار فى هذا القرن بأنها كانت سياسة تكتلات فلم تكن الرحلات فردية لصالح الكشف العلمى وحده أو المغامرة أو التجاوة كرحلات ماركوبولو أو ابن بطوطة بل أن الجمعيات والهيئات العلمية كانت ترسل رحلات لكشف مناطق القارة وتكون التقارير المكتوبة وسيلة إلى تملك الأرض واستغلالها ثم السيطرة على الاهالى فكانت هناك الجمعية البريطانية وكانت هناك الهيئة الدولية الافريقية فى بروكسل . وهذه الهيئة لها غرض أساسى هو القيام بعمليات الكشف فى افريقيا على اساس دولى لكن هذا الغرض لم يلبث أن اختفى وأخذت كل لجنة فى كل دولة تعمل على أساس المصلحة الإقليمية

وانا لنجد أن أسماء كبار المستكشفين فى افريقيا مرتبطة بهذه الأغراض

الاستعمارية مثل برازا الذى ارتاد حوض نهر أجوا فهو ضابط فرنسى ارسلته فرنسا فى بعثتين فى ١٨٧٥ ، ١٨٨٠ كما نجد أن الدكتور جوستاف ناختجال الذى اجتاز الصحراء والذى أعلن قيام محمية توجو لاند والذى كان قنصلا لبلاده فى غرب أفريقيا هو أيضا ضابط فى الجيش الألمانى .

هذه مقدمـة لابد منهـا كى نعرف لأى الظروف والأسباب كانت حركة كشف افريقيا فى القرن التاسع عشر حركة غزيرة المادة سريعة النتائج متعددة الأسباب .

وسنتعرض فى هذا البحث لبعض هذه الرحلات باختصار ومع الأمل فى الاستطاعة الاحاطة بها .

رحلة ريتشى وكابتن ليون

بدأت هذه الرحلة من مدينة طرابلس بعد أن جهزتها الحكومة البريطانية لاجتياز منطقة الصحراء الكبرى وقد تولى رآسة الرحلة ريتشى ومعه الكابتن البحرى ليون وآخريد عى جون بلفورد .

ولم تتمد هذه الرحلة حدود مرزوق حيث أصيب الثلاثة فور وصولهم اليها بالحمى وفى مرزوق مات ريتشى فحل محله فى رأسة الرحلة الكابتن ليون الذى وجد من المستحيل التقدم فى الصحراء اكثر من ذلك فقرر الرجوع إلى طرابلس وعاد مخترقا نفس مراحل طريق الذهاب فوصل إلى طرابلس فى ربيع عام ١٩٢٠ .

والنفع الوحيد الذى حققه هذه الرحلة هو التقرير الذى كتبه الكابتن ليون عن الحياة فى هذه المنطقة من غرب ليبيا وتعرض فيه للتقاليد الاجتماعية

والحياة اليومية للسكان وهو التقرير الذى علق عليه فيما بعد ديكسون دينهام في رحلته التالية لرحلة كابتن ليون .

رحلة دنهام وكلابرتون وأودنى (١٨٢٢)

أوفدت الحكومة البريطانية هذه الرحلة أيضا تكملة لرحلة ريتشى وزملائه واشترك فى هذه الرحلة الجديدة الدكتور والتر أودنى Dr Wcltes Owdney كما أبدى Hwgu Claperton الرغبة فى مرافقتهم وانضم اليهم أيضا الميجور ديكسون دنهام Major Dixon Derham ثم من يدعى وليم هيلمان .

وقد غادر كلابرتون أودنى انجلترا ولحق بها دنهام فى طرابلس حيث قامت الرحلة فى الخامس من مارس سنة ١٨٢٢ ومنها إلى بنى وليد وبعد أربعة عشر يوما وصلت القافلة إلى مدينة السخنة فى منتصف الطريق بين طرابلس إلى مرزوق فاستقبلهم اهلها بحرارة وبعد أن استراحوا فيها رحلوا إلى مرزوق حيث قابلتهم فى الطريق عاصفة عاتية فاختفى مرأى الجبال وملأت ذراتها الجوثم وصلوا اخيرا إلى مرزوق ودعاهم شيخ البلد باسم السلطان لمرافقته واستضافهم فى المنزل الذى كان يقيم به ريتشى قبل وفاته وكانت مقابلة سلطان مرزوق لأفراد القافلة غير مشجعة لأنه اخبرهم بأنه سيسافر إلى طرابلس للعلاج وعليهم أن ينتظروه وحينما سافر لم يجد أودنى ورفقاؤه جملا واحدا يصلح لاستئناف الرحلة إلى بورنو فقرر أن يسافر دنهام إلى طرابلس فغادر مرزوق فى صباح الأثنين ٢٠ مايو سنة ٢٢ ووصل إلى طرابلس فى ١٢ سنة ٢٢ يونيو حيث استقباله القنصل الإنجليزى وصحبه إلى والى طرابلس ومع ذلك فلم يستطيع دنهام أن يصل مع الوالى إلى حل وعندئذ هدده بالسفر إلى انجلترا ورفع شكوى للحكومة البريطانية وفعلا ابحر إلى مرسيليا فى طريقه لانجلترا وهناك أرسل له الوالى يطلب منه العودة ويعده بأن تصحبه قافلة على راسها بوخالوم Boo Khaloom إلى بورنو فسارع دنهام بالعودة إلى أفريقيا .

وفى هذه المرة قامت الرحلة من طرابلس إلى ملجراد Melghra فى جبال طرهونة إلى السخنة ثم إلى اجوتيفا Aguila حيث يقول دنهام أنه قد مر بهذا المكان لثالث مرة لكنه لا يحس أبدا بالفة للمكان » ثم اجتاروا هذه المنطقة إلى زغرن Zaghren ويقول عنها أنها من أحسن مدن فزان وبها متاجر آتية من السودان . ثم إلى سبها Sebha ومنها إلى مرزوق ووجد دنهام أن رفاقه قد قاموا برحلة قصيرة إلى منطقة غرات Gharat فى المدة التى غابها عنهم وقد عادوا منها وهم مرضى وقد حكوا مدى ماعاناه كابتن ليون ومستر ريتشى من مرض وقسوة انتهت بالموت من جراء الجو الصحروای القاسى فى هذه المنطقة .

وقامت القافلة من مروزق فى نوفمبر سنة ١٨٢٢ فى الطريق إلى بورنو مارة بما يفن Maefen حيث الطريق مزيج من الملح والرمل . كان كلابرتون واودنى فى غاية المرض . . ووصلوا بعد ذلك إلى تغرى Tegerhy ثم بئر أوما . Omah

وفى أول يناير سنة ١٨٢٣ وصلوا وادى أكبر Ikbler ثم بيلما Bilme عاصمة قبائل التيبو ومقر سلطانهم ثم أغاديم Aghadem وفى الثالث من فبراير سنة ١٨٢٣ وصلوا إلى إقليم غنى بالمزروعات وكانوا يقتربون من بلدة المتمه Mittimee ومنها إلى لارى ثم إلى بحيرة تشاد فكانوا أول أوروبيين يروها ويكتبون عن مظاهر الحياة لقبائل الزنج التى تختلف عن مظاهر الحياة فى الصحراء وانقسمت الرحلة قسمين فسار دنهام إلى الجنوب الشرقى إلى نهر شارى أما كلابرتون وأودنى فقد ذهبا إلى النيجر برفقة تاجر من فزان أسمه محمد الوردى ومات دكتور أودنى فى مرمر Murmur فى يناير سنة ١٨٢٤ بينما ذهب كلابرتون إلى كانو .

---

(٦) نفس المرجع

(5) Margery Perhami Africen Discovery P. 87

أما عن نتائج رحلة دنهام فقد أضافت من الناحية الجغرافية معلومات جديدة عن خطوط الطول والعرض ومواقع الأمكنة فى مساحات كبيرة عن التى أضافتها رحلة الكابتن ليون فقد أضافت هذه الرحلة معلومات عن ٩٠٠ كيلومترا مربعا جنوبا من تغرى Tegerhy و ٥٠٠ كيلو مترا مربعا عن شرق سا كاتو Sekato بواقع حوالى ١١½ درجة طويلة . .

ومن الناحية التاريخية روى دنهام لقاءه مع المماليك الهاربين من حكم محمد على فى مصر فقال[٧] .

(فى يوم ٢٠ أكتوبر التقيت قريبا من مدينة تمهنت Temenhint بقافلة آتية من مرزوق وبينها مماليك آتون من دارفور وواداى . وقد زرتهم برفقة بوحالوم ومنهم اثنان من البكوات محمد بك وهو أصغرهم ويتكلم بحماس والآخر هو على بك وهو يبدو فى حوالى الستين متأثرا جدا من مصيبته وقالوا أنهم كانوا قد غادروا القاهرة منذ حوالى خمسة عشر عاما وأمضوا مدة طويلة فى دنقلة حتى إذا اقترب منها عسكر محمد على هربوا إلى دارفور ثم إلى واداى وارتحل ستة وعشرون مملوكا إلى الصحراء الكبرى يقصدون فزان ولكن حدث أن أكل أحد جمال المماليك بلحا من نخلة فزانى ، فقتل الفزانى قائد الجمل وعندئذ قامت بينهم معركة تعقب فيها الفزانيون القافلة خمسة أيام ومات فيها من المماليك عشرون وبقى منهم ستة وكانت هذه الواقعة فى بورجو

ويروى دنهام عنهم أنهم قد خسروا فى أثناء منفاهم ما قيمته أربعين الف دولار وقد كتب دنهام عن رحلته كتابا فى مجلدين اشترك معه فيه الكابتن كلابرتون

(7) Narrative of Travels and dis coveries in Northern and Central Africs Vol. I P. xiv

وقد أضيف إليهما الدكتور أودنى رغم وقاته لأنه كان شريكا لهما فى رحلتهما الأتيتين.

رحلة اودنى وكلابرتون

بدأت هذه الرحلة فى ٨ يونية سنة ١٨٢٢ فى الفترة التى اقام فيها اودنى وكلابرتون فى مرزوق فى انتظار عودة دنهام من رحلته إلى طرابلس . . ورافق أودنى وكلابرتون مستروليم هيلمان وعدة من المشايخ ومعهم طارقى من اصحاب الجمال يدعى حاج سيد وكانت غاية الرحلة غرات فى غرب مرزوق

وبعد مسيرة نصف يوم فى الحرارة الشديدة وصلوا إلى بلدة الحمام ثم إلى تسوه Tessowa حيث يقطن الكثير من قبيلة الطوارق ويقول عنهم د. أودنى «أنهم يتميزون بمظهر المحاربين ويرتدون ملابس تميزهم عن اهل فزان» وبعد يومين من بدء الرحلة وصلوا إلى مدينة خاريك Khaarik وهى بلدة خصبة فى واحة يكثر فيها النخيل حتى ليبلغ عدد النخل فيها ٤٣٠٠٠٠ر وفى هذه البلدة اضطروا للاقامة عدة أيام بسبب عدم وجود جمال تحملهم إلى بغيتهم وذلك لخوف أهل المنطقة من الطوارق كما تحقق لدى د. أودنى أن العراقيل التى كانت توضع فى سبيل تحقيق رحلتهم وهم فى مدينة مرزوق لها صدى كبير أيضا فى بلدة خاريك وأخيرا رضى رجل من أهل البلد أن يخرج لهم جمالا حملتهم بعد مسيرة يوم فى بيئة متشابهة إلى جرما

وفى يوم الأربعاء ١٩ يونيه غادرت الرحلة جرما وقد ساروا على الأقدام —

---

(٨) المرجع السابق
(٩) المرجع السابق

وصحبوا الجمال أما الخيل فقد استغنوا عنها فى هذا الجزء من الرحلة .

وفى الثامن والعشرين من يونية قرر الجميع أن يعود مستر هيلمان إلى مرزوق لتكون تحت أشرافه ممتلكات البعثه هناك وقد استراح د . أودنى إلى هذا الحل كثيرا . بينما تابعت القافلة سيرها إلى وادى شيانى فى ٣ يولية وتكشف الوادى وصخوره وينابيع المياه التى تكون بركا صغيرة وأصبح لون الأرض داكنا ومختلطا بالملح .

وأخيرا دخلوا إلى أرض الطوراق وتحدث أودنى عن الطوارق فى أكثر من مكان من رحلته ... قبل أن يقفلوا عائدين إلى مرزوق كى يلتقوا مرة ثانية بدنهام الذى عاد من طرابلس .

رحلة رتشارد بارت (١٨٥٠)

فى عام ١٨٥٠ أوفدت الحكومة البريطانية بعثة إلى أفرقيا تضم الرحالة الانجليزى جيمس رتشارد سون الذى ينتمى إلى الجمعية البريطانية لمحاربة الرقيق والذى سبقت له زيارة أفريقيا مابين ١٨٤٥ — ١٨٤٧ وبالذات زيارة مناطق غدامس وغات ومرزوق، وصحب رتشارد سون فى هذه الرحلة الألمانى هينرنج بارت الذى سبق له أيضا أن زار أفريقيا كما أنه كان يتكلم اللغة العربية جيدا وزاملهم أيضا الألمانى أدولف افروج .

بدأت الرحلة من طرابلس عام ١٨٥٠ إلى مرزوق فى قلب صحراء ولاية فزان ومنها إلى غات ثم إلى أغاديس وكانت الرحلة محفوفة بالمخاطر بسبب غارات رجال القبائل فى هذه المنطقة وفى كوكا مات رتشارد سون عام ١٨٥١ بينما أكمل بارت رحلته إلى كانو ثم كوكا . . . ووصل بارت فى رحلته جنوبا إلى

بحيرة تشاد ثم نهر بنو Benue وفى هذه المنطقة كانت الجمال تعتبر حيوانا مقدسا نظرا لأن أهل اداماوا Adamawa لا يعرفونها ويقول بارت أن استقباله فى يولا Yo la عاصمة اداماوا كان استقبالا سيئا لأنه كان يحمل توصيات كثيرة من بورنو وكان فى عزمه العودة إلى كوكا ويبدو أنه لم تكن هناك ثقة متبادلة بين الحاكمين . . وواصل بعد ذلك رحلته إلى باجرمى Baghirmi ثم عاد غربا إلى تمبكتو واشترك فى هذه هذه الرحلة أيضا العالم الطبيعى والرحالة الألمانى أدواف أوفروج Overweg وقد ذهب مع بارت إلى بحيرة تشادو تركه هناك وذهب إلى أرض الجوبر Gober حيث مات فى مادوارى Madwari بالقرب من كوكا فى ١٨٥٢

وكانت رحلة بارت فى كشف هذه الأجزاء من القارة رحلة هامة فقد حقق فيها الكثير من المعلومات الجغرافية والجيولوجية والإثنوجرافية كما أتى بمعلومات تفيد تجاريا فى علاقة أوربا بهذا الجزء من العالم واستغلال التجارة معه .

ويعتبر بارت من أحسن الرحالة الذين أعطوا صورة للحياة الحقيقية فى أفريقيا. وقد كتب بارت رحلته فى كتاب يعتبر من أصدق ما كتب عن صور الحياة فى المناطق التى زارها .

رحلة جوستاف ناختجال (١٨٦٩)

كان جوستاف ناختجال Gustave Nachtgal طبيبا بالجيش الألمانى . . ثم هجر الجيش وسافر إلى تونس فى عام ١٨٦٣ ، وقد قام برحلته فى الصحراء عام ١٨٦٩ من طرابلس إلى فزان وكان أول أوربى تطأ أقدامه أرض تبستى ثم ذهب إلى كوكا حيث كان مكلفا بمهمة من قبل قيصر بروسيا لسلطان بورنو وبعد أن

أقام هناك مدة فى بورنو زار كانم وطاف بشواطىء بحيرة تشاد مستكشفا ومحققا مواقع جغرافية ثم رحل إلى واداى ثم دارفور وكردفان عائدا عن طريق النيل إلى القاهرة فالإسكندرية مبحرا إلى أوروبا فى ١٨٧٥

وقد عاد ناختيجال إلى أفريقيا مرة أخرى حيث عمل قنصلا لألمانيا فى تونس ١٨٨٢ ثم مبعوثا إلى أفريقيا الغربية بعد ذلك .

رحلتا فلاترز (١٨٨٠)

هاتان الرحلتان قام بهما بول فرانسوا فلاترز Flatters وهو ضابط فى الجيش الفرنسى بالجزائر وكان الغرض من هاتين الرحلتين هو مد خط حديدى عبر الصحراء وهاتان الرحلتان وإن كانتا كشفيتين إلا أنهما أولا لهما غرض واضح ثانيا كانت لهما الصفة العسكرية .

قامت الأولى فى أوائل عام ١٨٨٠ وتقدمت من ورجالا Ouargale إلى بحيرة منكوف حيث اشتبكت هناك مع قبيلة من الطوارق ثم عادت البعثة إلى مقرها .

وفى أواخر نفس السنة ١٨٨٠ عاد فلاترز مرة أخرى على رأس بعثة ثانية إلى الحجار Hoggars وعسكر فى يوم ١٦ فبراير سنة ١٨٨١ فى بير الـكرامة حيث هاجمه الطوارق مرة ثانية فقتل هو ومن معه ولم ينج من المذبحة سوى فئة قليلة عادت تروى تفاصيل المذبحة والرحلة .

رحلات فرناند فورو (١٨٩٨ — ١٨٩٩)

فى هذه المنطقة أيضا من الصحراء تابع الرحالة الفرنسى فرناند فورو رحلات بول فلاترز . وقد قام فورو عام ١٨٩٠ بعدة رحلات إلى عين صلاح

فى انجاد تيما سيفيم Temassinim وهضبة تيدمميث أثبت فيها عدة حقائق جغرافية عن مناطق العرق Erq وحمادة تنغرت .

وقد توج فورو أعماله ببعثته المشهورة فورو — لامى من ١٨٩٨ إلى ١٩٠٠ التى سارا فيها من بسكرة Biskra إلى أغادس ثم إلى بحيرة تشاد حيث تقابلوا مع بعثة ميتية Meyn ier الاتية من النيجر وجنتيل Gentil الآتية من الكونغو .

وقد أثبتت هذه البعثة معلومات جغرافية وجيولوجية ذات أهمية بالغة بعضها يعرف كحقيقة للمرة الأولى كما أثبتت وحققت فلكيا ما ينوف على ٥٠٠ موقع.

وقد كانت هذه النتائج بالغة الأهميـة بالنسبة للتصرفات العلمية والعسكرية للحكومة الفرنسية .

هذه خلاصة لأغلب الرحلات التى تمت فى الصحراء الكبرى فى القرن التاسع عشر ومنها تبين — كما سبق أن قلنا — أنه فى هـذا القرن نشطت الرحلات الكشفية كما نشطت الدوائر التجارية والحكومية والعسكرية للحصول على أكبر معلومات ممكنة عن أفريقيا تحت حجة الكشف العلمى وإدخال الحضارة وتبادل التجارة وهى كلها حجج مقنعة واهية تخفى تحتها الوجه الحقيقى البشع: الاستعمار.

وقبل أن أختم هذا الفصل أود أن أشير إلى بعض الرحلات الأخرى المكملة التى تمت فى أوائل القرن العشرين ومنها :

الرحلات التى قام بها القومندان تيلهو Tilho (١٠) سـنة ١٩١٢ والتى اصطدم فيها بالسنوسيين وقد أسفرت عن نتائج عملية لتحقيقات جغرافية وفلكية

---

(١٠) المرجع السابق .

فى نواحى واداى ودارفور والمنطقة المحصورة بين النيجر وبحيرة تشاد وحوض النيل .

ثم رحلات رينـل رود Rodd ١٩٢٢ — ١٩٢٧ والتى وصف فيها الطوارق ودرس أحوالهم دراسة مستفيضة ظهرت فى مؤلفه « القوم الملثمون »

كما لا يفوتنى الإشارة إلى رحلة أحمد محمد حسنين[11] فى صحراء ليبيا التى بدأت من السلوم فى أواخر عام ١٩٢٢ إلى الجنوب وسيوة وبير أبو الطفل ثم إلى بوزيما والـكفرة وأركنو والعوينات ثم من داخل إفريقية الاستوائية الفرنسية إلى فوراية والفاشر والأبيض فى السودان . وقطع ٣٥٠٠ كيلو مترا فى الصحراء وأيد مواقع الظيمن وواحة الـكفرة كما أثبت على الخريطة للمرة الأولى موقعى الواحتين المجهولتين أركنو والعوينات .

ثريا جودت

(١١) راجع مقال (جهود الرحالة العرب فى كشف افريقيا) :

كشف النيجر

تشتق نيجيريا إسمها من نهر النيجر وهو تاسع نهر فى العالم من حيث الطول وثالث نهر فى إفريقيا بعد الكونغو والنيل وقد كان معروفا إلى زمن مضى باسم نيل (النيجرو) وكان الجغرافيون الأوائل يعتقدون بأنه يشترك مع نهر النيل فى منبع واحد ينحدر من جبال القمر (١) .

ونهر النيجر من أوضح معالم أفريقيا السودانية ولا يوجد أدنى شك فى أن جزأه الأعلى كان يمثل نهراً قائما بذاته يسير من الجنوب الغربى حتى الشمال الشرقى وينتهى على مقربة من الموقع الحالى لمدينة تمبكتو وكان حوض تصريفه المائى يضم مناطق واسعة وينتهى بدلتا داخلية لازالت بقاياها ظاهرة حتى الوقت الحالى عند مدينة تمبكتو ، فكأنه كان نهراً ذا تصريف مائى داخلى وكان يمكن أن يفقد هذا النهر مياهه فى رمال الصحراء لولا أن اتصل به نهر النيجر الأدنى (٢) وجذبه إليه حتى خليج بيافرا حيث ينتهى بدلتا كثيرة الفروع كانت تعرف بأنهار الزيت.
والنيجر يزيد طوله على ٤ آلاف كيلو متر[٢] ولا يعترض طريقه مرتفعات تفصله عن السنغال أو عن الأنهار الأخرى التى تصب فى خليج غينيا أو عن الصحراء الكبرى أو عن بحيرة تشاد (٣) وتبلغ مساحة النهر مع استبعاد المناطق الضحلة والمنحدرة نحو المجرى كما قدرها الدكتور بليدو حوالى ٥٨٤ ألف ميل[٢] ، والنهر له عدة أسماء محلية أكثرها شيوعاً جوليبا joliba وتعنى بلغة الماندينجو النهر العظيم كيورا وكان يعرف بالاسم الأخير فى الجزء الأدنى قبل أن يتصل بالنيجر الأعلى

---

1 — John Gunter , Inside Africa. P.

2 — Geographie Universelle . P. 11. (Page 461).

3 — Encyclopedia Britannica. P. 674

ويتخذ طابعه الحالى.

ولم يعرف نهر النيجر بصورته الحالية إلا فى أواخر القرن التاسع عشر وقد كان مبعث حيرة الجغرافيين الأوائل وتضاربت الآراء عن مجرى النهر فمن قائل أنه يجرى نحو الغرب وهو رأى من المحتمل أن يكون الأدريسى قد أثبته لأول مرة فى القرن الثانى عشر ، والأدريسى جعل لنيل مصر ونيل العبيد منبعاً عاماً فى جبال القمر وقد كونت العيون من الجبل بحيرتين تغذى منهما مجرى النهر ثم كون بحيرة عظيمة ينبع منها النهران النيل المصرى الذى يجرى نحو الشمال ونيل العبيد الذى يجرى إلى الغرب وقد اعتبر الأدريسى نهر النيجر والسنغال كنهـر واحد عظيم يصب فى المحيط الأطلسى (٤) .

وفى القرن الثالث عشر وصل ابن بطوطة إلى أسفل النيجر وأعطانا معلومات مفصلة عن المنطقة وأهلها حتى تمبكتو وجوجو Gogo وكان يعتقد أن النيجر يشترك مع النيل فى منبعه .

وليو الأفريقى الذى لمع مبكراً فى القرن السادس عشر كان متحيراً فى نهر النيجر وقد كتب يقول «هذان النهران نهرا السنغال وغمبيا غير معروفين بالتأكيد هل كانت أنهاراً رئيسية أم فروعاً لنهر النيجر » .

وفى سنة ١٤٤٥ أرسل الأمير هـنرى البرتغالى بعثة بحرية للبحث عن منبع نهر النيجر والتأكد من اتجاه نهر السنغال وقد أثبتت هذه البعثة أن السـنغال نهر مستقل يسير إلى شرق النيجـر ولـكنها لم تخرج بنتيجة جديدة من ناحية اتحاد النيجر مع النيل فى منبع واحد .

أما الميجور جيمس رينل فقد اعتقد أن النيجر الذى ينتهى فى بلاد وانجارا

4 — Encyclopedia Britennica Vol. 19. P. 676

وهو إقلـيم حدده هو خطأ من اطلاعاته فقد قال أنه يمتد كثيراً إلى الشرق بين الدرجتين ١٥° ، ٢٠° وينسب إليه أيضاً ماقيل من أن نهـر Benue كان تكملة للنيجر إلى الشرق . أما الجبال التى تخيلها فـكانت الـكنفج فى الغرب والـكومرى Komari فى الشرق وهى ممتدة فى سلسلة عالية غير منقطعة تعبر أفريقيا إلى الشمال نحو ١٠° وقد كانت سبباً فى إبعاد تفـكير الجغرافيـين عن اتجاه النيجـر إلى الجنوب[٥] .

وقد فشلت جميع المحاولات الأولى لا كتشاف الساحل الغربى لأفريقا سواء من جانب الانجليز الذين بدأوا أولى اكتشافاتهم سنة ١٥٥٣ واستقروا فى غمبيا أو الهدلنديين الذين كانوا قد اكتسحوا أملاك البرتغال ثم فقدوا مراكزهم المسيطرفى القرن الثامن عشر أو الفرنسيين الذين استقروا على نهـر السنغال . . . كل هذه المحاولات لم تؤد إلى نتيجة تذكر[٦] مما جعل الغموض يحيط بالمناطق الداخلية من أفريقيا حتى بداية الاكتشافات الحديثة فى أوائل القرن التاسع عشر .

كانت مشكلة النيجر أهم مشكلة جغرافية اهتمت بها الجمعية الجغرافية البريطانية عندما تأسست سنة ١٧٨٨ وكان اهتمامها بها أكثر من اهتمامها بكشف منـابع النيل لأنه لم يكن معروفا كنهر بل كان معروفاً كأسم فقط ولم يكن يعرف أحد من أين ينبع ولا أين ينتهى ولا حتى اتجاهه وقد تولت الجمعية حل المشكلة ولم تكن محاولاتها الأولى موفقة. إذ أرسلت فى البداية أربعة من الرحالة هم هوتون وهورن مان ولوكاس وليديارد فى رحلات متتابعة تحت رعايتها ولـكن ثلاثة منهم ماتوا ما بسبب المرض أو قتلوا[٧] . فاتجهت الأنظار إلى بدء الرحلات القادمة من نهر غمبيا حيث كان البريطانيون قد أسسوا بعض المـراكز التجارية منذ سنة ١٧٣٠ وأقام لهم فيها حاكم بريطانى ومعه جماعة من الجنود الوطنيين تدفع لهم الشركة مرتباتهم (وهى شركة افريقيا الغربية الملـكية البريطانية)

(5) Encyclopedia Bisitannica voliq p. 646
(6) Percy Sykes H. of Exploration q. 212.
7 — Perham. P. 30

وأرسل لذلك الميجور هيوتون الذى كان قنصلا في مراكش فبدأ رحلته سنة ١٧٩٠ من مصب نهر غامبيا . . وتقدم نحو الداخل وكان يكتب بعض الخطابات من حين لآخر ويرسلها مع رسل إلى تاجر بريطانى يقيم على الساحل يدعى الدكتور ليدلى كان يقيم فى مدينة غامبيا وتلقى منه هذا التاجر أكثر من خطاب ولكن انقطعت خباره فجأة ولم يعد العالم يسمع عنه شيئا (٨) فوقع اختيار الجمعية على منجو بارك ليكمل العمل .

قام بارك من بورتسموث فى مايو سنة ١٧٩٥ وصل إلى بيسانيا Pisania على ساحل غمبيا فى يوليو مكث هناك خمسة أشهر مع الدكتور ليدلى الذى كان يتاجر فى الذهب والعاج والرقيق وله صلات حسنة مع تجار الرقيق الذين يعرفون الطريق إلى الداخل . درس بارك خلال هذه المدة لغة الماندينجو وهى إحدى القبائل الداخلية التى تدين بالإسلام وفى ديسمبر سنة ١٧٩٥ بدأ يستعد للرحلة بشكل جدى وخرج فى يناير وكان يصحبه دليل وخادم وكان يركب حصانا بينما يمتطى رفيقا حمارين وحملت أمتعته ثلاثة حمير أخرى ، وسار متتبعا نهر غمبيا حتى وصل وولى Woolli حيث استقبله الملك ورعاياه — وقد كان أغلبهم من الوثنيين مع أقلية مسلمة — استقبالا طيباً وقد ألمح له الملك بأنه يتوقع له معاملة مختلفة فى المناطق الداخلية حيث لم ير الناس هناك رجلا أبيض من قبل (٩) .

ومن وولى عبر بارك إلى بوندو Bondou وهى سلطنه صغيرة على نهر غامبيا فقابله السلطان بالترحاب ولكنه أعجب بمعطف بارك ذى الأذرار النحاسية فأهداه بارك إياه وقد سمح السلطان لبارك بزيارة الحريم فالتففن حوله يسألنه عن سبب بياض بشرته وعللها بأنه يستحم يومياً فى اللبن كما أعجبن بصغر أنفه .

---

(٨) مذكرات الدكتور زاهر رياض عن حركة الاستكشافات .

9 — Percy Sykes. P. 213

وتابع بارك رحلته إلى سلطنة كاجا كاجا استقبله سلطان هذه المدينة بالترحاب ولكنه سلبه كل ملابسه ويقول بارك أنه لم يترك له إلا قميصا واحدا وبنطلونا ومنديلين وحذاء وقبعة. ثم تعطل ثلاثة أيام لقيام الحرب بين سلطان كاجا كاجا وسلطان كاسون الذى يجاوره ولكن سرعان ما استأنف بارك رحلته ودخل سلطنة كارتا Kaarta حيث أحسن سلطانها استقباله وهناك سمع بأخبار موت هيوتون على أيدى العرب. ونظرا لوجود حالة حرب مع المنطقة المجاورة وهى بامبارا Bambara فقد اضطر بارك إلى السير شمالا إلى لادامارا Ladamara حيث المغاربة وهناك بدأت متاعبه الحقيقية حيث وقع فى أيدى تجار الرقيق العرب وحملوه إلى زعيمهم الذى حجزه فى معسكره فى Benow إلى أن تمكن من الهرب منهم، ولكنه كان مضطرا إلى السير ببطء بسبب سوء حالة حصانه. ولكن جماعة المغاربة أرسلوا وراءه جواسيس يتعقبونه لإعادته إلى بوباكر وكان كل مايشغله هو محاولة الفرار من هؤلاء القوم.

ولكن واجهته مشكلة توفير الغذاء لنفسه ولحصانه فاستمر يسير حتى أوشك على الإغماء بسبب العطش فتسلق أحد الأشجار علّه يرى دخانا من بعيد يعطيه أملا على وجود ناس ولكن عبثا إذلم ير سوى غابات ورمال. وأخيرا رأى قطيعا من الغنم يسوقه ولدان عرف منهما أنهما متجهان ناحيه دينا حيث مياه الأمطار تملأ البحيرات. فركب بارك حصانه وأخذ يجرى بأقصى سرعة وكان يصبر نفسه بمضغ بعض أوراق الشجر ولكنها كانت مرة وعديمة الفائدة.

وكان التعب قد نال من حصانه والجوع قد نال منه فقرر أن يغامر فطرق بابا وجده فى قرية يشتغل أهلها بزراعة الأرض فوجد امرأة عجوزا أفهمها أنه جوعان فطلبت منه بالعربية أن يتبعها إلى داخل الكوخ حيث قدمت له قدراً كبيراً ملىء بالبليلة فشبع تماما ومنحها هدية لها على كرمها أحد مناديله وكم شعر بجميل هذه المرأة عليه [١٠].

10 — Perham P. 76

وفى ١٨ يوليو سنة ١٧٩٦ واصل بارك الرحلة حتى أصبح حصانه على درجة من الضعف بحيث لم يعد صالحا للركوب فاضطر إلى أن يسوقه أمامه لذلك سبقه رفاقه وتركوه حيث قابل فى طريقه مجموعة من الرقيق قادمة من سيجو وكانوا مربوطين إلى بعضهم بحبل وكان بينهم عدد من النساء . فكان سعيداً لأنه سيذهب بصحبتهم وبدأوا رحلتهم . وكان الناس يضحكون من منظره وهو يسوق حصانه أمامهم ثم وصلوا إلى سيجو التى ازدحمت الطرق فيها بالناس الذاهبين إلى السوق وإذا بأحد رفاقه يهتف Geo - ofili أى أنظر المياه فنظر بارك بسرور بالغ ليرى نهر النيجر ينساب ببطء نحو الشرق فأسرع إلى الشط ليشرب من مائه وليحمد الله على أنه وصل .

ويقول بارك فى مذكراته عن الرحلة (رغم انسياب مياه النيجر نحو الشرق وما يثيره هذا الموضوع من شك فى دوائر أوربا إلا أن هذا لم يثر دهشتى لأننى كنت متأكداً من المعلومات التى استقيتها من الرقيق الذين قابلتهم خلال رحلتى من مدن وبلدان مختلفة والذين كانوا يؤكدون لى أن الاتجاه العام لمجرى النيجر إلى الناحية التى تشرق منها الشمس مما لم يدع مجالا [11] للشك خاصة وأننى أعلم أن الميجر هيونون قد جمع معلومات مماثلة بنفس الطريقة) .

وسيجو عاصمة بامبارا تتكون أساساً من اربع بلدان اثنان على الشاطىء الشمالى لنهر النيجر وهما SegoKorro,Sego Boo واثنان على الشاطىء الجنوبى وهما Sego SooKorro Sego soo Boo وجميعها محاطة بحوائط عالية ومنازلها مبنية من الفخار ذات شكل مربع ومساجد العرب منتشرة فى كل حى . وشوارع هذه المنطقة ضيقة يبلغ سكانها حوالى ٣٠ ألف نسمة وملك بمبارا يسكن المدينة الأولى

---

11 — Perham P: 78

ويستخدم عبيده فى مساعدة الناس على عبور النيجر والنقود التى يحصلون عليها مقابل ذلك يتكون منها دخل محترم الملك خلال السنة .

وقام الناس الذين عبروا النهر بأخبار الملك أن هناك رجلا أبيض يريد أن يعبر النهر ويرى الملك فأرسل الملك أحد رسله الذى أخبره أنه من المحال أن يراه الملك قبل أن يعلم سبب مجيئه .

وانتظر طول اليوم دون أن يأتيه أى أخبار من الملك وبدأ الناس يتهامسون عن إن الملك وصلته أخبار غير سارة عن أغراض رحلته من تجار الرقيق الطوارق وقد أخبره بعض القرويين بصراحة أن لا يتوقع خيراً .

وفى ٢٣ يوليو بعد الظهر وصله رسول من الملك ومعه كيس به ٥ آلاف كورى وأخبره أن الملك يطلب منه قبول هذا المبلغ نظير أن يرحل من سيجو .

وقد دهش لتصرف الملك معه ولكن سرعان ما أدرك أن الملك كان على استعداد أن يستضيفه ولكنه كان يخشى عدم استطاعة حمايته من المغـــاربة الذين كانوا يقطنون المنطقة .

بعد أن ترك بارك مدينة سيجو أخذ يسير على شواطىء النيجر ستة أيام إلى إلى أن وصل بلدة Karfasilla وسارت معه أمور الرحلة على خير مايرام حتى ٢٥ أغسطس عندما هاجمه بعض اللصوص ونهبوه وفى ١٩ سبتمبر وقع مريضا فى بلدة Kamalia حيث قام بتمريضه عبد زنجى يدعى تورا ومكث بارك فى هذه البلدة ٧ أشهر ثم اتجه إلى كارفا ومنها إلى بيسانيا فوصلها فى ١٠ يونيو سنة ١٧٩٧ وفى ٢٢ ديسمبر وصل بليموث واستقبل فى إنجلترا استقبالا حافلا(١٢) .

12 — Perham. P 83 - 84

نتائج الرحلة الأولى

وقد أكمل بارك مجهوده العظيم فى وصوله إلى النيجر وأثبت أنه ينساب نحو الشرق ولكنه لم يستطع أن يتتبع مجراه إلى المصب أو طبقا لرواية الميجور رينل إلى المستنقعات الداخلية وكان بارك نفسه يعتبر أن هذه المنطقة هى الكونغو فى جزئه الادنى (١٣).

فى عام ١٨٠٤ سنحت لبارك الفرصة للعودة مرة أخرى لاكمال رحلته إلى النيجر فانتهزها على الفور ، فابحر من بورتسموث فى ٣٠ يناير سنة ١٨٠٥ وصحب معه شقيق زوجته الكسندر اندرسون وصديقه جورج سكوت و ٣٠ جنديا متطوعا و ٦ نجارين و ٢٠ صانعا من السود وبعض الحمالين .

قام بارك من غمبيا فى مايو وكان هدف الحملة تتبع النيجر بالقوارب حتى يصل إلى نهر الكونغو كما كان الاعتقاد حينئذ ولم يكد يتقدم نحو الداخل حتى وقع كثير من أفراد الحملة فريسة للدوسنتاريا وهاجمه النمل وفقد سبعة من حيواناته كما مرض ١٢ آخرون من حملته سوى ٦ جنود ونجار واحد و ٣ مساعدين من البيض ودليل اسمه ازاكو .

وسارت الحملة بموازاة النهر فخرج عليهم تمساح ضخم انقض على الدليل وسحبه ولكن الرجل سبح إلى البر ولكن التمساح لحق به وجذبه ثانية إلى الماء فكرر الرجل فعلته فأفلت للمرة الثانية وسبح إلى الشاطىء بينما سبح التمساح إلى الداخل (١٤).

13— Percy Sykes P. 215

(١٤) مذكرات الدكتور زاهر رياض .

اتجهت القافلة متتبعة مجرى النهر فوصل منسونج حيث ساعده حاكمها وهناك فقد ٥ جنود آخرين كما مرض هو بالد وسنظاريا . . وفى ٢٢ سبتمبر وصل إلى سانساندج حيث مكث شهرين ومات هناك اندرسون ومنها كتب بارك آخر خطاب لزوجته يخبرها بوفاة معظم الجنود وأخيها وصديقه ويؤكد لها أن حالته جيدة وأخبرها أنه سوف يبحر فور انتهائه من الخطاب ولن يتوقف فى أى مدينة أو بلدة حتى يصل إلى الساحل الذى يعتبره بمثابة نهاية الرحلة وبعد ذلك(١٥) سوف يستقل مركبا للعودة إلى انجلترا .

وقد ترك بارك سانساندج فى نفس اليوم يصحبه ٤ من الاوربيين الذين بقوا على قيد الحياة و ٣ عبيد ومرشد ومنذ ذلك الوقت لم يعرف عنهم شيء وأغلب الظن أنهم غرقوا فى النهر بعد نشوب معركة بينهم وبين سكان بوسا .

وقد كاف الدليل الذى حمل اخر رسائل بارك بأن يحاول كشف سر اختفاء بارك وصحبه فقام الدليل بعدة أبحاث دلت على أن الحقيقة تنحصر فى أن الطوارق هاجموه عند كابار فى أكثر من ٦٠ قاربا ولكنه هرب منهم بعد أن دافع عن نفسه وسار متتبعا النهر مرة أخرى فلم يجد بدا ومعه زملائه من أن يقفزوا إلى النهر حيث غرقوا مفضلين الموت على الوقوع فى الاسر(١٦) .

ولكن مستر ادوارد الذى زار منطقة بوسا فيما بعد وأخذ يجمع معلومات عديدة عن مصرع بارك يؤكد عدم صحة هذه الرواية ويقول أن بارك قد نزل عند بوسا وقد أحسن الناس استقباله هناك حتى أنه منح زعيمهم ميدالية كبيرة من الفضة عند رحيله ولكن عندما يقترب الانسان من منطقة بوسا يرى النهر منقسما

---

(١٥) مذكرات الدكتور زاهر رياض .

61 — Perham. p. 85

إلى عدة[١٧] فروع تتخللها صخور متناثرة بعرض النهر وسار بارك دون مرشد فى أحد هذه الفروع ومن المحتمل أنه تحطم عند صخورها هناك أو قضى غلية عند الشلال الذى يصل ارتفاعه إلى ٢٠٠ ياردة .

وبذلك يكون منجو بارك قد تتبع نهر النيجر فى رحلته الثانية حتى مدينة بوسا وكان هذا المصير الذى لقيه بارك سببا فى وقف المحاولات التى ترمى إلى كشف النيجر حتى عام ١٨٢٣ حين بدأ كلابرتون رحلة جديدة على رأس بعثة بدأت من مدينة لاجوس . وإن كان ذلك لم يمنع من قيام رحلات أخرى ولكنها لم توفق فى الوصول إلى نتائج حاسمة مثل رحلة Tucky سنة ١٨١٦ لاكتشاف الكونغو على احتمال أنه يكون مع النيجر نهرا واحدا ورحلة Laing سنة ١٨٢٢ الذى وصل إلى نتيجة طيبة وهى تحديد مكان منابع النيجر بتتبع المجرى الادنى للنهر إلى أن وصلوا إلى المصب[١٨] .

ثم دعت الحكومة البريطانية مستر أودنى Oudney للقيام برحلة داخل افريقيا وتطوع كلابرتون لمرافقته فقبل مستر أودنى وصحبهم أيضا الميجور ديكسون دينهام .

بدأت الرحلة من طرابلس سنة ١٨٢٢ فعبروا الصحراء الكبرى إلى بحيرة تشاد حيث كانوا أول أوربيين يرونها[٢] وهناك انفصلوا فاتجه دينهام إلى الجنوب الشرقى ناحية نهر شارى واما كلابرتون واودنى فقد اتجها ناحية النيجر عن طريق دويلات الهوسا فى الغرب وكان يصحبهم تاجر من فزان اسمه محمد الوردى وقد مات أودنى فى Murmur فى يناير سنة ١٨٢٤ أما كلابرتون فقد استمر فى

17— Prham, p. 87
18 — Prham, p. 27

رحلته إلى كانو التى تحتل مركزا وسطا بين بحيرة تشاد ونهر النيجر وهى لاتقل أهمية عن غبكتو وكانت تشتهر بأسواقها الكبيرة التى كانت محط رحال التجار العرب الاتين من طرابلس عبر الصحراء .

دخل كلابرتون مدينة كانو فى ٢٠ يناير ووجدها عكس ما كان يسمعه من التجار العرب عن عظمتها وإزدهارها بل وجدها منازل ذات حوائط كبيرة متناثرة فى مجموعات بينها بحيرات مائية كبيرة وأهم ما يتميز به سكانها هو أن كلا منهم مشغول بعمله فلم يلتفت أحد إلى كلابرتون الذى ذهب مع الوردى إلى منزل الحاج صلاح . وكان يحمل إليه خطاب توصية من (سلطان) بورنو فوجده يجلس أمام منزله وسط جماعة من التوريك فرحب بكلابرتون وأخذ منه خطاب التوصيه ثم أرسل معه أحد العبيد إلى المنزل[١] الذى اسقأجره له فمشى نصف ميل فى السوق الذى يحيطه من الشرق والغرب مستنقع مائى ملىء بالبط والطيور البرية حتى وصل منزله وكان مفروشا بحصير نام عليها كلابرتون مريضا وكان يزوره التجارة العرب الذين رافقوه فى رحلته من Kouka وعندما شفى ذهب فى أول فبراير مع الحاج صلاح إلى حاكم سانسان Sansan واهداه كلابرتون ساعة سر بها الرجل وطلب منه أن يشرح للحاج صلاح كيفية استعمالها واطلعه كلابرتون على خطاب التوصية الذى يحمله لبلو سلطان سوكوتو فاخبره أنه سيرسله إلى سوكوتو فورا مع احدى القوافل الذاهبة إلى هناك .

وقابل كلابرتون أثنـــاء عودته اثنين من الحكام عائدين إلى سانسان ويصحبهم ٥٠٠ من الفرسان والمشاه وكان المشاه مدججين بالاقواس والرماح

---

(19) prham p, 88

ويحملون فوق رؤوسهم اكياسا[٢٠] مليئة بالحبوب وبعضهم كان يلبس كابات من الأعشاب مزينة بالريش واغلبهم كانوا يلبسون ملابس جلدية نصفية وصنادل بدائية اما الفرسان فـكانوا مسلحين بالدروع والسيوف والحراب المدببة الطويلة والدروع مغطاة بجلود الحيوانات وهذا النوع من الدروع لا يحمله سوى الفرسان الطوارق .

ويذكر كلا برتون أن مدينة كانو مسورة بحوائط يبلغ ارتفاعها حوالى ٣٠ قدما ولهـا ١٥ بوابة تفتح عند الشروق وتغلق عند الغروب وبداخلها فناء واسع على جانبيه منزلان للحراسة والمنازل فى داخل المدينة لاتشغل اكثر من ربع المساحة اما باقى الفراغ فهو حقول وحدائق والمستنقع يمتد بعرض المدينة أكثر من ربع المساحة أما باقى الفراغ فهو حقول وحدائق والمستنقع يمتد بعرض المدينة من الشرق إلى الغرب وتعترضه أرض تقام عليها السوق فى فترات الجفاف أما المنازل فهى ذات شكل مربع على طراز منازل المغاربة[٢١] . ومقر الحاكم يمثل مساحة كبيرة ويشمل عدة قوى مسورة ويشمل جامعا وعدة أبراج ونوافذ على الطراز الاوربى ولـكنها بدون زجاج ولا بد أن يمر الشخص باثنين من هذه الابراج حتى يصل إلى الحجرات الداخلية التى يحتلها الحاكم .

أما السوق فهو ملئ بجميع إحتياجات السكان ولا يوجد سوق فى أفريقيا فى مستوى تنظيمه ويشرف على السوق شيخ يتقاضى المـكوس من التجار وهـذه المـكوس هى المصدر الرئيسى لسلطان كانو ... ويذكر كلابرتون أن من عادات التعامل فى تلك المنطقة أن البائع يرد للمشترى جزءا من الثمن يبلغ ٢ ٪ كبركة

20– op ,prham (4)
21– (25)P.rham' p. 90

والسوق مقسم إلى أجزاء حيث خصص كل جزء لبيع نوع معين من السلع أحدها للماشية وثانى للخشب ... الخ . ويصنع من الدقيق ثلاثة أنواع من الخبز وكذلك يصنع من الأرز فطائر . والخراف والجمال تذبح يوميا وهناك[٢٢] عادة فى الذبح هى أنهم يصبغون قرون الذبيحة بالحناء الخضراء ثم تدق الطبول وينادى على حجمها وسمرها ثم يقبل الناس على شراء لحمها .

والسوق يدار بمنتهى الدقة والحزم ففى حالة بيع أى سلعة تذهب إلى بورنو أو أى مكان بعيد ثم يكتشف أنها من صنف ردىء ترد فورا إلى الدلال الذى يعيدها إلى البائع الذى يجبر فى ذلك الوقت إلى إعادة ثمنها وفقا لقوانين كانو ويستمر السوق طول اليوم حتى ساعة متاخرة من الليل[٢٣] .

ولعل أهم ما لفت نظر كلابرتون سوق الرقيق فهو مقسم إلى قسمين أحدهما للذكور والآخر للاناث .. والبضاعة فيه مرتبة بارزة العرض ويجلس بجوارهم المالك أو أحد عبيده الموثوق فيهم ولا يهم فى العبيد المعروضين جمال أو عمر أو قبح فإنهم يباعون بلا استثناء ولكن أهم شىء يحرص عليه المشترى هى أن يكونوا سليمى الأعضاء فيفحصونهم فحصاً دقيقاً والذين يكتشف فيهم أى عيب من حق المشترى أن يعيدهم فى خلال ثلاثة أيام .

ويقول كلابرتون أن الرق والعقلية العبودية منتشرة تماما والنساء المعروضات لبيعهن وعكفن طول الوقت يغنين بصوت مرتفع . . . والناس يصبحون عبيداً بالمولد أو بالأسر وقبائل الفولانى تطلق العبيد بمجرد موت أسيادهم أو فى مناسبة دينية ويكون العفو أمام قاضى واثنين من الشهود ويستخدم العبيد الذكور

---

(26) perham p. 90
(27) prham p. 60

فى البناء والغزل وطرق الحديد وعمل الأحذية والملابس أما النساء فيستخدمن فى الغزل والخبز وبيع المياه فى الشوارع(٢٤).

وبعد أن ترك كلابرتون كانو ذهب إلى سكوتو حيث استقبله سلطان بللو مرحباً ولكنه رفض أن يدعه يكمل رحلاته إلى النيجر رغم أن النهر كان يقع على بعد ١٥٠ ميلا فقط من المدينة ولهذا اضطر كلابرتون إلى العودة إلى الشرق حيث قابل دينهام فى كوكا وعادا الاثنان إلى طرابلس ومنها إلى انجلترا فوصلاها فى يونيو سنة ١٨٢٥ .

الرحلة الثانية : من سنة ١٨٢٥ — إلى سنة ١٨٢٧ (كلابرتون ولاندر)

ولم يلبث كلابرتون أن دعته وزارة المستعمرات البريطانية لكى يقوم برحلة جديدة إلى داخل أفريقيا عن طريق آخر من ناحية الجنوب من ناحية نهر النيجر وأن يقيم علاقات مع سلطان بللو الذى رغب أن يعقد معاهدة مع انجلترا .

وبعد أن تركوا الساحل مات اثنان من رفاقهما وأصر الثالث على أن يتبع طريقاً آخر من ناحية داهومى فاضطر كلابرتون ولاندر أن يواصلا الرحلة بمفردهما فوصلا إلى بوسا حيث لقى بارك حتفه(٢٥).

وكانت الرحله سهله ميسورة إلى أن وصلا Wawa حيث تعطلوا من ٢١ مارس إلى ٥ أبريل بسبب إحدى المغامرات الطريفة التى صادفوها وتتلخص فى أن أرملة

(24) Perham. p. 91
Records of Captain Claperton, last Expedition vol. 11. p.67
(25) prham p. 92

ثرية من أصل عربى تدعى زوما كانت متزوجة من أحد رجال واوا البارزين ترك لها ثروة طائلة ولم يكد يموت زوجها حتى بدأت ترنو إلى تزعم الحكم ومنافسة الأمير محمد الذى شن عليها هجوماً قبض عليها وعلى عبيدها وأخيراً أطلق سراحها بعد تعهدها بعدم إجراء محاولة مماثلة . . المهم أنهـا وقعت فى حب لاندر وكان يشجعها على ذلك كلابرتون على سبيل المزاح ولذلك كانت تـكثر من إرسـال الهدايا لهما وقدأفهمها لاندر أنه لا يمكن أن يتجاوب معهافاتجهت نحو كلابرتون وبدأت تتلطف معه وقداستخدمت باسكو (أحد أصدقاء كلابرتون من الهوسا) لـكى يوفق بينهما وكانت تدعوه إلى منزلها لـكى يرى ثرائها وعبيدها وممتلـكاتها التى سيشار كهافيه إذا وافق على أن يتزوجها وعندما ترك كلابرتون البلدة إلى بوسا لفترة قصيرة ارتدت زوما أفخر ثيابها ولحقت به . وقد كان ذلك سبباً فى منع لاندر من[٦٢] مغادرة البلدة حيث كان مستعداً للسفر إلى Coulfo وقد استبقاه الملك كوديمة لديه حتى ترجع زوما التى هربت مع كلابرتون للتآمر على عرشه وفرض عليه حراسة من ١٢ جنديا ومع ذلك استطاع أن يهرب ويشق طريقه إلى بوسـا وعند الغروب عبر نهر الميفا أحد فروع النيجر الذى يؤدى إلى الجزيرة ودخل المدينة حيث رحب به الملك والملـكة وأخبراه أن كلابرتون ترك بوسـا وقد بالغا فى إكرامه حتى أن الملـكة كانت تعد له الطعام بيديها وفى اليوم التالى عاد إلى واوا فى حراسة رجلين ويقول لاندر فى مذكراته عن الرحله :

وبعد أن تركوا واوا عبروا النيجر عن طريق بوسا متجهين ناحية الجنوب الشرقى إلى كانو حيث وصلوها فى ٢٥ يوليو وقد أصيبا بالحمى فى الطريق وبعد وصولهما إلى كانو ظل لاندر مريضا وقرر كلابرتون أن يرحل إلى سوكوتو وحده كى يقابل سلطان بللو ثم يعود بعد ذلك ليأخذ لاندر وحاجياتهم ويكشف المدينة

---

(62) prham, P98

ولـكنه وهو فى طريقه إلى سكوتو علم أن بللو ترك سكوتو على رأس حملة ضد بورنو ولذلك لم يصل كلابرتون إلى معسكر السلطان الا فى ١٥ أكتوبر حيث وجده مشغولا بالحرب وغير مستعد للدخول فى علاقات أو توقيع اتفاقية مع إنجلترا وقد تأثر كلابرتون لفشله فى عقد معاهدة مع سلطان بللو وعند ما لحق به لاندر فى ٢٣ ديسمبر وجده مريضا ثم مكثا فى ضواحى سكوتو حيث كانا يقضيان أوقاتهما فى القراءة وأحيـــانا كانوا يرددون بعض الأغانى الأوربية مما كان يلفت نظر الأفريقيين لهما واستمر هكذا حوالى شهرين وكان شيخ بورنو قد دخل بوسا فى ذلك الوقت بجنده وكان على وشك وضع حصار على مدينة كانو ثم يتجه بعدها إلى سكوتو ولما سمع الناس ذلك هربوا إلى بلدة Magaria فاضطر كلابرتون ولاندر أن يحذوا حذوهم ولـكن الأحداث لم تأت كما توقعوا فعادوا مرة أخرى إلى سكوتو وبعد أسبوعين وقع كلابرتون فريسة المرض وظل لاندر يمرضه أسبوعا ولما تعب من المهام العديدة التى كان يقوم بها وخاصة أن الحرارة الشديدة كانت سببا فى زيادة وطأة المرض على كلابرتون .

واستمر كلابرتون مريضا وازدادت حالته سوءا فنادى لاندر وشكره على على خدمته له وأوصاه أن يحافظ على أوراقه ويتصل فور وصوله لندن بوزارة المستعمرات ويودعها الأوراق (٢٧) وأن يذهب إلى سلطان بللو ويقترض منه بعض النقود ويشترى بعض المؤن ويسافر فى قطار التجار العرب إلى فزان وعند وصوله إلى مرزوق يتصل بمستر وارنجتون القنصل البريطانى فى طرابلس وهو سييسر له مهمته إلى لندن ونصحه أن يلاحظ جيدا المدن والقرى التى سيمر بها وأن يدون كل الملاحظات والأشياء البارزة من المناطق . ولم يلبث أن مات فى ١٣ أبريل فأرسل لاندر إلى سلطان بللو يستأذنه فى دفن الجثة وفقا لتقاليد إنجلترا فوافق

27— Records Vol 11 p. 76 and Prham, p. 95—96

وأرسل له أربعة عبيد لحفر القبر فحملوا الجثة ووضعوها على ظهر جمل ملفوفة بالعلم البريطاني إلى جنوب شرق المدينة حيث دفنت هناك ويقول لاندر عن كلابرتون « لقد مات في عنفوان قوته وقد درس الشخصية الأفريقية من جميع نواحيها معنوية واجتماعية ومظهرية . . كان النيجرو يحبونه لبساطته في معاملتهم اما العرب فكانوا يكرهونه بسبب مظهره الرث ونظراته الحادة إليهم[٢٨] المملوءة بالفهم مما كان يرهبهم منه ولن أكون مبالغا إذا قلت أنه سيعيش في ذاكرة آلاف الأفريقيين ولا شك أن بعضهم سينظر إلى فترة زيارته لبلادهم على أنها تعد عصرا جديدا وبداية لتأريخ الأحداث التي تلتها والتي أثرت فيهم[٢٩].

عودة لاندر إلى انجلترا

كان على لاندر أن يعود إلى لندن بأوراق سيده وكان كلابرتون قد نصح لاندر أن يعود عن طريق الصحراء متتبعا نفس الطريق الذي اتبعه هو سنة ١٨٢٣ ولكن لاندر رأى أن يسلك طريقا آخر هو طريق Funda التي طالما سمع عنها في سوكوتو وهي أحد البلاد التي تقطع على نهر النيجر ومن هناك تتبع مجرى النهر حتى وصل إلى مصبه ورحل فعلا عائدا إلى كانو واتجه منها ناحية الجنوب ولكن عند ما وصل Dunrora التي تبعد يوما عن Fund اعتقله بعض فرسان الملك زاريا وأمروه بالعودة معهم إلى سيدهم فاضطر أن يخضع لأوامرهم وجمله هذا يؤجل تحقيق أمله في حل مشكلة النيجر فعاد إلى باداجري من نفس الطريق الذي سلكه مع كلابرتون في الرحلة الأخيرة ووصل بورتسموث في ٣٠ أبريل سنة ١٨٢٨ وبعد أن سلم أوراق سيده عكف على كتابة نبذة

---

38 Ibid. p. 77 -78
29— Ibid. p. 83

صغيرة عن مغامراته فى أفريقيا طبعت فى سنة ١٨٢٩ مع Clapperton's narrative of a second expedition into the interior of Africa.

رحلة لاندر الثانية

وقد استطاع لاندر رغم صغر سنه (٢٥ سنة) ورغم أنه كان خادما أن يقنع اللورد بازرست ليرسله إلى أفريقيا مرة أخرى لتتبع نهر النيجر من بوسا إلى مصبه وأخذ معه أخاه الصغير جون .

وبدأت رحلة لاندر الثانية فى ٩ يناير سنة ١٨٣٠ ووصل باداجرى فى ٣١ مارس متتبعا الطريق القديم إلى Kaima وفى ٢ يونيو شاهدوا احتفالا كبير حضره الملك وجميع أهل القرية مرتدين أفخر ملابسهم وكان الملك يركب حصانا فخما أما زوجاته وأولاده فكانوا يجلسون بجوار لاندر على الأرض وبعد ٣ أيام تركوا Kaima ومروا بواوا حيث حدد لاندر معرفته بزوما ثم وصلوا البوسا[٣٠] فى ١٧ يونيو وجعلوا البوسا مركزهم الرئيسى ومنه زاروا Youri حتى ٢٠ سبتمبر وقد عامله الملك والملكة بلطف وترحاب كما فعلوا معه أولا ثم اتجهوا إلى Bacaua بين نهر النيجر وينو ثم مروا بصخرة بيضاء ارتفاعها حوالى ٢٠ قدما ويغطيها عدد كبير من الطيور البيضاء ولذلك أسموها « الصخرة البيضاء » وهى تبعد عن قرية باكا حوالى ٤ أميال وكان المفروض أن يمروا فى النهر من ناحية الجنوب الشرقى الممر الطبيعى للنهر ويبلغ اتساعه حوالى ثلاثة أميال ولكنهم مروا من ناحية الغرب فأوشكوا أن يضيعوا فى أحد الدوامات المائية ولكنهم استطاعوا بشق الأنفس أن ينقذوا القارب من الغرق والمسافة بين هذه الصخرة

(30) prbam p. 100

والشاطىء ربع ميل وكان الرجال على درجة من الأعياء والجوع شديدة فرسوا[٣١] على الجانب الأيمن للشاطىء ولـكنهم لم يلبثوا أن وجدوا ان المنطقة خالية تماما من أى أثر للحياة سوى بعض بقايا خشب محترق ولاحظوا على المدى البعيد وجود حشائش وأرضا مزروعة فاستنتجدوا أن هذا المـكان كان فيه سوق . . . فأرسلوا بعض الرجال للبحث عن خشب لاشعال النار فاكتشف هؤلاء الرجال وجود قرية وأكواخ وناس لم يفهموا لغتهم ولا صنعتهم نخافوا منهم وفروا من أمامهم ولم تمر لحظات حتى كان رجال القرية جميعهم قد تجمعوا برماحهم وأقواسهم وصرخوا صرخة الحرب فتقدم إليهم لاندر واخوه وأخذا يقومان ببعض الحركات التى تنم عن الاحترام وحب السلم واذا به يجد زعيمهم بركم تحت قدميه ويعلن الطاعة ويصرخ فى قومه فيتحول حركاتهم العدائية إلى حركات هستيرية[٣٢] بين غناء ورقص وأخيرا عثر لاندر على أحد الشيوخ الذى يعرف لغة الهوسا والذى نقل اليه فكرة الزعيم عنهم وهى أنه كان يعتقد أنهم قدموا من الشاطىء الآخر كى يسلبوه عبيده وسوقه ولذلك دعا إلى الحرب ولما رآهم بيض الوجوه عزلا من السلاح اعتقد أنهم ملائكة من السماء فتركهم لحالهم .

وفى ١٥ نوفمبر وصلوا إلى بلدة Brassa وبعد عدة متاعب صادفتهم مع كابتن أحد السفن الانجليزية أبحروا من الدلتا عن طريق مصب Nun إلى فرناندويو التى وصلوها فى أول ديسمبر ثم عادوا إلى انجلترا عن طريق البرازيل فوصلوا لندن فى يوليو سنة ١٨٣١ حيث كافأته الجمعية الجغرافية بالميدالية الذهبية ثم كتب الشقيقان معا مذكرات الرحلة التى صدرت فى ثلاثة مجلدات سنة ١٨٣٢ .

---

(31) prham p. 101

(32) prham p. 102

نتائج الكشف والآثار السياسية التي ترتبت عليه

١ — وصل منجوبارك إلى النيجر في رحلته الأولى سنة ١٧٩٥ واكتشف اتجاهه ناحية الشرق وكشف أهميته الجغرافية ولم يبق سوى معرفة من أين ينبع النهر وأين يصب وفي رحلة بارك الثانية أبحر بارك في نهر النيجر وقطع أكثر من نصفه ولكنه قتل بالقرب من بوسا سنة ١٨٠٦ وبموت بارك ضاعت تسجيلاته عن رحلته الثانية وبدأت الجهود من حيث انتهت رحلته الأولى .

٢ — وصل لانج Laing سنة ١٨٢٢ إلى نتيجة طيبة وهي تحديد مكان منابع النيجر .

٣ — وصل كلابرتون وخادمه لاندر سنة ١٨٢٦ إلى بوسا عن طريق بنين .

٤ — وصل لاندر وأخوه جون إلى النيجر سنة ١٨٣٠ عن طريق باد اجرى . وقد نزل عند بلدة youri وبذلك أبطلا الشك في حقيقة منابع المجرى .

٥ — سار لاندر في رحلته الثانية سنة ١٨٣٢ في النهر حتى ربا Rabba

وفي الواقع أن ما أضيف إلى المعلومات الخاصة بالنيجر في أثناء العقدين الأخيرين من القرن التاسع عشر كان معظمه من عمل الضباط الفرنسيين وذلك ابان عمليات التوسع الفرنسية في السودان الغربي .

٦ — ففي سنة ١٨٨٣ أنزل الفرنسيون قاربا مسلحا أسمه النيجر لحماية المواقع الفرنسية التي كانوا قد أسسوها حديثا وفي سنة ١٨٨٧ أمتدت رحلة القارب المسلح حتى وصل إلى ميناء تمبكو وبذلك صحح تخطيط النهر جنوبا حتى هذه النقطة .

٧ — أظهرت رحلة الافتنانت دى شيفينيه سنة ١٨٩٦ أن المنطقة من أسونجو إلى تمبكتو في النهر تعترضها عوائق وعقبات كثيرة .

٨ ـ أما دلتا النيجر فقد مسحت مجزأة منذ أصبحت فى حوزة بريطانيا بواسطة ضباط رسميين من موظفى شركة النيجر الملكية :

٩ ـ كشفت رحلات السائح الألمانى كراوس شمال ساحل الذهب سنة ١٨٨٦ ورحلات الكابتين الفرنسى بنجيه من السنغال إلى ساحل العاج سنة ١٨٨٧ الأمتدادات الشمالية لاحواض المجارى فى غينيا وبخاصة الفولتا والكوموى وبذلك وضح ما كان ناقصا من الفروع الهامة فى منحنى نهر النيجر وقد عبرها لأول مرة الكولونيل الفرنسى مونتيل سنة ١٨٩٩٠ والقى الضوء على نهاية الحوض الشرقى حيث وضح مجرى البنوى .

وقد أضاف سياح ألمان أخروز معلومات عن الفروغ الجنوبية وهى التارابا Tarraba والدنجا Donga .

١٠ ـ اكتشف الكابتن لينفانت سنة ١٩٠٣ مستنقعات تبورى وتلال لاتا واستمر فى صعوده فى النهر حتى منبعه وكانت كل هذه الرحلة من مصب النيجر إلى بحيرة تشاد عدا الدوران حول شلال لاتا وابتداء من عام ١٩٠٤ قام الفرنسيون بالعمل فى نهر النيجر بين باماكو حيث تصل سكة حديدية إلى السنغال وأنسونجو وذلك بتعميق القناة وازالة العقبات النهرية .

وفى سنة ١٩١٠ بدأ البريطانيون الحفر من المصب إلى بارو بعمق ٦ أقدام .

أما الآثار السياسية التى ترتبت على اكتشاف النيجر : فهى استعمار منطقة غرب أفريقيا عن طريقة الشركات التجارية والبعثات التبشيرية .

وقد انتهى اكتشاف النيجر من الناحية الجغرافية بانتهاء رحلة لاندر ومنذ ذلك الوقت فتح الطريق لاختراق الساحل الغربى إلى قلب أفريقيا وكانت هذه بداية فتح آفاق جديدة للتجار والمغامرين .

وقد كانت رحلة لاندر الثانية لهذا الغرض من أجل التجارة وفتح آفاق جديدة لبريطانيا فى منطقة نهر النيجر وفى هذه الفترة كانت أوربا قد بدأت تكشف مدى أهمية أفريقيا لها ولاقتصادها الناشئ سواء سوقا لاستهلاك السلع أو مصدرا للمواد الاوليه بعد أن بدأ رجال الحكم يقتنعون أن المستعمرات يمكن أن تكون موردا للثروة وصاحب ذلك فكرة تحريم تجارة الرقيق اذ أن توطين (٣٣) الاوربيين يحتاج إلى هؤلاء الافريقيين .

وفى سنة ١٨٤١ أرسلت الحكومة البريطانية بعثة لمسح النيجر ونشر المسيحية وتحريم تجارة العبيد ولكنها فشلت فارسلت بعثة أخرى برئاسة Richardson وكان من بين أفرادها اثنين من الالمان Barth', overweg وقد بدأت الرحلة من طرابلس سنة ١٨٥٠ حتى وصلوا بحيرة تشاد حيث مات قائد البعثة وحل مكانه الرحالة الالمانى Barth الذى استمر يواصل الرحلة بعد أن أنضم له الرحالة Vogel الذى كان له الفضل فى اكتشاف جنوب بحيرة تشاد وقد قطعوا المسافة من تشاد إلى النيل ولكن Vogel قتل فى واداى أما Barth فلم يعد إلى انجلترا الا بعد خمس سنوات . وخلال السنوات العشر التالية أرسلت سبعة بعثات للبحث عن Vogel ولم يصل منها إلى واداى الا بعثة واحد ولكن رئيسها مات بدوره هناك (٣٤) .

وكان الاهتمام بالمنطقة التى عرفت فيما بعد بنيجيريا يرجع إلى أن مساحتها تعتبر من الناحية الجغرافية أكثر المناطق صلاحية للتجارة واخيرا انتهت مشكلة إقامة الحياة الاوربية على النهر . وكانت أول بعثة استقرت فى المنطقة هى بعثة Pabtish فقد اتخذت لها مقرا سنة ١٨٤٢ فى باداجرى ولحقت بها فى السنة التالية بعثة تبشيرية .

---

(33) Hobby p. 32 — 33
(34) Ibid p. 34

وقد قام Hobc-Waddell بفتح كنيسة للبعثة الاسكتلندية سنة ١٨٤٦ فى Galabor وكانت نتيجه ذلك أن زاد اهتمام بريطانيا بغرب افريقيا حتى أنها عينت Mr. Beecraft فى سنة ١٨٤٩ أول قنصل لها لحماية مصالحها فى خلجان بيافر وبنين .

وفى سنة ١٨٦١ قامت بريطانيا باحتلال لاجوس عسكريا بحجة تحريم تجارة الرقيق وكانت بداية انشاء الدولة التى عرفت فيما بعد باسم نيجيريا .
وفى نفس الوقت كان نفوذ البعثات البريطانية التبشيريه والتجارة ينتشر ويتوسع متخذا من لاجوس مركزا لنشاطه فى أرض النيجر .

وأمام المنافسة الفرنسية والالمانية وجدت الشركات البريطانيا ومن ورائها الحكومة الانجليزيه اتخاذ خطوة اكثر ايجابية لمواجهة هذه المنافسة فاندمجت كلها فى سنة ١٨٧٩ فى « الشركة الافريقية المتحدة » وعلى رأسها سير جورج جولدى وبذلك أمكن القضاء على المنافسة الفرنسية فى افريقيا الاستوائية ثم بدأت بريطانيا عملية التوسع والانتشار .

وقد قامت بريطانيا سنة ١٨٨٤ باعلان محمية Olive ptotoctorate التى تمتد من لاجوس حتى الكميرون وخلال السنوات العشر التالية توسعت هذه المحمية حتى شملت كل أراضى اليوروبا باستثناء « منطقة oil olive » وقد أعيد تسميتها من جديد فعرفت بمحمية ساحل النيجر سنة ١٨٩٣ (٣٥) .

بينما كانت انجلترا وفرنسا والمانيا تحاولان التوسع فى غرب أفريقيا وضعت انجلترا يدها على ساحل الذهب فبعد حرب مع الاشانتى اعلنت قيام محمية فى

(35) Hobby, p. 50

المنطقة الشمالية التى وصلت إلى ٤٠٠ ميل فى منطقة السافانا وفى سنة ١٨٨٤ اعلنت المانيا الحماية على توجولاند وبذلك منعت انجلترا من التوسع نحو الشرق.

أما فرنسا فقد وضعت يدها على السنغال حيث كانت قد استولت على داهومى وساحل العاج وسيطرت على غرب بحيرة تشاد ووقفت سدا منيعا أمام التوسع البريطانية وهكذا وصلت انجلترا وفرنسا وألمانيا إلى بحيرة تشاد واقتسموا مساحتها فيما بين سنة ١٨٩٠ . سنة ١٨٦٣[٣٦].

عواطف عبد الرحمن

---

(36) Hobby.

المراجـــع

المراجع العربية :

١ — محاضرات عن اكتشاف أفريقية — الدكتور زاهر رياض

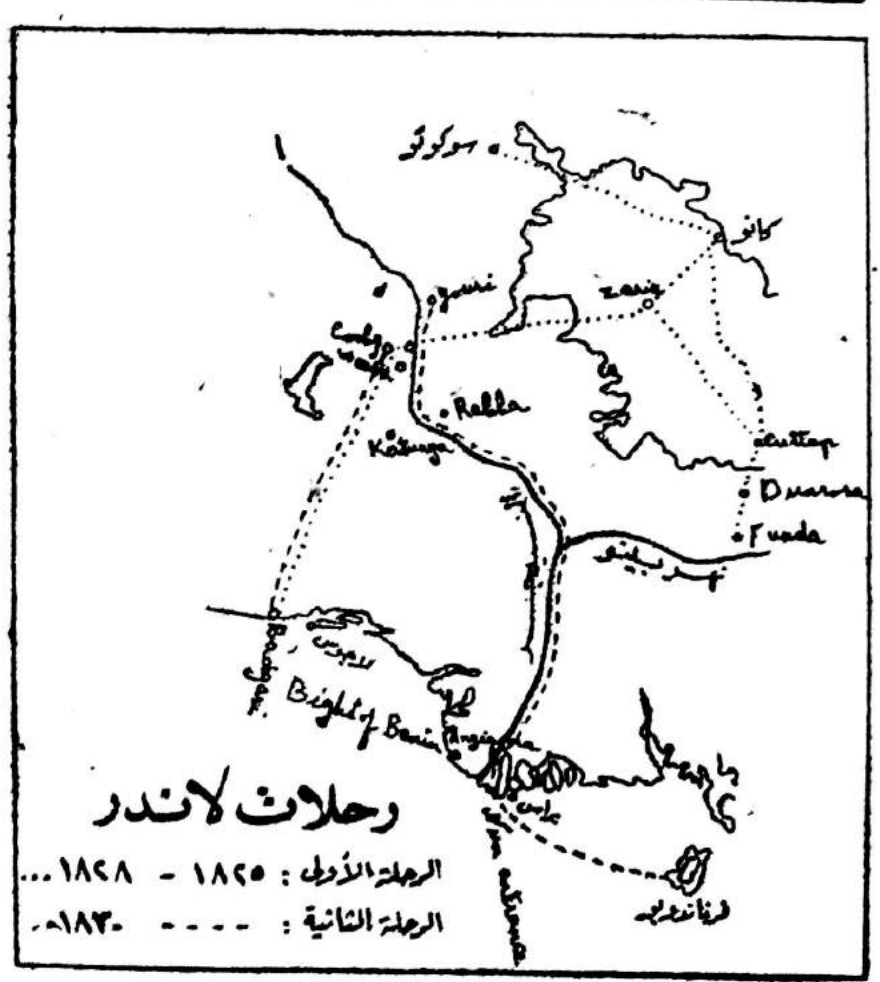
٢ — أفريقيا بين الدول الاوربية — الدكتور محمد صفي الدين

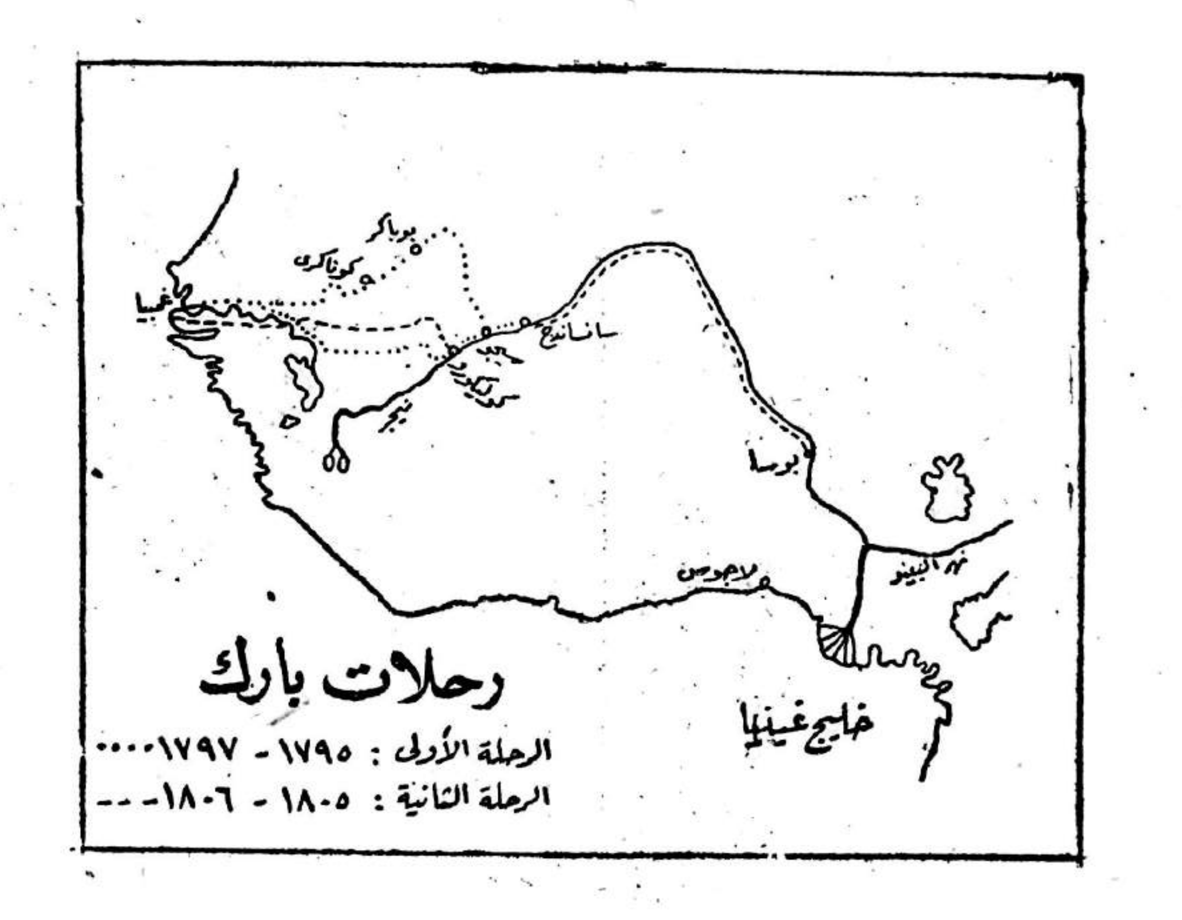
٣ — محاضرات عن جغرافية أفريقيا — الدكتور محمد رياض

المراجع الأجنبية :

(1) M. Perham. African Discovery.
(2) Percy Sykes, History of Exploration.
(3) Geographie universelle. P. 11.
(4) Hobby. Opening Africa.
(5) James. S. Coleman. Nigeria.
(6) Encyclopedia Britannica, ed, 11.
(7) Record of Captain Clapper 's Last Expedition Vol. 11
(8) M. Pask, Trsavels in the intesior of Africa.


البحر الأبيض المتوسط
غدامس
SAHARA
تمبكتو
النيجر
سوكوتو
تشاد
بوسا
نهر البينو
اشانتي
باداجري
فرناندوبو
رحلات كلابرتون
الرحلة الأولى : ١٨٢٣ – ١٨٢٥
الرحلة الثانية : ١٨٢٥ – ١٨٢٧


سوكوتو
كانو
Rabba
Funda
Bight of Benin
رحلات لاندر
الرحلة الأولى : ١٨٢٥ – ١٨٢٨
الرحلة الثانية : – – – – ١٨٣٠م


رحلات بارك
الرحلة الأولى : ١٧٩٥ - ١٧٩٧....
الرحلة الثانية : ١٨٠٥ - ١٨٠٦---
خليج غينيا
نهر البنيو
لاجوس
بوسا
نيجر

كشف الكنغو

بدأ اهتمام الاوروبيين بالكونغو فى أواخر القرن الخامس عشر . وكان ذلك عن طريق البرتغال . إذ وصلوا إليه واطلقوا علية اسم بادرو ومعناها النهر العظيم ولم تتسم سياسة البرتغال هنا بما اتسمت به فى المحيط الهندى من غزو وسيطرة عسكرية أو أستغلال تجارى . بل كان التاج البرتغالى يرمى إلى تكوين تحالف مع سيد الكنغو بغية نشر الثقافة المسيحية الأوربية وكذلك إلى عقد اتفاقات اقتصادية.

فى سنة ١٤٨٣ وصل إلى مصب الكونغو اشهر بحار برتغالى . هو الكابتن ديوجو كاوو وسماه نهر الزازوهى ترجمة لاسم محلى معناه النهر الذى يبتلع كل الأنهار ووضع رجاله بعد اقامتهم على الشاطىء الأيسر نصبا تذكاريا يسجل وصولهم .

واتخذت الاستكشافات فى هذه البقعة طابعا دينيا بتوجيه من الأمير هنرى الملاح .

وفى سنة ١٧٨١ حاول البرتغاليون محاولة جديدة ولكنهم لم يلبثوا ان أدركوا حالة البلاد المرتبكة فانسحبوا عائدين إلى لواندا

ولاحظ المستكشفون أن ليس فى الكونغو دولة موحدة كما توقعوا بل كان مقسما بين كثير من الزعماء يربطهم بالملك ولاء أسمى . وكثيرا ما أعلن الزعماء تمردهم عليه

وتبع ذلك فترة صمت طويلة تخللتها محاولات نادرة غير هامة وأن أنشئت عند مصب النهر بضع مستعمرات اوربية لتجارة السلع والرقيق

وفى سنة ١٨١٦ قامت حملة بريطانية بقيادة جيمس كنجستون تاكى لكشف

هذا النهر. ووصفت الحملة الكونغو الأدنى إلى ١٧٠ ميلا تجاه الشرق. وكان غرضه، كشف منابع النهر وروافده وكتب يقول أن اندفاع النهر هائل حتى لا تستطيع سفينة ما الاتجاه ضد التيار

وكانت الحملة تتكون من ٥٦ أوربيا ولكن مات قائد الحملة و١٦ أوربيا وبعض الحمالين من الأهالى بعد ثلاثة شهور وكان لعداء الأهالى وقسوة المناخ وكذلك عدم خبرة هذه الطليعة من المغامرين أثرها فى هذا الفشل

ومن ذلك الحين زارت سفن كثيرة بعض بلاد هذا النهر فى اوقات مختلفة وزاد الضباط البحريون معلومات العالم عن عمق النهر وتياراته منهم الدكتور باستيان سنة ١٨٥٧ والرحالة الألمانى البارز

وفى سنه ١٨٦٦ شرع الدكتور لفنجستون فى إعداد حملة للتأكد من منابع المياه فى المنطقه بين نياسا وتنجانيقا ولكن اخباره لم تلبث أن انقطعت فاهتم العالم بالبحث عنه وندب لذلك المستر ستانلى

والاسم الحقيقى لمستر ستانلى هو جون رولاندز. أمضى طفولته فى ملجأ لليتامى وهرب إلى أمريكا حيث قاتل فى الحرب الأهلية ثم اتجه إلى الصحافة وصحب الجنرال هانكوك فى حملة ضد الهنود الحمر بصفته مراسلا لصحيفة ميسورى ديمو كرات وأغرت تقاريره نيويورك هرالد فبعثت به مراسلا لها فى حملة انجلترا ضد الملك تيودور ملك أثيوبيا فى سنة ١٨٦٧ .

وفى عام ١٨٦٩ استدعاه المستر جوردون بنت إلى باريس وكلفه بمهمة البحث عن لفنجستون فى أفريقيا الاستوائية .

كانت زنجبار نقطة البداية وكان ذلك فى مارس سنة ١٨٧١ فوصل إلى أوجيجى فى نوفمبر من نفس السنة حيث التقى بلفنجستون[١]. وبالرغم من أنه رفض أن يعود معه إلى أوروبا إلى أنهما تعاونا معاً فى كشف نهر روسيزى واكتشفا انه يجرى إلى بحيرة تنجانيقا بثلاث مصبات فى تيار عنيف وبذلك حسما مسألة هذا النهر وقطعا بأن بحيرة تنجانيقا ليس لها اتصال ببحيرة البرت[٢].

عاد ستانلى إلى انجلترا يحمل خطابات لفنجستون حيث وضع كتابه عن رحلته فلقى استقبالاً أصابه بالكمد فقد شك كثيرون فى صدق قصته ومنهم رئيس الجمعية الجغرافية[٣]. ولكنه لم يلبث أن عاد إلى تصديقه وصحبه فى زيارة الملكه فيكتوريا . ثم ألقى بضع محاضرات عن أفريقيا ورحل إلى أمريكا .

وفى سنه ١٨٧٣ صحب الحملة البريطانية ضد الأشانتى فى غانة[٤] وعند عودته إلى انجلترا سمع بوفاة لفنجستون . فشعر أن رسالته لن تتوقف وأن اخرين لابد أن يذهبوا إلى أفريقيا .

وبعد أن انتهى من كتابه (كوماسى ومجدلا) بدأ يبحث عن الكتب التى تعالج أفريقيا من شتى نواحيها .

اهتدى ستانلى إلى عدة نقط كان يحيطها الغموض . فقد مات لفنجستون وهو يحاول حل مسألة اللوالابا . كما أن العالم لا يعرف سوى القليل من المعلومات عن بحيرة فكتوريا . أما بحيرة تنجانيقا فلابد أن لها مخرجاً ما دامت ليست بمالحة . وكذلك يمكن إلقاء بعض الضوء على بحيرة البرت[٥].

---

(١) دوروثى ستانلى ص ٢٦٤
(٢) ستانلى ص ١٦
(٣) برمام ص ٢٦٠
(٤) دائرة المعارف البريطانيه المجلد ٢١
(٥) دوروثى ستانلى ص ٢٩٧

وفى أبريل سنة ١٨٧٤ اتصل ستانلى بأصحاب جريدة الديلى تلجراف وأوضح لهم مشروعه الذى يتلخص فى القيام بكشف منظم يضم جميع المناطق التى تكتنفها الأسرار فى أفريقيا . ووافقت الجريدة ومعها النيويورك هرالد الأمريكية على أن يتعاونا معاً فى تمويل الحملة .

وفى أغسطس بارح ستانلى انجلترا إلى جزيرة زنجبار[٦] حيث اشترى كميات هائلة من مختلف أنواع الأقمشة والخرز والأسلاك النحاسية التى تعشقها القبائل الأفريقية التى ينوى اختراق بلادها . ويعترف ستانلى لسكان زنجبار من الوانجانا والوانيا بالفضل على المستكشفين الأوروبيين . فلهم يدين لفنجستون وبرتون وسبيك وجرانت بفضل تحقيق أهدافهم .

وفى ١٨٧٤/١١/١٢ أقلعت السفن من زنجبار فوصلت فى اليوم التالى إلى باجامويو وهى قرية على الشاطىء الأفريقى المقابل لجزيرة زنجبار . وبعد خمسة أيام بدأت الحملة خطوتها الأولى إلى داخل القارة . وكان الطابور طويلا يمتد إلى مسافة نصف ميل وكان الطريق إلى الداخل موازيا للطرق المعروفة ولكنه يبعد عن أى طريق سلكه الرحالة السابقون . ويفسر ستانلى ذلك بأن الوانجا يمكن أن يفروا عند كل فرصة تسنح وخاصة قرب مواطن العرب . وفى قرية كاشونجا اتخذ ستانلى دليلا يرشده إلى أوريمى ولكن الدليل ضل الطريق وأصبح الجوع يهدد الحملة[٧] . ولذلك قرر مواصلة السير إلى سونا وكانت وطأة الجوع شديدة على الحمالين الذين لم يترددوا فى نهب صوامع الغلال ، مما أدى إلى تلبد الجو بين الحملة والأهالى . ولكن ستانلى تمكن من إعادة الوئام بأن جلد السارقين أمام الأهالى .

---

(٦) ستانلى ص ٥ (٧) ستانلى ص ٦٩

وفى أول فبراير سنة ١٨٧٥ دخلت الحملة مانجوردا فى أوسو كوما وكان الصيد متوفرا مما اتاح وجبات طيبة

انحدر طابور الحملة فى الاودية وارتقى الحواف بعد الحواف · وعبر مجارى مائية ونهيرات ومر بقرى تفوح منها رائحة الماشية قوية نفاذة . إلى أن سمع ستانلى فجأة تهليلات الفرح آتية من مقدمة الطابور وعندئذ علم ان طلائع الحملة قد رأت البحيرة العظيمة وأتى إليه زميله فرانك بوكوك يقول بحماس : رأيت البحيرة انها الكبيرة ياسيدى[٨] .

وهكذا وصل ستانلى إلى بحيرة فيكتوريا احد اهداف حملته الكشفية وكان ذلك فى بلدة كاجيهى بعد أن قطعت ٧٢٠ ميلا فى ١٠٣ أيام فكان عليه ان يطوف بسواحلها فجهز قاربه وابحر ميمما شطر الشرق بمحاذاة شاطىء خليج سبيك وبعد ثلاثة عشر يوما وصل إلى خليج مانيارا وهو الركن الشمالى الشرقى للبحيرة[٩] .

واصل ستانلى الرحلة فى قناة نابليون وتمكن من مشاهدة شلالات ريبون حيث تسقط المياه فجأة من ارتفاع ثمانية اقدام ثم تندفع شمالا إلى نيل فيكتوريا.

وظل ستانلى ورجاله يلقون الترحيب والاكرام من رجاله الكاباكا . وفى الطريق إلى الكاباكا دخل ستانلى خليج مارتشيزون وعسكر فى الجانب الشرقى منه .

وفى صباح ١٦ ابريل سنة ١٨٧٥ بدأ ستانلى سفره إلى كاجيهى ولم يسلك نفس الطريق الذى أتى منه بل واصل سيره إلى الجنوب ووصل إلى جزيرة اليس ومنها اتجه إلى جزيرة اخرى تسمى باركر وظن الاهالى به سوءا بينما كانت الحملة

---

(٨) ستنلى ص ٩١ (٩) ستانلى ص ١٠٩

لا تحمل معها ما يؤكل . وبدأ الاهالى يهاجمونه ولكن رصاص بندقية ستانلى سيطر على االموقف .

وبعد ٧٦ ساعة من مبارحة جزيرة اليس رسا القارب على الساحل وزحف رجاله يستلقون على الرمال وهم فى حالة من الإعياء والجوع واستطاع ستانلى أن يصطاد زوجا من البط كما عثر رجاله على اربع سباطات من الموز الأخضر. وبعض التوت . كما تمكنوا بفضل الدليل من شراء اللحم والبطاطس واللبن والعسل والبيض والدجاج(١٠) واخيرا وصل ستانلى إلى كاجيهى فى الخامس من مايو سنة ١٨٧٥ بعد ان أمضى فى كشف البحيرة ٥٧ يوما .

وظل ستانلى فى كاجيهى ينتظر وصول بقية اصحابه بينما كان يستعد للسير إلى موريه عبر بلاد الملك رووما ولكن الملك بعث إليه حذره من المرور ببلاده ولذا عاد واستبعد فكرة الطريق البرى رغم خوف رجاله من الوانجوانا من الماء ولكنهم سرعان ما اكتسبوا مهارة فى التجديف واخيرا غادر كاجيهى فى يوليو ثم فى اغسطس بمصب نيل الكسندرا ووصل إلى ديمو فى اوغندة وعند نانكون ترك القارب واتخذ الطريق البرى . وتقدمت الحملة وجميع افرادها يسيرون على الاقدام حتى لقى الكاباكا بعد عودته من الحرب فى اكتوبر كى يأخذ منه قوة ترشده إلى طريق بحيرة البرت .

ولكن سمع ستانلى من اهالى بوغندا عن قوة تيار نهر كاجيرا مما بعث فيه الرغبة إلى استكشافه لأن الاهالى يعتبرونه (ام النهر) وقضى يجتازوادية مما جعل ستانلى يعتقد أنه حقيقة الراقد الرئيسى للبحيرة(١١) .

---

(١٠) ستانلى ص ١٥٣ .

(١١) ستانلى ص ٢٨٧ .

وبعد أن شاهد ستانلى بحيره وندرمير واصلت الحمله رحلتها إلى الجنوب فى شهر مارس سنة ١٨٧٦ وفى أبريل وصلت الحملة إلى لوهاجاتى وأخذوا ينحدرون مع الحافة الجبلية التى أدرك ستانلى اهميتها كخط تقسيم المياه بين روافد بحيرة فكتوريا ومنبع مالاجارازى الرافد الرئيسى لبحيرة تنجانيقا . وبذلك ترك حوض النيل نهائيا ودخل فى حوض الكونغو .

سارت الحملة إلى أوجاجا على نهر مالاجارازى ولم يحاول ستانلى أن يصل إلى بحيرة تنجانيقا عن طريق النهر لأنه غير صالح للملاحة

وفى مايو سنه ١٨٧٦ وصلت الحملة إلى اوجيجى بعد أن عبرت سته روافد لنهر مالاجارازى (١٢) وهناك التقى بالعرب أصدقائه القدامى الذين عرفهم حين عثر على لفنجستون . . واخذ يستعد للطواف بالبحيرة ووجهته الجنوب لأنه سبق أن أبحر فيها نحو الشمال بصحبة لفنجستون . فوصل إلى مصب نهر مالاجارازى وواصل سيره وهو يجمع المعلومات عن شاطىء البحيرة الشرقى حتى وصل إلى طرف البحيرة الجنوبى فى يوليو . وتأكد أنه على خط ٤٧ َ ٨ ْ جنوبا وبدأ يتابع الشاطى الغربى وهو يستكشف مصبات الأنهار حتى وصل إلى اللوكوجا الذى يخرج من البحيرة بفتحه يصل عرضها إلى ٢٥٠٠ ياردة لاتلبث أن تضيق إلى ٨٠٠ ياردة بعد ميل واحد ثم إلى ٤٠٠ بعد ميل آخر . ولكنه عاد إلى البحيرة وواصل سيره بمحاذاة ساحلها الغربى إلى الشمال حتى وصل إلى خليج برتون فى نهاية الشهر . ودخله فوجد طوله عشرين ميلا وعرضه من خمسه إلى سبعه أميال . ومن هناك عبر البحيرة عائدا إلى أوجيجى وهو يحاول سبر غور البحيرة . وبذلك تأكد ستانلى أن للبحيرة مخرجا واحدا هو لوكوجا كما تأكد أن ليس لهذه البحيرة علاقه بالبرت

وكان هدف ستانلى بعد ذلك اكتشاف نهر اللوالابا مبدأت الحملة تعبر

---

(١٢) ستانلى ص ٣٢٥ (١٣) دوروثى وستانلى ص ٣٦٤

تنجانيقا إلى ساحلها الغربى وتتبع الطريق الذى يستخدمه التجار إلى مانييما وبعد الصعود إلى ارتفاع ٨٠٠ قدما فوق سطح البحر وصلت الحملة إلى سلسلة جبلية تعتبر خط تقسيم المياه بين روافد اللوالابا وروافد بحيرة تنجانيقا . واخذ ينحدر نحو الغرب حتى شهد عند ميونجو اتصال اللواما باللوالابا . وبذلك قطعت المسافة بين البحيرة والنهر وهى ٣٣٨ ميلا فى ٣٣ يوما وعند مدينة نيانجويه وهى اقصى مكان يسكنه تجار من العرب على اللوالابا التقى ستانلى بحميد بن محمد المرجبى وهو المعروف بتيبوتيب وهو العربى الذى سبق أن صحب كرون عبر اللوالابا ودارت المفاوضات بينهما إلى أن انتهت بقبول الاخير أن يصاحب ستانلى ستين مرحلة تستمر كل واحدة منها أربع ساعات مقابل خمسة الاف دولار

وفى الخامس من نوفمبر سنة ١٨٧٦ بارح الجميع نيانجويه والغابة تبدو لهم على بعد . ودخلوها فى اليوم الثانى مودعين ضوء الشمس وبريقها . ويصف ستانلى هذه الغابة فيقول (لقد شهدت غابات قبل هذه ولكنها بالنسبة إليها تعتبر مجرد حزمة حطب) إذ لاقت البعثه متاعب جمة فى شق طريقها وسط الغابة الكثيفة المظلمة والأرض الطينية الرطبة . ولذلك نظم ستانلى فرقة بالفؤوس تتقدم الطابور لإفساح الطريق[١٤] وبدأ الحمالون وافراد الحملة يتذمرون بل أخذت شجاعتهم تتسرب حين رأوا الافاعى والحيوانات المفترسة بل سرى التذمر إلى تيبوتيب وأبدى رغبته فى فسخ العقد ولكن ستانلى اغراه بالمال على مواصلة الرحلة فرضى أن يسير عشرين مرحلة أخرى لقاء ٢٦٠٠ ريالا .

وفى ١٧ نوفمبر بعد مسيرة ١١ ميلا نحو الشمال الغربى وصل إلى قرية كامبونزو حيث رأى فى وسط القريه شارعا ضيقا صفت على جانبيه جماجم تبعد كل واحدة عن الأخرى عشرة أقدام . وسرعان ماعرف إنها جماجم بشريه فعرف ستانلى أن أهل

---

(١٤) ستانلى ص ٤١٠

القرية من أكلة لحوم البشر . ولذا احجم الرجال عن متابعة الرحلة معه إلى الغرب. ولكنه عرف كيف يقنعهم . فانقسمت الحملة إلى قسمين يرأس أولهما ستانلى وتسير فى القوارب بحراويرأس الآخر تيبوتيب متتبعين شاطىء النهر ، ولكنهم لاحظوا أنهم كلما وصلوا قرية هرب أهلها ، وأخذوا يصيحون صيحات الحرب وستانلى لا يمس شيئا من ممتلكاتهم خوفا من أن يخرجوا عليه من بين الشجيرات ويهاجموه [١٥]

و وصلت الحملة إلى نهررويكى الذى يتصل بنهر لفنجستون من ناحية اليسار فكان لا بد من نقل الفرقة البرية عبر نهررويكى . فبنى ستانلى معسكرا حصينا ليث ينتظر الفرقة البرية . ولكنها لم تلبث أن وصلت وتبين لستانلى انها كانت قدضلت الطريق واشتبكت مع الأهالى . وفعلا عبرت الفرقة البريه نهر رويكى . وواصلت الحملة سيرها على النظام السابق وصادف ستانلى ستة زوارق مهجورة فاستولى عليها واصلحها وربطها وكون منها مستشفى عائما . ونقل إليه المرضى بعد أن تفشت فيهم الدوسنتطاريا وتقرحات الاقدام والجدرى .

وفى ٢٨ نوفمبر سمع ستانلى خرير ماء مندفعا ولم يلبث أن وجه النهر يسقط عشرة اقدام فى مسافة نصف ميل فواصل فحصه للنهر مسافه ميلين إلى أن كاد يقع .

وكانت طريقة ستانلى فى تخطى المندفعات المائية هى أن يرفع الحمالون القارب من النهر وكذلك زوارق المستشفى ويحملوها على رءوسهم إلى ما بعد المندفعات حيث يعيدونها إلى الماء . وهكذا استطاع أن يتخطى المندفعات الأولى فى مدى ساعة واحدة .

---

(١٥) ستانلى ص ٤٢٥

ولكن هروب السكان من وجه الحملة واختفاؤهم كان موضع التفكير من رجال الحملة لاسيما والمرض لم تخف وطأته . بل زادت الالتهابات الرئوية بل ظهرت حالتا تيفوئيد فكان فى كل يوم يموت واحد أو أثنان فيلقى بهم فى النهر وقد لجأ ستانلى إلى أسر بعض الوطنيين ويحسن معاملتهم كى يعرف منهم بعض المعلومات التى تفيده . او ليبعث معهم برسائله الشفوية إلى اخوانهم الهاربين .

وفى الثامن من ديسمبر وصل إلى ملتقى ليرا بلفنجستون فتوغل فيه ميلين ولكنه اسرع بالعودة بسبب عداء الاهالى . كما أن تاخر الفرقة البرية اضطره إلى التمهل فى السير بل اضطرته كثرة المرض إلى الوقوف حيث قذف إلى النهر بثمان جثث جديدة .

وفى جزيرة مبيكا تجمع الاهالى وفى نظرتهم عداء ظاهر ولكن ستانلى تمكن من اقناعهم بواسطة المترجين بنياته السلمية . وسرعان ما انتشرت الانباء ان الحملة صديقة فانقلب العداء صداقة واصبح القاس يستقبلونهم ويودعونهم بالدعاء . ولكن ذلك لم يمنع آخرين من ان يبدوا العداء ويرمون القافلة ببعض السهام من بعيد فكان يلجأ إلى اطلاق الرصاص فكان له دائما فعل السحر فى تشتيت الأهالى

وكانت كثرة المرض واشتداد الهجمات سببا فى ان يطلب تيبوتيب العودة . وحاول ستانلى ان يقنعه باكمال العقد ولكن شجاعة اصحابه كانت قد نفذت فلم يملك ستانلى سوى الموافقة على اخلاء طرفه على شرط أن يقدم له من يستطيع الاعتماد عليه فقدم له اثنين يصلحان للترجمة .

وفى المساء ادرك ستانلى انه على ارتفاع ١٦٥٠ قدما فوق السطح بحر فاستنتج من ذلك ان النهر لابد يتوغل مسافه إلى شمال خط الاستواء ثم ينحنى انحناءة كبيرة . مما يضعف احتمال وجود شلالات . او انه ينحنى مباشرة إلى

الـكونغو ثم يتدفق فى سلسلة من الشلالات الـكبيرة القريبة من بعضها[١٦] اما موعد وصوله إلى المحـــيط فـكان ستانلى يرى انه لن يتأخر عن اخر ابريل سنة ١٨٧٧ .

وفى ٢٨ ديسمبر بدا الجزء الثانى من رحلته معتمداً على نفسه فاخذت الانهار الفرعية تقابله فيجتازها . وكان اكبرها مصب نهر لوا الذى يصل عرضه إلى إلف ياردة . آتيا من الشرق ، ويقابله على الضفة اليسرى غابة كثيفة لا يمـكن اختراقها وتمـكن ستانلى من التفاهم مع الاهالى وعرف منهم انه بعد مسيرة رحلة واحدة صعودا فى نهر لوا يوجد شلال عظيم له صوت هائل . وكان اندفاع ماء النهر قد جعل ستانلى يعتقد انه لابد وانه توجد جبال عاليه غرب تنجانيقا وكان استنتاجه صحيحا حيث توجد الحافة الغربية للأخدود الافريقى .

واصلت الحملة رحلتها والاشتباك مع الاهالى جزء من حياتها اليومية . وقد استمرت الحرب التى دارت فى اليوم الثانى من العام الجديد ثلاث ساعات كاملة بين الحملة واهالى موانامارا الذين انضمت اليهم قرى كثيرة قريبة . ولـكن السلاح لاوربى كتب للحملة التفوق . وكان ذلك امرا طبيعيا . واسر ستانلى منهم بضعة رجال عرف منهم انه سوف يقـابل نهرا كبيرا من ناحية اليســار اطلقوا عليه اسم لومامى .

وواصلت الحملة سيرها . وبعد يومين مر بنهر عرضه مائتى ياردة اطلق عليه اسم ليوبولد ملك البلجيك .

وفجأة ضاق النهر وانحنى بشدة نحو الشمال الشرقى . ثم يهبط بشدة هبوطه

---

(١٦) ستانلى ص ٤٤٩

كبيرا له هدير عال . فكان هذا اول لقاء مع مجموعة الشلالات التى اطلق عليها اسم شلالات ستانلى [١٧] .

فكان لا بد من اجتيازه بالطريقة المعتادة وهى رفع القوارب على رءوس الحمالين إلى ما وراء الشلال. ولكن كان لا بد له اولا من شق الطريق البرى فارسل لذلك خمسين رجلا شقوا له طريقا بالفؤوس .

انحدرت الحملة مع النهر بالزوارق . ولكنهم لم يلبثوا ان سمعوا هديرا جديدا ولكنه اشد من سابقه فعسكرت الحملة فى جزيرة وسحبت زوارقها إلى مسافة خمسمائة قدم من الشلال حيث شاهدت المياه تندفع من خلال عدة فروع تتخللها الجزر . ثم بدأ يعمل ماعمله فى المرة الأولى . وهو شق الطريق بمحاذاة النهر فى الوقت الذى كان فيه الأهالى يهاجمونه .فجعل فريقا من رجاله يطارد هؤلاء المهاجمين حتى احلاهم . ثم قسم رجاله بعد ذلك فريقين يعمل احدهما نهارا والثانى ليلا على ضوء مشاعل من فروع الشجر والجميع فى حراسة رجال مسلحين . واستمر العمل ثلاثة ايام بلياليها .

وانزلت الزوارق من جديد إلى النهر بعد الشلال ولكنه لم يكد يتقدم حتى ضاق النهر بما فيه من الجزر واندفعت المياه بعنف اضطره إلى اللجوء إلى الطريق البرى مرة أخرى .

وفى العشرين من يناير واصلت الحملة سيرها والنهر يسير فى اتجاه الشمال الشرقى مما سبب له شكوكا كبيرة ، بالرغم من اتساع النهر وعمقه .

وعادت الحملة إلى التجديف فى الزوارق . ولكن بعد فترة يسيرة عاد الهدير

---

(١٧) ستانلى ٤٦٥

عاليا فكان ذلك الشلال السادس فقادت الحملة إلى شق طريق برى لها من جديد والأهالى يهاجمونها وانتهى الشلال السادس واذا بالنهر يتجه إلى الشمال الغربى فى عرض ألف ياردة . وفجأة انحنى النهر وسمع له هدير اعلى من كل هدير سابق مما حمل ستانلى يقول انه لم ير مثل هذا الشلال من قبل وحدد ستانلى موقعه ١٥ ' ٠° شمالا . كما كان ارتفاعه عن سطح البحر ١٥١١ قدما(١٨) . وبهذا انتهت الحملة بالتغلب على هذه الشلالات السبعة فى مدى ٢٢ يوما ، كانت اخطر ايام الحملة .

ويقول ستانلى بعد ان حدد مركزه انه كان على بعد عشرين ميلا شمالى خط الاستواء ومنذ شهد اللوالابا للمرة الاولى كان قد انحرف إلى الغرب ستين ميلا فى رحلة تقرب من اربعمائة ميلا موازيا لاتجاه تنجانيقا .

واصبح النهر يتجه غرب الشمال الغربى واتساعه الفا ياردة . ثم اتسع بعد جزيرة أوكيوبا إلى ٢٥٠٠ ياردة وعداء الأهالى لايهدأ . ولكن بنادق الحملة كتبت لها النصر وعند مصب نهر اروويمى علم ستانلى بوجود معبد من العاج .

وان العاج متوفر . يقول ستانلى (بعد دقائق كنت اقف امام المعبد العاجى . ولما كان الوانجوانا يريدون العاج فقد سمحت لهم بنقله إلى الزوارق) وبهذه البساطة يحلل ستانلى نهبه لاملاك الاهالى . وعلى كل حال فقد شهد ستانلى أن الأهالى كانوا مجتهدين اذكياء وانهم اكثر تقدما فى الفنون من اى اناس غيرهم ممن شاهدهم منذ بدأ انحداره مع النهر .

ويقول ستانلى أن اروويمى يصب فى لفنجستون عند نقطة تبعد ٣٤٠ ميلا شمال نيانجويه وعرض مصبه ألفا ياردة ولذا اعتبره ستانلى أهم روافد لفنجستون القادمة من الشرق .

---

(١٨) ستانلى ص ٢٨٤

لاحظ ستانلى أن النهر عند مصب ارو ريمى قد اتسع اتساعا هائلا وبدلا من تكونه من شاطىء أيمن وآخر أيسر يفصل بينهما خط من الجزر أصبح من ثلاثة إلى ستة فروع يفصلها عن بعضها سلاسل من الجزر الطويلة تغطيها غابات كثيفة وتتداخل أطرافها الواحدة بعد الأخرى .

وفى السادس من شهر فبراير سنة ١٨٧٧ لاحظ ستانلى أن النهر يتجه للمرة الأولى نحو الغرب ثم إلى غرب الجنوب الغربى . والتقى ببعض الوطنيين وسألهم عن اسم النهر فقالوا له ايكوتو يا كونجو فلم يعد لديه شك أن هذا النهر الرهيب هو نهر الكونغو وكان أكثر ما أثار عجب رجال الحملة حين وصلوا إلى قرية روبونجا هو رؤيتهم أربع بنادق برتغالية قديمة فى يد الأهالى . فكان ذلك مصدر فرح رجال الحملة جميعاً إذ تأكدوا أنهم لم يضلوا الطريق وأن الرحلة قد آذنت نهايتها .

وفى أورانجى وجدت الحملة أيضاً ست بنادق استعملها الأهالى فى مهاجمة رجال الحملة فقتلوا رجلا منها وبدا الموقف ميئوساً منه إلا أن أفراد الحمله استطاعوا الفرار بالزوارق واختفوا بين الجزر .

وتقدمت الحمله وتحاشت بعد ذلك إطلاق الرصاص على الطيور أوالحيوانات لئلا يكون ذلك مثاراً لحرب جديدة . فكان ذلك حائلا دون حصول الحملة على طعام .

وظلت الحملة تتقدم من طريق النهر والنهر يتسع حتى وصل إلى سبعة أميال وفجأة وجد ستانلى نفسه فى صباح يوم ١٣ فبراير سنة ١٨٧٧ وجهاً لوجه أمام مجموعة من الزوارق وتسع بنادق مصوبة إليه . وسرعان ما زادت البنادق المصوبة

إذ وصلت زوارق جديدة حتى بلغ عددها سبعين زورقاً مشحونة بالرجال المسلحين فتبادلت الحملة الرصاص فى عنف ولكنها استطاعت الإفلات . ويعزو ستانلى نجاحه إلى الدهشة التى أصابت المهاجمين إذ ظلوا ينظرون إليه فى غرابة كأنهم يشاهدون نوعاً غريباً من الكائنات للمرة الأولى وفى اليوم التالى وصلت الحملة بنجالا حيث قابله الأهالى بعداء وجرحوا خمسة من رجاله . وكان الأهالى يستقلون ثلاثة وستين زورقاً . ويحملون أكثر من ثلاثمائة بندقية بينما لم تكن الحملة تمتلك أكثر من أربع وأربعين ولكن ما أفاد ستانلى وجماعته أن مرمى بنادقهم كان أبعد من مرمى بنادق الوطنيين بكثير .

وأصبحت الحملة تسير نحو الجنوب . وظلوا متقدمين حتى وصلوا إلى نهر ايكيلمبا وهو نهر هائل يزيد عرض مصبه عن ألف ياردة ويصب من ناحية اليسار بتيار قوى ومياهه سوداء فكان هذا أعظم رافد اكتشف حتى حينئذ . ويبدو أنه بعد اتصاله بلفنجستون يسيطر على النصف الأيسر وترفض مياهه الاندماج مع مياه لفنجستون حتى ليتضح الخط الفاصل بينهما بسهولة بواسطة موجات متعرجة .

وعرف ستانلى من الأهالى أن هناك شلالا على بعد ثلاثين يوماً وبحث فيما معه من الخرائط عن اسم هذا الشلال فلم يجده فاستنتج أنه قد يكون شلال سندى الذى رآه تاكى . فتفاءل وعرف أنه لم يعد بعيداً عن الشاطىء الغربى لأفريقيا .

وبعد الخامس والعشرين من فبراير انقطعت الجزر وأصبح على الحملة أن تبحر فى نهر مكشوف ووصلت الحملة فى الثانى عشر من شهر مارس إلى المكان

الذى حمل فيما بعد اسم ستانلى بول . حيث اتسع النهر اتساعاً هائلا على شـكل حوض ضخم ترتفع على جوانبه صخور بيضاء ذكرت ستانلى ومساعده بصخور دوفر فأطلق عليها اسم (دوفر كلفس) وقدر مكانه فوجده ٣ ٤ ° جنوبا .

وسارت الحملة فى البحيرة متتبعه شاطئها الأيمن وما كادوا يجتازون بضع مئات من الياردات بعد خروجهم منها حتى سمع هدير شلال جديد هو الشـلال الأول من مجموعة شلالات لفنجستون .

وهنا اتصل ستانلى بالأهالى لشراء غذاء منهم وقابلهم الملك بالترحاب وقدم لهم ما يريدون ولـكنه رفض أخذ الثمن وفضل عليه عنزة كبيرة رآها مع الحملة وإذا ما أعطى إياها رحل إلى قريته كأنه يمتلك أعجوبة جديدة .

ويقول ستانلى أن المـكان فوق الشلال الأول من شلالات لفنجستون كان ارتفاعه ١١٤٧ قدماً فوق سـطح البحر بينما كان ارتفـاع النهر عند نيانجويه لا يزيد عن ٢٠٧٧ قدماً ومعنى ذلك أن النهر صالح الملاحة فى جميع أجزائه فيما عدا مناطق الشلالات . وبدأ ستانلى فى تخطى الشلالات وكانت ثلاثـاً أعظمها الأخير فاضطروا إلى تعبيد طريق طوله ثلاثمائة ياردة وسط الغابه . كاد الرجال يفقدون أثناءها الوعى . وبعد تعبيد طريق جديد طوله ثمانمـائة ياردة وصلت الحملة إلى اللفنجستون فى العشرين من مارس . ثم أمضوا الأيام الثلاثة التالية فى سحب الزوارق على الأرض مسافة ثلاثة أرباع ميل عبر نقطة صخريه واسعة . وسمع ستانلى من الأهالى أنه لم يعد أمامهم إلا شلال واحد فـكان ذلك أكبر مشجع لأفراد الحملة .(١٩)

---

(١٩) ستانلى ص ٥٤٠ — ٥٤٢

وبنفس الطريقة تخطت الحملة شلال كالولو إلا أن أحد الزوارق اتجه خطأ إلى وسط النهر فاندفع كالسهم ودار فى دوامة الشلال أربع مرات ثم سقط بمن فيه إلى الأعماق . وكان بين المفقودين أحد رجال ستانلى المخلصين وهو كالولو فسمى الشلال باسمه .

ووصلت الحملة إلى مندفعات ليدى أليس التى تتميز — كما يقول ستانلى — بمسقط عريض وبوجود جزيرة صخرية تعترض مجرى النهر . وعلى اليمين يرتفع حائط إلى ثلاثمائة قدم . ترتفع خلفه تلال إلى ١٢٠٠ قدماً مطلة على النهر وإلى اليسار مرتفعات أخرى . وكان ستانلى فى قاربه ، والقارب مربوط بحبال يمسك بها رجال على الشاطىء . وما أن بدأ يقترب من قمة المندفعات المائية حتى انحل أحد الحبال وجرف التيار القارب إلى وسط المجرى وذهبت جهود البحارة هباء وأخذت الأمواج تتقاذف القارب وهو ينحدر فى درجات الشلال . إلى أن أمكنهم الوصول إلى الضفة بعد أن كان أفراد الحملة فى أعلى الشلال قد يئسوا من نجاة ستانلى (٢)

وبالرغم من أن الهبوط الاضطرارى للقارب فى مندفعات ليدى أليس جعله يقطع مسافة ثلاثة أميال فى ١٥ دقيقة فإن انزال الزوارق بالحبال استغرق أربعة أيام .فلتفادى عنف التيار ربطوا كل زورق بثمانية حبال وخصصوا لكل حبل خمسة رجال . ورغم كل ذلك لم تمض ساعة دون حادث .

واصلت الحمله سيرها فى النهر ، حتى اقتربت من الشلالات التى حدثهم عنها الاهالى . فاستكشف ستانلى المكان فلم يكن للنهر مسقط واضح وكان عرض النهر لايزيد عن خمسمائة ياردة ، ومنحدرات تستمر ميلين . وفكر ستانلى أن هذا

---

(٢٠) ستانلى ٥٤٨

الشلال العظيم لا بد أن يكون الشلال الذى أشار إليه تا كى . فقرر ستانلى سحب زوارقه إلى أعلى الجبل ليمر عبر الهضبة إذ أنه وجد أنه من الضرورى مادام قد تتبع النهر هذه المسافة الطويلة ألا يضحى بجهوده وأنه يجب أن يحاذى النهر حتى النهاية . ومن أجل ذلك مهدت الحملة طريقا طوله ١٥٠٠ ياردة أثناء الليل . وفى ٢٦ أبريل سنة ١٨٧٧ كان القارب وزورق صغير قد وصلا إلى قمة الهضبة. فكان ذلك مثار دهشة الأهالى فاندفعوا يساعدونه فى إتمام العمل . فتقدم ستمائة رجل ظلوا يعملون يومين كاملين حتى كانت جميع الزوارق فى أعلى مكان فى الهضبة . وكان جزاؤهم على ذلك أربعين ثوبا من القماش .

وفكر ستانلى فى أن ينحت من أشجار الغابة الضخمة زوارق جديدة بدلا من تلك التى فقدها . فاستغرق نحت الزوارق ثمانية أيام . ثم سحبوها إلى ارتفاع ١٢٠٠ قدما ثم جروها مسافة ثلاثة أميال . ثم عادوا فنزلوا بها من هذا الارتفاع إلى النهر .

وكانت مفاجأة عندما أخبرهم الأهالى أن أمامهم خمسة شلالات(٢١) فتقدمت الحملة إلى الشاطىء وبدأت فى رفع الزوارق من جديد فوق الحافة الصخرية التى فصلتهم عن خليج صغير تحت أقدامهم . وفى اليوم الثانى تخطوا شلالات نسيتو.

وفى الخامس والعشرين من مايو سنة ١٨٧٧ وصلوا إلى مووا حيث وجدوا شلالا تسقط فيه المياه من ارتفاع اثنى عشر قدما والحائط الجبلى حوله يرتفع إلى أكثر من ثلاثمائه قدما . وعند تخطى هذا الشلال كاد قارب ستانلى يتحطم . فإن زميله فرانك كان قد اصبح عاجزا عن السير بسبب تقرح قدميه . كان يقود القارب وتسبب فى ارتباك رجل الدفة . فاصطدم القارب بصخرة أحدثت به ثغرة

---

(٢١) ستانلى ٥٦٠ .

كبيرة . ولكن أمكن الوصول إلى الضفة حيث رمم القارب وفى السابع والعشرين من مايو كانت جميع القوارب قد اجتازت الشلال .

ورغم كون الأهالى مسالمين إلا أنهم رأوا ستانلى يدون شيئا مافى مذكرته فارتابوا فيه وارتفعت صيحات الحرب لأنهم اعتقدوا أنه لابد يكتب سحرا سوف يدمر قريتهم ولكن ستانلى استطاع أن يخدعهم فقدم لهم أحد مجلدات شكسبير فى حجم كراسة المذكرات فاحرقوها وعاد إليهم هدوءهم .

وفى بداية شهر يونيو وصلت الحملة شلالات ماساسا التى تنتهى عندها الحوائط العالية التى تحيط بالنهر .. فظلت الحملة تمهد طريقا لسحب الزوارق براحتى التاسع عشر من يونيو . وكان الرحال فى أول أمرهم مترددين . فقد حل الخوف بهم ولكنهم سرعان ما ايقنوا بالموت سواء بقوا فى مكانهم أو رحلوا . فكان أن اقبل بعضهم على العمل وظل الباقون فى ترددهم . فأرسل ستانلى إلى المترددين يذكرهم أنهم مرغمون على أداء الخدمة التى تعهدوا بها فى زنجبار . وفى نفس الوقت أرسل إلى زعماء القرى يطلب منهم ألا يسمحوا لهم بالمرور بل عليهم أن يعتقلوهم . هذا فى الوقت الذى كانت فيه هداياه إلى هولاء الزعماء تعمى افكارهم . فلم يملك المترددين إلا الاشتراك فى العمل .

وفى مساء ٢٥ يونيو كانت الحملة قد اجتازت شلال زنجا وقال لهم الأهالى أن أمامهم ثلاثة شلالات أخرى فقال ستانلى أنه يرجو أن يكون الاخير هو شلال تاكى فتكون الملاحة بعدها ميسرة حتى شلالات بيلالا ثم بعدها يسافر إلى البحر بسرعة من يحس الجوع . ويكتب ستانلى فى ٢٦ من يونيو « منذ شهر انحدرنا مع شلالات مواوا العليا ولا زلت أراها فهى على بعد ثلاثة أميال فقط . ثلاثة أميال فقط فى ثلاثين يوما وفى هذه المسافة القصيرة غرق أربعة أشخاص »

تخطت الحملة مندفعات اينجولو فى وشلالات مبيلو وواصلت السير نحو مبا كا مبيندى وعند هذه الأخيرة يتسع النهر وتبتعد الجبال . فهى نهاية الخانق الضيق المحاط بالحوائط الذى تتبعوه منذ تركوا شلالات كالولو . والذى قضوا فيه ١١٧ يوما ، من ٢٩ مارس حتى السادس من يوليو . كما أن المسافة بين مبا كا مبيندى ونتامو الواقعة تحت ستانلى بول تبلغ ٩٥ ميلا قطعتها الحملة فى ١٣١ يوما .

والتقى ستانلى هنا بتجار من قبائل با كونجو وبازومبو آتين من الساحل . وحاول التجار أن يؤلبوا عليه الأهالى . فإن الرجل الابيض لايحل بأرض إلا ويسرع الخراب إليها . ورد ستانلى على ذلك بأن التجار يناصبونه العداء لأنهم يريدون أن يبيعوا لهم ماحصلوا عليه من التجار الاوروبيين بضعف ثمنه ولم يكن من الممكن أن يتصور الأهالى أن ستانلى لن يبيع لهم السلع بعد سنوات قليلة بضعف ثمنها فحسب ، بل وسيستولى على بلادهم بلا ثمن .

ووصل ستانلى وجماعته فى منتصف يوليو إلى شلال نتوميوماتا كا الذى قالوا عنه أنه آخر شلال . وكالعادة يقول ستانلى لا شك أنه شلال تا كى . وفى اليوم التالى عاونهم اربعمائة من الأهالى فى نقل الزوارق إلى أسفل الشلال .

وواصلت الحملة سيرها بالزوارق وتخطت مندفعات أونجوفو . ثم التقوا بأناس علموا منهم أن هناك كثيرا من المندفعات المائية ما زالت أمامهم . وعلى هذا الأساس الجديد أقلع ستانلى عن البحث عن شلال تا كى وبدأ يستعلم من الأهالى فأخبروه عن شلال يسمى ايسانجيلا التى قالوا عنها أنها على بعد خمسة أيام . فعرف ستانلى أنه قد اقترب من المحيط . وعندما أخبر رجاله بذلك جرى زعيمهم صافينى على أمل أن يصل البحر ! ولم تعثر الحملة له على أثر .

وفى الثلاثين من يوليو سنة ١٨٧٧ سمع ستانلى هدير شلال ايسانجيلا أو سانجالا الثانى كما سماه تا كى وكان يحيطه من اليمين مرتفعات تصل إلى ١٢٠٠ قدم

ومن اليسار مرتفعات أخرى ولكنها أوطى من مقابلتها إذ لا يزيد ارتفاعها عن ٩٠٠ قدما . ومسقط الشلال بينها يتخذ شكل الهلال . وكان الطعام هناك باهظا إذ طلب الأهالى مقابله بنادق وبارودا وروم . وقد عرف ستانلى من الأهالى أن المسافة الباقية بعد الشلال لن تزيد عن خمسة أيام [٢٢] كما علم أن تحت ايسانجيلا يوجد ثلاثة شلالات عظيمة وعددا كبير من المندفعات المائية .

ويقول ستانلى أنه عرف بشكل لا يقبل المناقشة أن اللوالابا الذى أودى سره بلفنجستون لم يكن غير زيرالعظيم أو الكونغو .[٢٣] وهكذا وصل ستانلى فى نهاية يوليو سنة ١٨٧٧ إلى تحقيق الهدف الأخير من أهداف رحلته الكشفية وهو تتبع اللوالابا الذى كشفه لفنجستون حتى أثبت ستانلى اتصاله بالكونغو .

ويعود ستانلى فيقول أنه لما كان هدف الرحلة قد تحقق لم أر داعيا إلى تتبع النهر أكثر من ذلك ، أى تبديد القليل الباقى من حيويتنا ضـــد الشلالات الأربعة الأخيرة .

وبارحت الحملة ايسانجيلا فى أول أغسطس فوصلت إلى تساندا بعد يومين وقدأرهق الجوع والمرض جميع أفرادها حتى كانوا جميعا يترنحون والدوسنتاريا والقروح والاسقربوط تمتص بقايا الحياة التى خلفتها المجاعة . ومن هذه القرية بعث ستانلى برسله تحمل خطابات إلى الاوربيين فى أمبوما يذكر لهم خبر وصوله ويستغيث بهم. فوصلته الامدادات الضخمة بعد يومين آخرين . وعن طريق رأس الرجاء الصالح عادت الحملة إلى زنجبار بعد أن غاب عنها ١٠٩٩ يوما .

---

(٢٢) ستانلى ص ٦٠٤

(٢٣) دورو فى ستانلى ص ٣٢٩

وفى الوقت الذى كان فيه ستانلى يخوض مجاهل نهر الكونغو خلال رحلته الأولى لاستكشاف هذا النهر والثانية من عداد رحلاته الإفريقية ، خافت فرنسا وهى أول الدول الاستعمارية ـ فى المجال الإفريقى ـ أن تكون نتيجة انفراد ستانلى به بالعمل فى حوض الكونغو التهام انجلترا لكل حوض النهر ولذا ودت لو شاركتها شيئا من هذا الخير . فارسلت رجلها برازا إلى الضفة اليمنى لهذا النهر وعلى وجه أدق غرب الجزئين الأوسط والأدنى من نهر الكونغو وهو الذى اطلق عليه فيما بعد أفريقيا الإستوائية الفرنسية . فوصل إلى مصب نهر لاجوا الذى كان يعتقد آنذاك أنه ذو صلة بالكونغو يصحبه الدكتور البحرى نويل بالاى وذلك فى نهاية سنة ١٨٧٤ وتتبع مجراه حتى وصل إلى الأجزاء العليا منه كما تتبع نهر إليما إلى مسافة ليست بالقصيرة ثم عادا من نفس الطريق الذى ذهبا منه فوصلا إلى الساحل فى نهاية سنة ١٨٧٥ وعادوا إلى باريس .

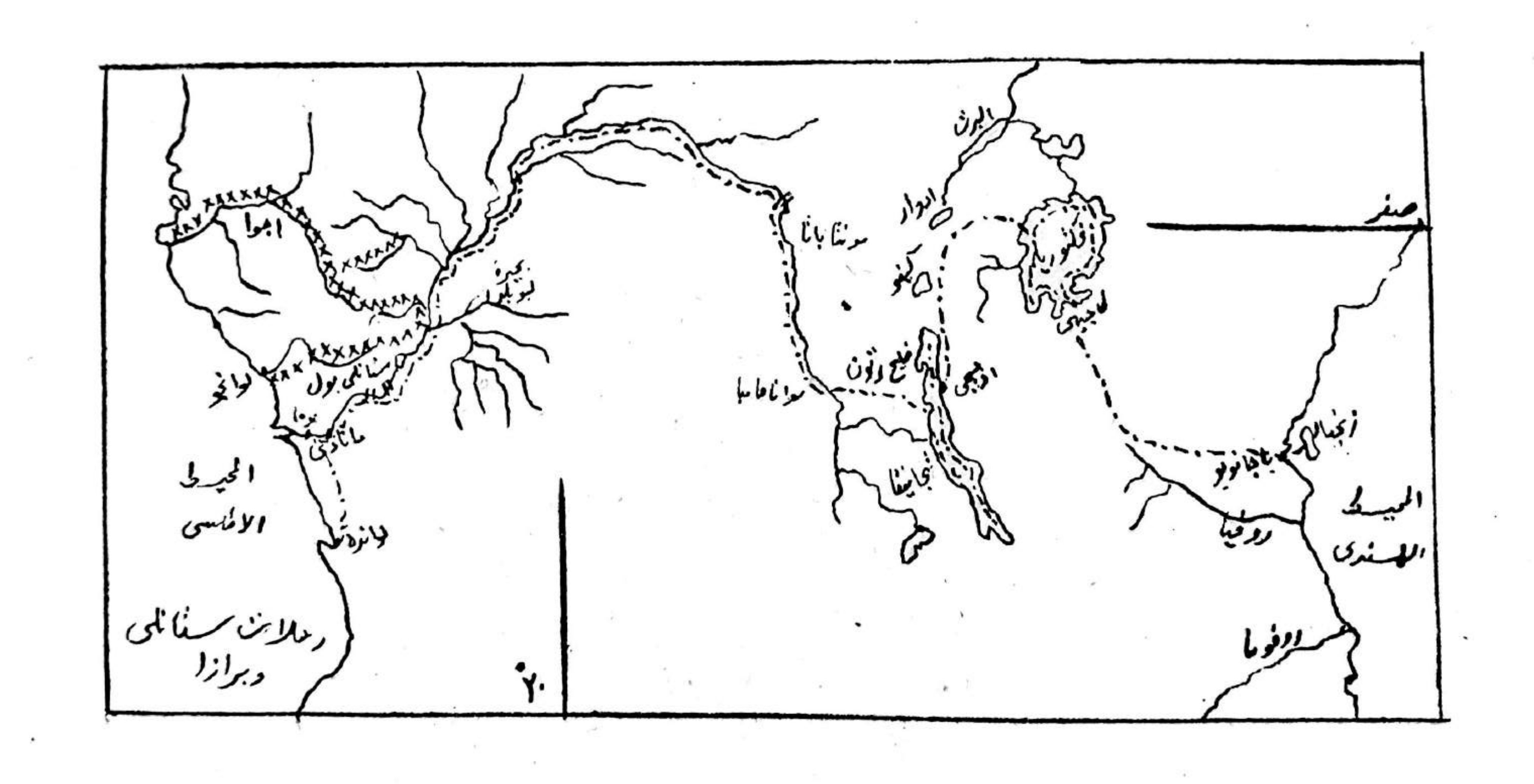
وأسرعت فرنسا بإرساله مرة أخرى فى بداية سنة ١٨٧٦ وستانلى لم يعد بعد من رحلته فاتجه كما فعل فى المرة الأولى إلى مصب لاجوا وتتبع مجراه وعمل على الاتصال بالاهالى لإقامة علاقات من الصداقة معهم وكان يسكن هذه الأجزاء الأيفمجا والأوكاندا وهى قبائل زنجية يشتغل زعماؤها فى الاتجار مع الأجزاء الداخلية وكان الرقيق أهم مواد هذه التجارة . وقد ساعده رؤساء هذه القبائل فى رحلته فقدموا له الأدلاء والحمالين بل كان الزعماء لايترددون فى السير معه فى بعض أجزاء رحلته وهو يصف هذه الرحله فيقول أنه وصل مع زعيم الأوكاندا إلى مدينة تدعى لوبى وهى غير موجودة الآن واخذ الزعيم ينصب سوقه وبدأ تجارته وفى الليل سمع صراخا فخرج من خيمته ليرى أحد العبد لاجئا إلى برازا يطلب حمايته ففعل ولذا أطلق عليه الأهالى اسم والد العبيد وامضى الليل فى معالجته من الجروح التى احدثها فيه الزعيم ولم يستطع أن يفعل معه أكثر من ذلك

فإنه اشتراه بمبلغ طيب . فسرعان ماسرت الإشاعة بأن الرجل الأبيض يدفع كثيرا فقصده كثيرون من زعماء الأوكندا عارضين عليه من معهم من الرقيق فاشتراهم رغم قلة موارده . ولم يلبث برازا أن دعا زعماء الأوكندا إلى اجتماع عقده لهم وشهده كثيرون من الأهالى وهناك أعلن تحرير من اشتراهم . واطلق سراح من أراد أن ينطلق واستخدم الباقين بأجر طيب فقبلوا جميعا أن يعملوا معه .

وفى خلال عشرين شهرا كشف برازا ٧٠٠ كيلو مترا من نهر الاجوا وعلى المنابع العليا لهذا النهر اسس مدينة فرانس فيل كمركز تجارى يستقبل المواد الواردة إليه وان كان برازا لم يعرف من اين تأتى هذه السلع. كما تتبع مجرى نهر اليما ولـكنه اسرع بالعودة لما وجده من عداء اهالى هذا النهر الجديد فوصل فى نوفبر سنة ١٨٧٧ وهناك علم بما فعله ستانلى خلال رحلته الأولى وانه يستعد للقيام برحلة ثانية فخاف وخافت معه فرنسا أن تؤدى رحلاته إلى استيلاء دولة أو اكثر على هذه الاجزاء لاسيما وان شخصية الملك ليوبلد ظهرت واضحة صريحة وراء كل هذه المشرعات . فارسل برازا فى رحلته الثالثة فى سنة ١٨٧٩ واتجه إلى الطريق الذى سلكه فى رحلته الأولى إلى فرانسفيل ولـكنه اندفع هذه المرة إلى اليما لغرض الوصول إلى الـكونغو ولـكن الأمطار الغزيرة اوقفت سيره وجعلت تقدمه مستحيلا فاتجهت البعثة سيرا على الأقدام إلى الجنوب الشرق والأهالى يستقبلونه بالترحاب اينما ذهب وهناك تلقى دعوة من زعيم البانيكا فاتجه إليه وتتبع نهر لوفيني وهو احـد أفرع الـكونغو ثم اتجـه إلى الجنوب حيث ينتظره الزعيم وهناك استقبله هقاا محوطا برؤساء قبيلته وفى اجتماع عام شرح برازا اهدافه من رحلته وهى (تنحصر فى ادخال الحضارة إلى افريقيا وتحرير الافريقيين من تجارة الرقيق) .وكان مكان الالتقاء هذا هو المكان الذى اقيمت فيه مدينة برازافيل . واضمحلت صحة برازا فترك المـكان فى حراسة بعض الجنود السنغاليين ومعهم

بعض البحارة واتجه إلى الشاطىء متتبعا النهر ولكنه لم يكد يسير الا قليلا حتى قابله ستانلى وكان يظن نفسه المستكشف الوحيد لهذه الأجزاء . ولكنه أفترق عنه وعاد إلى الشاطىء عن طريق نهر كويلو .

وقد عاد برازا الى هذه الانحاء مرة ثالثة ورابعة ولكنه كان كحاكم عام للمستعمرة الفرنسية حيث وضع قواعد الحكم الفرنسى ، ولكن هذا لا يدخل فى موضوعنا ولذا نتركه مكتفين بما قام به فى سبيل كشف هذا الجزء من افريقيا .


رحلات ستانلي وبرازا
المحيط الاطلسي
المحيط الهندي
لوانجو
ماتادي
بوما
ستانلي بول
زنجبار
باجامويو
اوجيجي
تنجانيقا
صفر
٢٠

خاتمة

بعد هذه الدراسة التى قمت بها عن ستانلى أستطيع أن اقرر أنه كان مستكشفا نموذجيا فهو يهتم بدراسة ماقام به المستكشفون الذين سبقوه . ليتعرف على ما تم إنجازه وعلى ما يحتاج إلى مزيد من الجهد كى لا يترك شيئا للظروف ويستفيد من أخطائهم .

كما أنه دقيق فى عمله فلا يقنع بمشاهدة مصب النهر بل يحاول قياس اقسامه وعمقه وسرعة تياره كما يحاول التوغل إلى داخل هذا النهر لمسافة ما كما لا يقنع بالسير حول البحيرة بل يجر فيها ويلف حول الروس والخلجان . وقد فعل ذلك فى كل من بحيرتى فيكتوريا وتنجانيقا .

وهو أيضا لا يبدد جهده وطاقته ووقته فيما لا يفيد فكل الاماكن التى زارها من سبقوه لم يحاول هو أن يمر بها أو يستكشفها مادام العالم قد وقف على شيء فيها . فهو يترك الجزء الشمالى من بحيرة تنجانيقا لأنه سبق أن طاف به مع لفنجستون كما يترك الجزء الجنوبى من اللوالابا لأن لفنجستون كان قد وصل إليه منفردا قبل ذلك بل يتجه إلى الشمال مباشرة كما أنه أقلع عن تتبع اللفنجستون عندما ايقن أنه السكونغو الذى سبق أنه زاره تاكى وغيره وكتبوا عنه .

وستانلى مدقق أيضا فهو يقيس ارتفاع الجبال وانحدار الشلالات وعرض النهر وسرعة تياره . ويدون كل ذلك فى حينه فلا يترك شيئا للذاكرة . ويرسم ما يستطيع رسمه من الشلالات والخلجان والقرى . ويذكر التفصيلات عن السكان واللغات كما يصف الواقع بدقة علاوة على أنه يفعل ذلك كله فى اسلوب أدبى شائق .

وستانلى لا يعرف المستحيل فهو يصر على تذليل كل عقبة وتحويل الظروف

غير المواتية إلى ظروف مواتية . فهو لايتوانى عن تمهيد الطريق وسط الغابات وشق الطريق البرى من أجل تجنب الشلالات. ثم يعود إلى النهر ليستأنف الابحار فيه عندما يدرك أن الملاحة أصبحت ميسورة من جديد . وعندما رأى نقص زوارقه لم يتردد فى نحت زوارق جديدة من الأشجار الضخمة . وهو عمل لم يره من قبل .

ولكن ستانلى رغم كل هذا ورغم إنه من أعظم مستكشفى أفريقيا له عيوبه التى لا يمكن لمنصف أن يغض عنها النظر فقد كان قاسيا عنيفا إلى حد بعيد[٢٤] فبينما نرى لفنجستون طيبا رحيما ، لم يعرف ستانلى غير العنف والقسوة ونحن لا نتجاوز الحق حين نقول أن ستانلى كان يؤمن بالميكيافيلية بيرى أن لغاية تبرر الواسطة فهو مادام يحتاج إلى زوارق فى بحيرة فكتوريا لا مانع لديه فى أن يلجأ إلى خداع اصحابها ليستولى عليها . ومادام يريد المرور فى هذه البحيرة يستبيح لنفسه اعتقال ملك عميريه ليرغم الأهالى على افساح الطريق لرجاله . وهو مادام يريد استكشاف موتتريجية فلا مانع لديه من الاشتباك فى حرب مع السكان عندها . بل انه لا يتعفف عن اللجوء إلى القرصنة حين يريد الحصول على اسطول يركبه رجاله .

وستانلى متلون متقلب لا يجد غضاضة فى اصطناع الود لبيرامبو الذى سبق أن حاربه فى حملة البحث عن نهر لفنجستون ثم لا يتعفف بعد ذلك عن إنكار علاقته به عند ما يلتقى بأعدائه .

وستانلى يقسو على الأهالى فعندما يشتبك معهم يتغلب عليهم باستعمال الرصاص فيفرون ولكنه لا يقنع بهذا بل يتعقبهم إلى قراهم ثم يدفع بهم بعيداً إلى داخل الغابة .

---

(٢٤) مرجرى برهام ص ٣٦٠

وستانلى يبيح لنفسه ايضاً أن يترك رجاله يستولون على المعبد العاجى .

ويكره ستانلى الأفريقيين ويحتقرهم فهو يقول (أنه عالم مهلك . ونحن نشعر أننا نكره الفيلان التى تسكنه) وهو عندما يصف السكان يقول (لم تكن لهم صفه واحدة يمكن بالشفقة الزائدة أن ترفعهم بها إلى مصاف أرقى الحيوانات المتوحشة) .

وهو فوق ذلك مؤمن بتفوق الأوربى وانحطاط الأفريقى . فهو يقول عن مساعده الأوربى . (كان يحدث عند وصولى فجأة إلى المعسكر أن أكتشف أنه حافى القدمين . فانهره على تعريض قدميه الأبيضين لأنظار الأهالى . فنى أفريقيا المتبربرة لابد من تغطية القدمين كالجسم تماماً إذ أن هناك شيئاً من سمو المنزله حتى فى تغطية القدمين) .

وستانلى استعمارى قح . شهد فى عمله الصحفى مع حملة ويلزلى ضد الأشانتى كيف يتمكن الأوروبيون من إخضاع الأفريقيين . وعندما يمر بقبيلة بانجالا يتمنى أن يذيقها الكأس التى شربها الأشانتى . فيقول عنهم (يمكن اعتبار البانجالا أشانتى اللفنجستون). ويقول عن نفورهم من الغرباء (لا شك أن حربين أو ثلاثة سوف تجعلهم يخففون من غلوائهم وتحفظهم إزاء الغريب) .

فى الوقت الذى كان فيه ستانلى يجوب قلب أفريقيا فى رحلته الكشفية الكبيرة التى أتينا على وصفها كان ليوبلد الثانى ملك بلجيكا يبدى اهتماماً كبيراً بالإمكانيات الأفريقية . فعمل فى صيف سنة ١٨٧٧ على تكوين الجمعية الأفريقية الدولية واقترح إرسال حملات إلى وسط القارة تبدأ من الساحل الشرقى (لإمكان إدخال الحضارة إلى هذا الجزء)وأرسل إلى ستانلى يدعوه وتردد هذا أولا لأنه كان يلح على انجلترا بالبدء فى استعمار القارة حتى إذا رأى منها إعراضاً لبى نداء الملك

وذهب إليه حتى إذا تشكلت هيئة دراسة أعالى الكونغو (من أجل دراسة إمكانيات الأرتباط بعلاقة تجاريه مع سكان الكونغو وأصبح غرضها ينحصر فى عقد اتفاقيات معهم من أجل الحصول على امتيازات اقتصادية لبناء الطرق وزراعة مساحات كبيرة) كان ستانلى الرأس المفكر لهذا المشروع الضخم ولذا رأس رحلته الثانية إلى الكونغو ولكن عمله انحصر فى عقد هذه الاتفاقيات وإنشاء المراكز التجاريه مما لا يدخل فى موضوعنا وهو كشف الكونغو .

وكذلك أهلته هذه الرحلات الثلاث إلى وسط أفريقيا أن يرأس الحملة التى اتجهت إلى هناك فى سنة ١٨٨٦ لإنقاذ أمين باشا الذى كان حاكما لمديريه خط الاستواء المصرية وحال قيام الثورة المهديه دون عودته إلى القاهرة ، مما ليس فى موضوعنا أيضاً . ولكن هذا لا يمنع من أن نقول أنه فى خلال عودته إلى الساحل مع أمين باشا قد كشف جبال رونزورى وتتبع نهر سمليكى كما كشف بحيرة البرت إدوارد وكذلك الخليج العظيم فى جنوب غرب بحيرة فيكتوريا[٢٥] .

أسعد نديم

(٢٥) دائرة المعارف البريطانية مجلد ٢١ ص ٣١٤ .

المراجـــع

1— H. M. Stanley, Through the dark Continent. London 1890, Eighth Edition .

2— Dorothy Stanley, Autobiography of H. M. Stanley, London, 1909 .

3— Perham & J . Simmons, African Discovery, London, 1957 .

4— R. Busoni, Stanley's Africa .

5— Encyclopedia Britannica .

كشف الزمبيزى

ارتبط كشف الزمبيزى بحياة المستكشف لفنجستون الذى قال عنه مؤرخو سيرته أنه كان طرازا فريدا من نوعه بين المستكشفين والمبشرين وإنسانا أسطوريا « هومرى » يمثل أسمى ما يمكن للايمان بالمبادىء أن يخلقه من الرجل .

كان جده يعمل فى وظيفة صغيرة فى مصنع للقطن ورزق بأولاد كثيرين كان منهم Neil والد « دافيد » الذى رأى النــــور فى التاسع عشر من مارس سنة ١٨١٣ .

وكان أبوه صارما متدينا ، كما كانت أمه تبذل جهدها لتجعل البيت مقبولا وتساعد فى احتمال هذه الصرامة باصطناع شىء من البشاشة والعطف ، ثم تحول شماسا فى كنيسة صغيرة ولما بلغ دافيد العاشرة اشتغل فى مصنع القطن ولـكنه كان يتردد على مدرسة مسائية إلى ساعة متأخرة من الليل . وتفتق ذهنه عن حيلة بارعة هى أن يضع الـكتاب على دولاب الغزل مفتوحا فيستطيع بذلك أن يلتقط الجمل وهو منهمك فى عمله فدرس التشريح وعلم النبات والجيولوجيا[١]

وفى يوم من الأيام قرأ نداء وجهه (جوتزلاف) الذى أرسل إلى الصين مبعوثا طبيا يوجه الانظار إلى هذا البلد وحاجته إلى مبشرين فاستحوذت هذه الفـكرة على ذهن « لفنجستون » وحفزته على تأهيل نفسه لمثل هذا المنصب وبإرادته الحديدية المعروفة التحق « بكلية أندرسون Andesron College بالفصل الطبى بها كما التحق أيضا بفصل الدراسات الاغريقية فى جامعة جلاسجو فى الشتاء كما حضر محاضرات فى اللاهوت على يد الدكتور (ووردلو wardlow) فى فصل الصيف[٢]

وقد انتهز كل فرصة سنحت له لاكتساب خبرات ومهارات يدوية وعلمية جديدة ،

(1) Dict of N. Bioyraphy. (2) Ibid

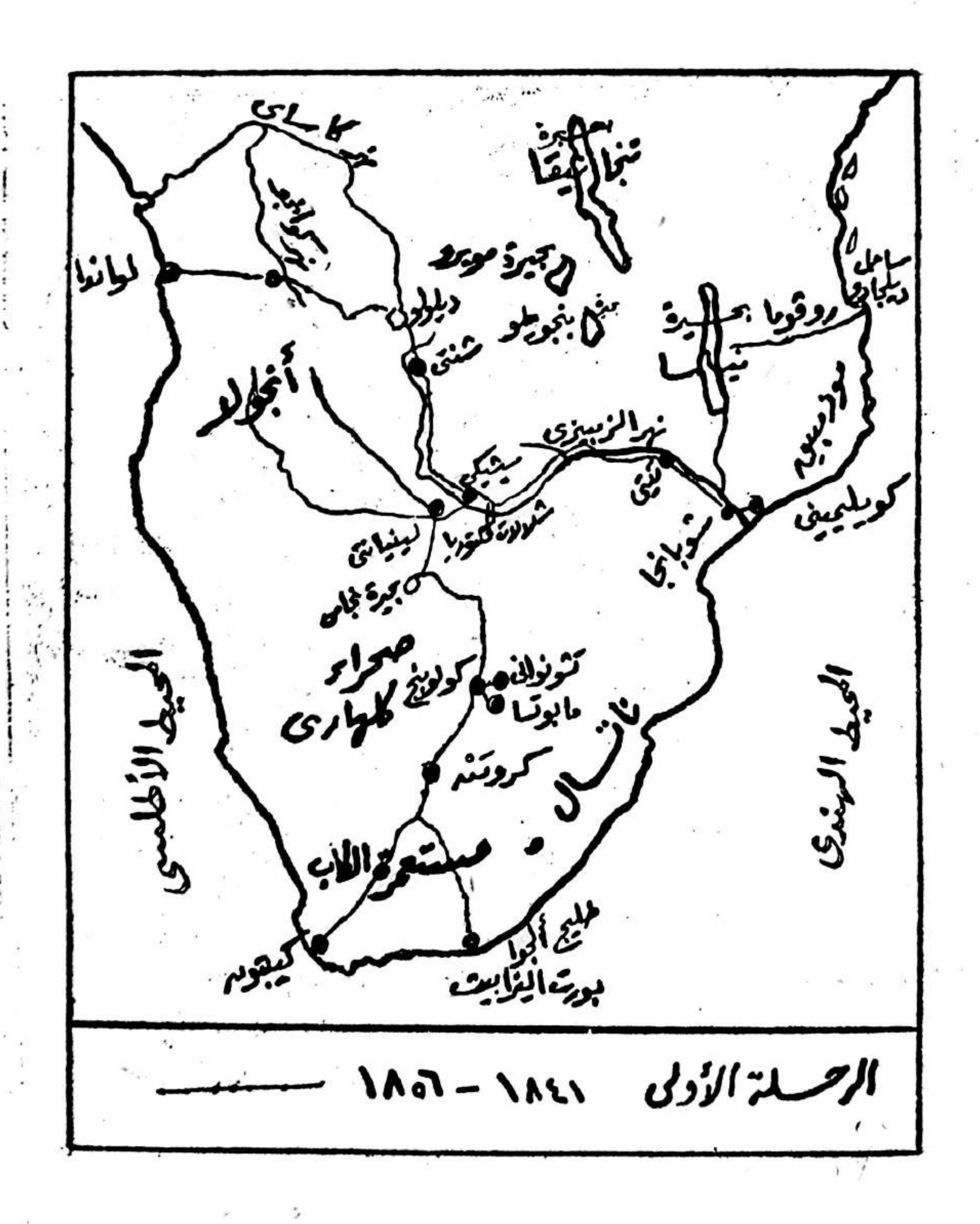
بل بلغ به الأمر أن عزل نفسه من المجتمع الأوربى لكى يكتسب معرفة باللغات المحلية وليمتزج بشعب « الباكونيا Ba-Kwain » فى أفريقيا فى عام ١٨٤٢ كما تعلم أكثر من لهجة[2] وقد أكمل معرفته بالفلك واكتسب فيه مهارة ودقة قلما تتوافر فى رحالة آخر بمثل هذه الدرجة على يد الفلكى الملكى « سير توماس ماكلير »[3].

وقد تعلم من الدكتور « موفات Moffat » — صهره المبشر الأفريقى الكبير — النجارة وتنظيم الحدائق ، كما تعلم من إسكاف أفريقى طريقة لحم الحديد بالنار وتشكيله ، حتى أنه حينما أراد الزواج حدد صفات شريكة حياته بالصبر والجلد على العمل وكان له ذلك فى زوجته التى كانت ابنة مبشر انكليزى كبير قضى معظم حياته فى جنوب أفريقيا ، ولقد كانت زوجته علاوة على ماتتمتع به من روح صبورة تتمتع أيضا بهمة لا تفتر وبنفس لا تعرف الملل كما وأنها كانت واسعة الخبرة بالبلاد التى ولدت وترعرعت فيهـا وزيادة على اجادتها الاعمال المنزليه كانت تجيد بعض الحرف كصناعه الشموع والصابون والقماش وكل الاعمال اليدوية التى تتعلق بالمنزل كما كانت ذات ميول ثقافية مكنتها من الاشراف على مدارس تعليم الأطفال التى كان يفتتحها زوجها[4] . وهكذا اكتملت للمحارب عدته فى ميدان التبشير والكشف فكانت النتائج التى وصل إليها من الدقة والعظام بمكان .

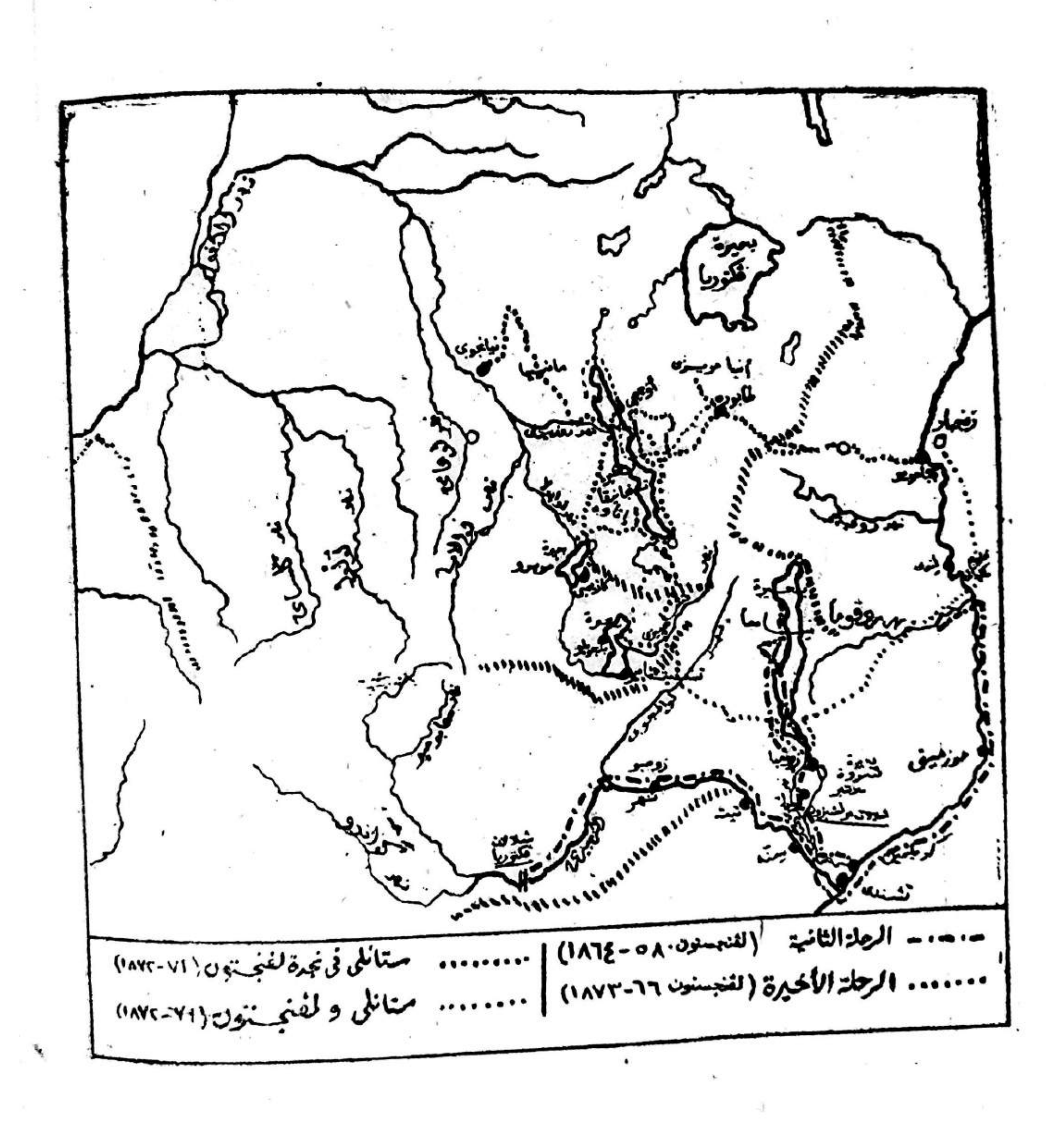
وفى خلال الفصل الدراسى الثانى من سنة ١٨٣٧ عرض لفنجستون خدماته على الجمعية التبشيريه فى لندن التى وقع اختياره عليها وفى سبتمبر سنة ١٨٣٨ سافر إلى لندن واجتاز امتحانا تمهيديا فأرسل « ليقضى فترة تمرين لمدة شهور » وعندما انتهت فترة التمرين هذه عاد إلى لندن ووهب نفسه للدراسة الطبية والعلمية ، وتجول فى المستشفيات .

---

(3) Ibid p. 1264 (4) Ibid p. 1296 (5) Ibiel p. 1265



الرحلة الأولى ١٨٤١ - ١٨٥٦


بحيرة فكتوريا
الرحلة الثانية (لفنجستون ٥٨-١٨٦٤)
الرحلة الأخيرة (لفنجستون ٦٦-١٨٧٣)
ستانلى فى نجدة لفنجستون (٧١-١٨٧٢)
ستانلى و لفنجستون (٧١-١٨٧٢)

واسيب « لفنجستون » بخيبة أمل شديدة [٦] عندما تعذر ذهابه إلى الصين معقد آماله لاندلاع حرب الأفيون ، ولـكن مقابلة الدكتور روبرت موفات مبشر جنوب أفريقيا فى لندن حولت انتباهه إلى ناحية أفريقيا وما أن حصل على درجته الطبية من كلية الأطباء والجراحين بجامعة جلاسجو فى بداية نوفمبر سنة ١٨٤٠ حتى عين مبشرا فى كنيسة « ألبيون Albion » فى العشرين من نفس الشهر وفى الثامن من شهر ديسمبر كان فى طريقه إلى أفريقيا على سطح السفينة (جورج) يقودها القبطان « دونالدس » متبعة طريق رأس الرجاء الصالح مارة « بريودى جانيرو » فى أمريـكا الجنوبية . ووصلت السفينة أخيرا إلى مدينة الرأس « كيتيتون » .

الرحلة الأولى

وبعد أن توقفت السفينة لمدة شهر فى « كيبتون » تابعت السير إلى خليج « ألجوا Algoa » ورست فى ميناء بورت اليزابيث فى مايو سنة ١٨٤١ واتخذ طريقة مباشرة إلى كرومن Kuruman المقر الرئيسى للدكتور موفات فوصلها فى ٣١ يوليو سنة ١٨٤١ وأرسل له الدكتور « موفات » وكان لايزال فى انجلترا ينصحه بتأسيس محطة تبشيرية متطرفة إلى الشمال [٧] وطبقا لتعليمات جمعية لندن التبشيرية [٨] قام بجولات عديدة فى المنطقة قطع فيها حوالى سبعمائة ميل ووقع اختياره على » مابوتسا Mapotsa وهى بقعة تبعد عن كرومن بـ ٢٥٠ ميلا شمالا على نهر » ليمبوبو Limpopo كمحطة قائلا أنها تقع على « واد ساحر » كانسب

---

(7) Dict of N. Biog. P 1264 (8) Perbams . P. 127
(9). Enc. . Brit - P. 238 :

بقعة لأعمال جديدة : وفى العاشر من فبراير سنه ١٨٤٢ قام الدكتور برحله أخرى إلى الداخل وذهب إلى ليتوبارويا Litubaruba (الآن موليبولى فى بتشوانالاند) ومعه أثنان من الأهالى وأثنان من الكنيسةوفى هذه الرحلة فحص جولوجيا ونباتات المنطقة وكانت تشمل جزءا من صحراء كالها رى ثم رجع إلى (كرومن) فى يونيه ولكنه لم يركن للراحة بل قضى عدة شهور جائلا بين القبائل واعطا مدرسا طبقا للفكرة التى آمن بها وهى أن عمل البعثه ليس فى الجلوس وكتابة التقارير ولكن فى الزيارة وفتح أراضى جديدة تاركا للوكلاء الوطنيين مهمة دراستها بالتفصيل وا كتسب معرفة بأحدى اللهجات وخبرة بعادات وحياة قبائل الباكوينا Bakwena وفى العام التالى (فبراير سنة ١٨٤٣ قام بجولة أخرى طولها أربعمائة ميل بين القبائل التى زارها من قبل مثل (الباكويناين والباكاتلا Bakatla متجولا دون أن يبدى إلى مدى قريب من بحيرة (نجامى) ثم عاد إلى كرومن غير ان الجمعية نصحته بالبحث عن مقر جديد فى الداخل فقام فى أغسطس سنه ١٨٤٧ مع أحد المبشرين وثلاثة من الباحثين الانجليز فوصلوا مابوتسا فى بلاد (البكاتلا) بعد مسيرة أربعة عشر يوما التى كان قد اختارها كمحطة واتخذها قاعدة للعمليات فى الداخل ولكن «الوادى الساحر» كان مرتعا للأسود التى تهاجمه بالليل فحمل بندقيته وحاول بث الشجاعة فى قلوب الأهالى الفزعين ولكنه كاد أن يفقد حياته وإن كان قد خرج من صراعه مع الاسد محطم الذراع . وصار ذراعه محدود الحركة يعاوده الألم من آن لآخر طيلة حياته .

وفى سنه ١٨٤٤ تزوج من (مارى) ابنة الدكتور (موفات) الكبرى وأخذها إلى « مابوتسا » فقامت برعاية مدرسة الأطفال التى أنشأها ، وحين حدث خلاف بينه وبين زميله المبشر بسبب اختلاف طباعهما انتقل لفنجستون سنة ١٨٤٦ إلى تشونوان Chonuane المركز الإدارى للزعيم (سيتشيلى) وهى تبعد أربعين ميلا شمالا (١٠)

---

(10) Perham's P · 129

ومن (تشونوان) قام برحلة شرقا إلى جبال القاشان (ميجاليبرج فى ولاية الترنسفال الآن)، وخلال عودته ولد ابنه الأكبر روبرت وقام كالعادة ببناء مدرسة تقوم فيها دراسات منظمة ويعمل بها مدرسون محليون . ولكن الجدب والقحط اضطره مرة ثانية إلى تغيير خطته والاتجاه غربا مسافة أربعين ميلا وبصحبته قبيلة البا كوينا كلها إلى منطقة « كولوبينى Kolobene » وهناك علمهم رى الحدائق بماء النهر وبنى منزلا للمرة الثالثة وأصبح مهرا فى معظم الأعمال اليدوية ، ولكن إقامتهم فى « كولوبنج » جرت عليهم مضايقات البوير الذين فروا من قانون سنة ١٨٣٤ الإنجليزى القاضى بتحريم الرق فهربوا إلى منطقة جديدة حيث كونوا جمهورية ناتال فى الشرق وأورنج الحرة فى الشمال . ولكن استيلاء الجيش البريطانى على ناتال سنة ١٨٤٤ اضطرهم إلى الهجرة شمالا فعبروا نهر الفال Vaal واستقروا فى أراض جديدة عرفت بالترنسفال (١١) . وهكذا صار « لفنجستون » جارا للبوير القاطنين فى جبال « الكاشان » الذين يكنون للانجليز عداوة بالغة ، ولكن لفنجستون زارهم مرتين وحاول تعيين مدرسين من الأهالى فى إقليمهم ولكن زعيم البوير « بوتجيتر Potgeiter » هدد بمهاجمة كل قبيلة تقبل مدرسا من الأهالى (١٢)

وكان (لفنجستون) أثناء إقامته القصيرة فى (كولوبونى) قد وضع قواعد لغة (سكوانا Sewanaa) وكان مثابرا على التدريس للأهالى ومنهمكا إلى درجة أنه لم يجد من وقته ساعة يلاعب فيها أطفاله فى الوقت الذى كان ينفق فيه كل جهوده ووقته بين الكافرين .

---

(١١) الاستعمار الأوربى لأفريقيا — صفحات ١٠٤ — ١٠٦

(12) Dict of N. Biog p. 1265

كشف بحيرة نجامى

فى أوائل سنة ١٨٤٩ جهز رحلة لعبور صحراء كلهارى بحثا عن بحيرة نجامى وأفضى برغبته إلى كابتن ستيل الذى أخبر اثنين من الرياضيين هما « C. Oswell Mungo—Murray » . وفى أول يونيه ترك الثلاثة (لفنجستون — أوزويل — مورى) كولوبونى ورحلوا على طول الحافة الشمالية الشرقية لصحراء كلهارى الكبرى وعبروا الصحراء ، وقد أعطانا « لفنجستون » أول وصف مفصل عنهـا .

وفى الرابع من شهر يوليو وصل لفنجستون وصحبه إلى نهر (زوجا Zuga) الجميل الذى يجرى فى اتجاه شمال شرقى . وبعد شهرين كاملين من بدء الرحلة وصلوا إلى الطرف الشمالى الشرقى من بحيرة نجامى وكانوا أول أوربيين يروا هذه اللوحة الرائعة من الماء التى بلغ من اتساعها أن تعذرت رؤية العدوة الأخرى لها . وكان لفنجستون يرغب فى زيارة (سيتوانى) زعيم شعب (ما كولولو Makololo) الذى كان يقطن عبر البحيرة بمائتى ميل ولكن المراقيل التى وضعها « ليتشولاتيبى » رئيس قبائل البحيرة من الباما نجواتو Bamangwato ومنعته من ذلك فخاطر « أوزيل » بالذهاب إلى الكاب وإحضار قارب رجعوا به إلى (كولوبونى) . وقد أرسل (لفنجستون) أخبار اكتشاف النهر والبحيرة إلى (جمعية لندن التبشيرية) وأرسلت مقتطفات من رسائله إلى (الجمعية الجغرافية الملكية) التى منحت لفنجستون خمسة وعشرين جنيها سنة ١٨٤٩ وذلك بسبب « رحلته الناجحة مع السيدين « أوزويل ومورى » عبر صحراء أفريقيا الجنوبية لاكتشاف طريق ونهر رائق وبحيرة داخلية واسعة »(١٣) :

ولكن رئيس الجمعية عزا نجاح لفنجستون فى الكشف إلى تأثيره على الأهالى كبشير .

13 — Enc. Brit. p. 238

وحاول مرة ثانية زيارة (سيبتوانى) فى أبريل سنة ١٨٥٩ ومعه زوجته وأولاده فاتخذ طريقاً شرقياً متطرفاً خلال قبائل (الباماجوانا) وصحبه فيها الزعيم ستشيلى إلى زوجا ورحل على طول الشاطىء الشمالى للنهر الملىء بالغابات حتى تلاقيه مع نهر « تامونا كلى Tamunakle » ولكن نشاط ذباب التسى تسى اضطره إلى إعادة عبور نهر « الزوجا » وهنا علم بأن جماعة من الإنجليز الذين أتوا إلى البحيرة بحثا عن العاج قد انتابتهم الحمى فسافر على عجل ستة أميال لإنقاذهم ولكن أحدهم مات قبل وصوله بينما نجا الباقون من الحمى بفضل رعايته . وعندما استعد لمتابعة رحلته ألمت الحمى باثنين من أطفاله وثلاثة من خدمه فمنعه مرضهم واضطر إلى تأجيل رحلته ورجع إلى (كولوبونى Kolohene) ولما كانت زوجته مريضة مرضاً خطيراً فقد ذهبوا ليقيموا مع (دكتور موفات) لتستعيد صحتها .

وأخيرا نجح (لفنجستون) فى زيارة (سيبتدانى) فى سنة ١٨٥١ وكان فى صحبته زوجته وأطفاله ومستر (أوزويل) فاستقبلهم سيبتوانى بحفاوة ولكنه مات بعد أسبوعين من التهاب الرئتين وانتقلت الزعامة إلى ابنته Ma-Mochisane التى كانت تعيش فى Na-Liele على بعد مسيرة أثنى عشرة يوما إلى الشمال ، فأعطت « لفنجستون » و « أوزويل » الإذن فى زيارة الجزء من إقليمها الذى يرغبان فى زيارته فقاما ببعثة إلى الشمال الشرقى بمائة وثلاثين ميلا خلال « لينيانتى Linyante » ورحلا بطريق موغل فى الشرق أكثر من أى طريق آخر سلكوه من قبل وعبروا شبكة الأنهار والمجارى المائية والمسيلات المسماة « تشوبى Tchobe » وفى نهاية يونيو توجوا كفاحهم با كتشاف الزمبيزى عند (سيشيكى Sesheke) فى وسط القارة [14] .

وفى أبريل سنة ١٨٥٢ وصل لفجنستون وأسرته إلى (كيبتون) ومن هنا قام بترحيل عائلته إلى انجلترا ليتسنى له حرية العمل .

(14) Ibid P. 1266

لواندا وشلالات فيكتوريا

عمد (لفنجستون) إلى العودة إلى داخل القارة بعد أن ودع عائلته وأصبح أقدر على الحركة والفعالية ، وليأسه من قبول البوير المدرسين عول أن يوجه إهتمامه إلى الكشف عن المناطق الشمالية [١٥] وأن يجد بقعة مرتفعة صحية ليستقر فيها ، وهكذا عاد من (كيبتون) إلى (كرومان) بعد أن دبر بعض المؤن ولكن ناقله من ناقلاته تحطمت فأخره هذا أسبوعين ليكتب له النجاة من الموت على يد البوير . فقد هاجم البوير شعب « الباكوينا » فى « كولوبينى » وخربوا المكان ونهبوا منزل لفنجستون وحاجياته الشخصية ومخطوطاته . وعلى الرغم من أنه طلب تعويضاً فإن السلطات لم تسعفه بشيء لاضطراب الأحوال ، وأخيراً قام برحلته فى أطراف صحراء كالهارى متجنبا البوير ما وسعه ذلك فوصل ليتوباروبا فى آخر يوم من سنة ١٨٥٢ وفى الثالث والعشرين من مايو عام ١٨٥٣ وصل إلى لينيانتى عاصمة شعب الماكولولو ليجد أن ما ـ موتشيزانى Ma-Mochisane قد تنازلت عن الزعامة لأخيها سيكيليتو الذى استقبلهم بحفاوة بالغة .

وأخذ لفنجستون يعد العدة لاكتشاف المناطق الشمالية وفى نهاية يونيو تقدم وبصحبته « سيكيليتو » إلى شيشيكى حيث جمع أسطولا من ٣٣ قاربا ومائة وستين رجلا بقصد الصعود فى الزمبيزى لاكتشاف منابعه فوصل إلى نقطة إلتقاء « كابومبو وليبا Kabompo , Liba » فى سبتمبر بعد أن فشل فى اكتشاف موقع صحى مناسب بسبب سيطرة ذبابة التسى تسى على المنطقة فأعاد خدمة أهالى كرومن وساعده « سيكيليتو » بسبعة وعشرين رجلا وقاربا بدون مقابل [١٦] على أمل أن يفتتح التجارة بين الماكولولو والمستعمرات البرتغاليه .

---

(15) Encyd. Brit. P. 238
(16) D. of Biog, P, 1266

.. فبدأ رحلته فى الحادى عشر من نوفمبر سنة ١٨٥٣ متجها إلى الساحل الغربى ونزل إلى نهر تشوبى وسار فى مجرى الزمبيزى وعند « ليبونتا » آخر قرية من الما كولولو ، وجمع بعض الزبد والسمن ليهديها . ومنها وصل إلى التقاء « الليبا والكابومبو » ، عند عبوره إقليم « لوندو Lundo » قوبل مقابلة عدائية ولكنه تمكن بصبره وأناته ولباقته أن يكسب صداقة أهلها ولكن الملكة « نياموانا Nyamoana» اعترضت على استمراره فى التصعيد فى نهر ليبا وأرسلته على ظهر ثور إلى الرئيس الأعظم « شنتى Shinte » وأرسلت ابنتها « مامنكو Mamenko » مرشدة وحامية له ؛ واستقبله الزعيم شنتى فى السادس عشر من يناير سنة ١٨٥٤ استقبالا ملكيا أيقن لفنجستون أنه فى غرب أفريقيا الوسطى التى تميزها أشجار الموز والأشجار الضخمة والمنازل ذات الزوايا القائمة ، وبعد عشرة أيام عطلتة فيها الأمطار رحل فى اتجاه شمالى مواز لنهر « ليبا » وعبر مجراه الرئيسى قرب التقائه برافد « لوكالويجى Lakalueii » الذى ينساب فى مسطح « لوفالى » العظيم مع عدد من المجارى الرافدية الصغيرة وتصيره مستنقعا شاسعا مغطى بالماء ومكونا خط تقسيم المياه بين الكونغو والزمبيزى وفى وسطها توجد بحيرة (ديلولو Dilolo) التى تمتد ٢٨ ميلا وبعد أن حصل على المرشدين من قرية « كاتما Katrma » على البحيرة استأنف سيره فى اتجاه شمالى غربى عبر مسطحات « كيفوماجى Kifumaji » و « ديلولو » متجها إلى شواطىء كاساى أحد روافد الكونغو العظيمة ، وبعد عبوره كاساى اتجه غربا إلى إقليم « كيوكو Kioko وهو شعب مشاكس محارب وضع الكثير من العراقيل فى طريق لفنجستون ورفاقه مما اضطره إلى شراء الطعام بالخرز بل التخلى عن بعض ملابسهم وزينتهم لتقديمها كمكوس ، زيادة على وقوعهم فريسة للحمى نتيجة لعبورهم منطقة خط تقسيم المياه المكون من مسيلات ومستنقعات كانت تؤدى إلى ابتلال لفنجستون بالماء يوميا من أخمص قدمه إلى وسطه . ولم يمنع أتباعه من التمرد عليه إلا حزمه ونشاطه .

وفى الرابع من شهر مارس وصـلوا مقاطعة شيبوك Chiboque وبدمائة خلقه تجنب الاصطدام بالزعيم واتجه إلى الشمال الشرقى ليجد منفذا إلى القـاعدة البرتغالية فى « كازانجى Kasanje » ، وأخيراً وصل إلى « كوانجو Quango» فى الثالث من أبريل محطما تحت وطأة المرض والحاجة إلى الطعام والملابس فقابلهم (سـبريانو دى أبريو Sypriano de Abreu) وهو ملازم برتغـالى وأمدهم بطعام يكفيهم حتى« كاسانجى Cassange » التى وصلوها فى الثالث عشر من أبريل ، ثم استأنف السير متجهاً إلى « لواندا Loanda » وكانت الرحله شاقة إذ كان هو مريضاً بالدوسنتاريا ، وعندما وصل إلى مرتفعات جولنجـولتو Golungo Alto استراح عدة أيام ليستعيد صحته . وفى الحادى والثلاثين من مايو وصل « لوندا » حيث استقبله القومسيير الانجليزى مستر جابريل Gabriel الموكل بالقضاء على تجارة الرقيق وممثـل أنجـولا الذى كان يعمل كحاكم عام والقادة البرتغاليون استقبالا حافلا [17].

ومن أجل أن يعيد مرافقيه من الماكولولو إلى أوطانهم قام برحله العـودة فى العشرين من سبتمبر بطريق البحر إلى مصب « بنزو Benzo » ودخل فى النهـر حتى وصل إلى « « كالونج ـ ومبو » Kalung-Wembo وقام بجولته فى الإقليم حتى التقاء نهرى لوكالا ، كوانزا Coanza , Lucalla . وألمت الحمى بعدد كبير من رجاله ، ولـكنه سمع عن غرق سفينة البريد Forunner التى أرسل بها رسائله وخرائطه التى يصف فيها رحلته من الـكاب إلى لواندا فـمكث أسبوعـين مع كابتن « بيريز Pires عاودفيها بعناد وإصرار كتابة مذكراته من جديدمعتمداعلى الذاكرة وأرسلها إلى إنجلترا ، فمنحته الجمعية الجغرافية الملـكية ميداليتها الذهبيه .

وفى يناير سنة ١٨٥٥ وصل إلى « كازانجى » ونهر « كوانجو Quango »

---

(17) Dict, of N Biog, P.1267

ثم عبر مجرى ذلك النهر ، واخترق إقليم « الباشنجى Bashinji » و « السكيوكو Kioko » . وتسبب المطر الغزير فى إصابتهم بالروماتيزم وتعرض لفنجستون وجماعته لهجوم بعض المشاغبين ولكن حسن تصرف لفنجستون وسرعة بديهته أوقف ذلك الهجوم . وجمع معلومات قيمة عن كاساى والأنهار المتصلة به أثبتت المعلومات التى تلتها صحتها المطلقة[٢٨] . وقد استقبلوا استقبالا حاراً من كاتبا صديقهم القديم ومن « شنتى Shinte » ومن شعب « مبالوندا Baluno » فى نهر ليبا الأعلى بعد أن فتح لهم طريق التجارة إلى الشاطىء .

وعند وصوله إلى لينيانتى جمع شعب الما كولولو ووزع عليهم الهدايا مما أثر فى نفوسهم ، فأمده الزعيم باثنى عشر ثوراً وعدد من الفئوس وكمية من الزبد والعسل ، وأبحر فى مصب الزمبيرى فى اتجاه المنبع ، بينما كان الآخرون يسوقون القطيع على طول الشواطىء ، فاكتشف شلالات فكتوريا فى مجرى الزمبيرى فكان هو وأوزويل أول أوربيين رأياها ، بل أول أوربيين يزوران المنطقة الوسطى للزمبيرى[١٩] ، وكان الأهلون يسمونها « موزيوانونيا Mosioatuuya » وتقف حدا فاصلا بين الجزء المعروف والجزء المجهول من نهر الزمبيرى ، ورغم ذلك كان الأوروبيون عموما والجغرافيون خاصة يجهلونها تماما وقد وصفها لفنجستون وصفا دقيقا شاعريا فى كتابة « رحلات تبشيرية Missionary Travels

ودع « سيكيليتو » لفنجستون عند الشلالات تاركا معه جماعة من رجاله لحراسته حتى الساحل واستطاع لفنجستون بلباقته تجنب الاحتكاك بالقبائل[٢٠] ووصل فى الرابع عشر من يناير سنة ١٨٥٦ إلى التقاء نهر « لوانجوا والزمبيزى Loangwa » ، وأخيرا وصل إلى تيته Tete فى الثالث من مارس منهوك القوى

(19) Pechames p 518 20Missionary Travel pP 518 — 526

مرهق الاعصاب . وبعد أن قضى بعض الوقت فى (تيتى) رتب أمره على أن يترك أتباعه من الماكولولو فى رعاية الماجور (سيكارد) ويعود هو إلى انجلترا . فغادر « تيتى Tete فى الثانى والعشرين من أبريل مع مجرى الزمبيزى حتى بلدة « موزارو Mozaro وعبر المرتفعات إلى نهر « كوا كوا Kwa — Kwa » فوصل إلى « كيويليمانى Quilimame فى ٢٢ مايو سنة ١٨٥٦ بعد أربع سنوات تقريبا من مغادرته كيبتون قضى منها حوالى الثلاث سنوات لم يسمع فيها شيئا عن أسرته فوصل لندن فى الثانى عشر من ديسمبر[٢١] . فقوبل بحفاوة بالغة وقدمت له فيها المداليه المهداه إليه ، واستقبلته جمعية لندن التبشرية وتسلم شهادات التقدير والدعوات من كل الهيئات العامة وتشرف بمقابلة زوج الملكة . وفى جلاسجو اكتتب له بمبلغ ألف جنيه . وفى دبلن احتفلت به الجمعية البريطانية احتفالا رائعا ، وفى منشستر احتفلت به الغرفة التجارية ومنحته جامعة « اكسفورد » درجة الدكتوراه الفخرية فى القانون المدنى ، كما منحته جلاسجو درجة الدكتوراه فى الأدب . وفى كمبردج استقبل استقبالا حارا وافتتح رسميا برنامج المحاضرات للبعثات الجامعية إلى أفريقيا الوسطى .

وسجل لفنجستون قصته ببساطه وتواضع فى كتاب أسماه (رحلات تبشيرية وأبحاث فى جنوب أفريقيا) واستطاع الناشر مورى Murray أن يجمع من هذا الكتاب ثروة صغيرة للفنجستون .

بعثة الزمبيزى (١٨٥٨ — ١٨٦٤)

عاد لفنجستون إلى مسرح الأحداث فى الزمبيزى فى سنة ١٨٥٨ كقنصل بريطانى عام للساحل الشرقى لافريقيا والمستعمرات الجنوبية لزنجبار والقاطعات

(21) Dict N Biog p. 1268—9

المستقلة فى الداخل علاوة على رئاسته لبعثة جديدة لـكشف إفريقيا الشرقية والوسطى وعمل لفنجستون بجد من أجل تجهيز الحملة ولقى كل مساعدة ممـكنة من المسؤولين واستقل الباخرة الحربية البريطانية « بيرل Pearl » من لفربول فى العاشر من مارس سنة ١٨٥٨ متجها إلى أفريقيا

وصلت الباخرة الحربية تقل أفراد البعثه وعائلة لفنجستون إلى كيبتون فوجدوا فى إستقباله أصهاره فترك معهم زوجته وابنه الطفل واستأنف سيره إلى دلتا الزمبيزى فى ١٥ مايو وفى داخل مجرى « لوادى Luadwi ووصل إلى « تيتى Tete » فى الثامن من سبتمبر فقابله شعب الما كولولو الصديق استقبالا حارا ومن تيتى قام بثلاث زيارات إلى شلالات « كبرابازا Kapra-pasa التى ظهر أنها عائق يعوق الملاحة المستمرة فى الزمبيزى

وكان لفنجستون قد أعلن وهو فى انجلترا أن الزمبيزى طريق إلى أرض شعب الما كولولو [٢٢] فعز عليه ان يعترف بأن شلالات « كبرابازا » تشكل عائقا للمواصلات النهريه . فاتجه إلى نهر « شيرى Shire » يكتشفه . وقام بأول رحلة نحو منابعه بحثا عن البحيرة التى سمع أنه يأتى منها ولـكن الشلالات والجنادل وعداء الأهالى اضطرت « لفنجستون وكيرك » إلى التوقف والرجوع إلى تيتى وأطلق لفنجستون على الشلالات اسم صديقه مرتشيزون Murchicon وفى مارس عادثانية يجوب نهر (شيرى) بالباخرة إلى قرب اكاتنجا » حيث ترك الباخر وجابوا النطقه سيرا على الأقدام فاكتشفوا بحيرة (شيروا) المالحة Shirwa ثم رجعوا إلى تيتى ليعودوا ثانيه فى أغسطس إلى نفس البقعه وصعدوا مرتفعات « شيرى Sire » مع اثنان من المرشدين الوطنيين وستة وثلاثين حمالا من الما كولولو وطافوا

---

(22) South Akrican Epp. P.XX

بجبل زومبا وبحيرة « شيروه Shirwa ثم وصلوا ثانية إلى نهر شيرى فوصلوا إلى الشواطىء الجنوبية لبحيرة « نياسا Nyassa فى السادس عشر من سبتمبر سنة ١٨٥٩ أول رجال بيض عتموا برؤيه مياهها الرائعة وعادوا إلى « تيتى » بعد أن أرسل « راى Rae » إلى انجلترا ليطلب إنشاء باخرة جديدة .

ورحل بعد ذلك لفنجستون إلى مصب ا كونجونى Kongoni) فى الثالث من ديسمبر فوصله الرابع من يناير سنة ١٨٦١ بعد مصاعب كبيرة

وكان لفنجستون قد أيقن أن الخير فى البعد عن البرتغاليين لاتصالهم بتجار الرقيق ، ووصلته تعليمات لكشف نهر (رفوما) نهر « رفوما Roruma ومن ثم عزم لفنجستون على إبحار البعثة إلى بحيرة « نياسا » ، وانتقلوا مع بعثة التبشير إلى جزيرة « توماس Thomas من مجموعة جزر « كومورو Comoro وتقدم لفنجستون مع الأسقف ما كنزى بينما بقيت بقية الجماعة فى (توماس) ، وتوغلوا فى نهر (روفوما) ، ولكنهما لم يسيرا أكثر من ثلاثين ميلا لهبوط المياه فى النهر وانتهاء موسم المطر وتقدم إلى نهر زمبيزى فدخله من فتحة « كونجونى Kongoni ومر منه إلى النهر (شيرى) ووصل إلى تشيبيزا Tshipisa بعد مشقة فى منتصف يونية . وهناك لمس لفنجستون كيف تسير تجارة الرقيق فى قسوة تكشف عنها مافى جسم العبيد من آثار فسعى إلى تحرير بعضهم والحقهم بخدمته وفى الطريق إلى « ماجو ميرو) تعرض لهجوم شديد من عصابات تجار الرقيق ومن قبائل « واياو Wa-Yaw ، فأمر بإطلاق الرصاص فشتت شملهم

---

(23) Dict. ozn. Biogp 1271

وبعد استقرارهم فى «ماجوميرو » إلى الجنوب من بحيرة « شيروا Shirwa » ترك صديقنا الباخرة « الرائد Pioneer » فى « تشيبيزا Tshibisa» وتقدم هو مع بعثته الـكشفية إلى الغرب ،مستخدمين حمالين وزوارق نقلتهم حول شلالات مرتشيزون حتى وصلوا إلى بحيرة نياسا فى الثانى من سبتمبر سنة ١٨٦١ وتجولوا فيها بالقوارب مستـكشفين الساحل الغربى .

وأضطرهم نفاد المؤونة وصعوبة الحصول على مؤن أخرى مع ما قاسوا من الجوع فاضطروا إلى العودة إلى تشيبيزا على الباخرة الرائد فى الثامن من نوفمبر .وأعدت الترتيبات لـكى تنقل الباخرة الرائد أخت الأسقف وزوجة لفنجستون من الـكاب وفى الثلاثين من يناير وصلت السفينة البريطانية (جورجون) Gorgon مقلة أخت الأسقف وزوجة لفنجستون ومسز بوروب (Burrup)زوجة أحد أعضاء البعثة وقارباجديدا أنشىء على نفقه لفنجستون الخاصة يسمى لادى نياسا Lady Nyassa .

وفى الرابع من إبريل عادت السفينة « جورجون » تقل السيدات وجميع أعضاء البعثة عدا زوجته واثنين من رفقائه صمموا على أن يبقوا . وفى الحادى عشر من إبريل بعد رحيل البعثة بأسبوع رحـــــل ومعه زوجته والجماعة إلى « شوبانجا Shupanga » ، ولـكن سقطت مسز لفنجستون صريعة الحمى ووافتها منيتها فى السابع والعشرين من إبريل ، ودفنت فى « شوبانجا » .

وعاد لفنجستون حزيناً إلى الزمبيزى فى نهاية نوفمبر سنة ١٨٦٢ واتجه فى مجرى شيرى حتى شلالات مرتشيزون ففـكر فى زيارة البحيرة والإتجاه لمسافة ما إلى الغرب والشمال الغربى إلى أن يصل إلى خط تقسيم المياه الذى يفصل « لوانجوا Loangwa » عن الأنهار التى تجرى فى البحيرة(٢٤)، ولـكن اتحاد الدوسنتاريا مع نقص الحمالين من الأهالى والمؤن منعه من إتمام فـكرته .

ولما كان الماء شحيحا فى الزمبيزى فقد صار متعذرا على الباخرة الرائد Pioneer

(24) Ency. B.p. 239

الراسية فيه الوصول إلى البحر فكان لا بد له أن ينتظر حتى يرتفع الماء فى ديسمبر. فاستغل لفنجستون هذا الوقت فى تنفيذ فكرته السابقة فدبر قاربا يحمله عبر شلالات مرتشيزون ولكنه تحطم من جراء أهمال الرجال وعندئذ نظم حملة من بحارة الرائد وصلت إلى « كوتا كوتا Kota-Kota » على شاطىء نياسا حيث جمع معلومات عن تجارة الرقيق ، ثم أتجه بهم غربا على طول الطريق العظيم إلى إفريقيا الوسطى الذى يؤدى إلى بحيرة « بنجوبيلو Bauguelo » والكونغو الأعلى ، فوصلوا إلى جوار نهر « لوانجوا Loangwa » وقيل له أنه على مسيرة عشرة أيام من بحيرة بنجويلو، ولكن ضيق الوقت وخشيته انتهاء عقد الرجال من الأهالى جعلاه يتراجع إلى بحيرة نياسا ومنها إلى الباخرة الرائد . التى أصبحت فى حالة سيئة حتى لقد فكر فى بيعها فى زنجبار .

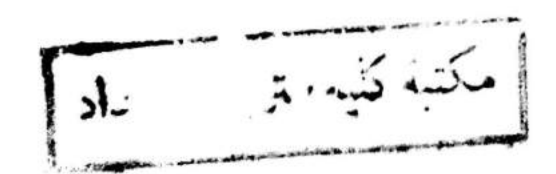
ولما لم يجد لها شاريا قام برحلة جريئة عبر المحيط الهندى إلى الهند فوصل عباى فى الثالث عشر من يونيو وكان موضع تكريم من السير « بارتل فرير Bartle Frere » حاكم الهند . وهناك أقترض لفنجستون مصاريف الرحلة إلى إنجلترا فوصلها فى الثالث والعشرين من يوليو سنة ١٨٦٤ .

الرحلة الأخيرة ١٨٦٦ — ١٨٧٣

اقترح « السير رودريك مرتشيزون » رئيس الجمعية الجغرافية الملكية البريطانية على لفنجستون أن يحل (مشكلة خط أو خطوط تقسيم المياه فى جنوب أفريقيا) . [٢٥]

---

26 — Perham p. 231



ومن أجل ذلك عين قنصلا بريطانيا فى وسط أفريقيا بدون مرتب وإعتمدت له الحكومة خمسمائة جنيه ، وأمدته الجمعية الجغرافية بخمسمائة أخرى

وفى منتصف أغسطس سنة ١٨٦٥ غادر إنجلترا إلى بمباى، وهناك باع زورقه « لادى نياسا »

ومنها أقلع إلى زنجبار فوصلها فى نهاية يناير، فاستقبله السلطان إستقبالا طيباً وزوده بخطابات توصية إلى زعماء العرب فى الداخل، وصحبه تسعة من الأفريقيين وثلاثة عشر جنديا هنديا فى الجيش البريطانى ، وعشرة من أهالى جزيرة يوحنا Johanna، وأربعة من منطقة نهر شيرى (Shire) وكان بين مرافقيه الأفريقيين ثلاثة ممن أعتقهم من الرق خلال بعثة الزمبيزى

عمد لفنجستون إلى السير بمحاذاة ساحل نهر (روفوما) الشمالى حتى مدينة « متاريكا Mtarika » فى الجزء الشمالى من إقليم (ياو Yao) ومنها إلى مدينة ماتاكا mataka ثم إلى « نياسا » فوصلها فى الثامن من أغسطس ودار حول الحافة الجنوبية لبحيرة « نياسا » إلى مقر زعيم مسلم يدعى « مبوندا Mponda » ومن هناك تابع سيره حول الخليج الجنوبى الغربى للبحيرة وكانت خطته أن يسير شمالا بغرب ويمد فى هذا الاتجاه عابرا نهر «لوانجوا Loangwa» قاصدا بحيرة تنجانيقا وفى مدينة « مارنجا Marenga » سمع رجاله إشـــاعات عن غزو الزولو للإقليم فلاذوا بالفرار تاركين لفنجستون وأصبحت جماعته الآن تتكون من أربعة فقط .

وإستطاع لفنجستون الحصول على قوارب (من مارنجا) مر بها حول طرف نياسا الجنوبى إلى مدينة كيمسوسا Kimsusa » ومنها إلى نهر و نجا عبر جبال كـ لـ فى السادس عشر من ديسمبر سنة ١٨٦٦

ولـكن أشد ما نزلت به من الضربات فقده للصندوق الذى يحوى جميع أدويته إذ هرب به أحد الحمالين وذلك وسط منطقة موبوءه بالأمراض فى وقت نزول المطر مما جعله يكتب فى مذكراته (كأنما تلقيت حكما بالاعدام)

وفى الثامن والعشرين من يناير سنة ١٨٦٧ عبر نهر « تشامبيزى Tshambezi الذى يصب فى بحيرة « بنجويلو Bagnweclo » ورحل خلال اقاليم من (الغابات المطرة ، والمخاضات التى تنزل منها الميـــاه) حتى وصل إلى « تشيتا بانجوا Tshitapangwa » يطلب فيها أدوية ومؤنا تقابله فى أوجيجى وهاجمته الحمى بقسوة وعنف فى مزرس فى إقليم « أولونجا Ulunga » ثم عاودته فى « يامبيتى Pambete » فى الطرق الجنوبى من بحيرة تنجا نيقا فى أبريل ، وألزمته الفراش أسبوعين حتى أصبح عاجزا عن الحركة مع نوبات من فقدان الوعى وشلل مؤقت فى الأطراف .

واستأنف سيره جنوبا وهو على هذه الحالة فعبر سلسلة من الجبال ونزل وادى « لوفو Lofu » فاستقبله العرب هناك إستقبالا طيبا . وأعاقته حرب نشبت فى إقليم « إتاوا Itawa » أكثر من ثلاثة شهور فى وادى « لوفو Lofu » .

وقد أفادته هذه الراحة الاجبارية حتى تنتهى الحرب ، فتعرف فى اثنائها على حميدى بن محمد (تيبو تيب Tippo Tib) الشهير ، وإستعاد صحته ، واستمد معلومات كثيرة من العرب ، وبعد إنتهاء الحرب سار إلى الشمال الغربى (٢٥) مع قافلة عربية فوصل بحيرة (مويرو Moero) فى الثامن من نوفمبر ، وقد إنهارت صحته تماما .

25— Dict. of N Biog. p. 1273
26 -- Perham p, 221

ومن الشواطئ الشمالية الشرقية لبحيرة (مويرو) إتجه جنوبا بقصد اختراق إقليم الزعيم الطاغية (كازيمبى Kazembe) فوصل بحيرة (بنجويلو) فى الثامن عشر من يوليو سنة ١٨٦٨ ومعه خمسة من الخدم وبصحبته بعض العرب، فكان أول أوربى يرى هذه البحيرة [٢٧]

وبينما كان يكتشف الطرف الشمالى لها كاد يلاقى حتفه على يد شعب (كازيمبى Kazembe) بسبب صداقته للعرب . ولكنه خرج سالما أخيرا من إقليم كازيمبى إلى (إتاوا Itawa) وبقى بعض الوقت يمرض نفسه ، ويحاول الوصول إلى قرار فى رأيه أن النيل ينبع من إحدى البحيرتين اللتين إكتشفهما : مويرو وبنجويلو

وفى بداية عام ١٨٦٩ بدأ رحلته إلى أوجيجى ، فوصل إلى الشاطئ الغربى لبحيرة تنجانيقا التى كان يعتقد أنها (بحيرة ألبرت Albert Nyanza) التى إكتشفها (بيكر Sir Samuel Baker) [٢٨] وكان هناك إحتمال أنها المنبع العظيم للنيل [٢٩] . وتمكن من أن يحصل على قارب من أحد العرب وسار بحذاء ساحلها متجها إلى الشمال محاذيا جانبها الشرقى ومتجها إلى أوجيجى التى وصلها فى الرابع عشر من مارس سنة ١٨٦٩ (كومة من العظام [٣٠] وهناك إكتشف أن الامدادات التى طلبها — وخصوصاً الأدوية — قد سرق معظمها ! فاضطر إلى طلب غيرها . وبعد إستراحة فى أوجيجى لمدة أربعة شهور عاد ثانية إلى عبور بحيرة تنجانيقا مخترقا إقليم (مانيما Manyema) قاصدا الوصول إلى نهر لوالابا Lualaba الذى كان يعتقد أنه رافد النيل المنمى ،

27— Ibid p. 233

28— Bakers p. 142

29— Fitz Gerald p. 92

30— Enc Brit p. 239

الذى يصب فى بحر الغزال وكان يطالعه باستمرار فى إقليم (ماينيما) فظائع تجار الرقيق ،

ولخيبة أمله الشديدة لم يجد أية إستجابة لطلباته المتكررة للمساعدة من زنجبار ووصله أخيرا عشرة رجال فى فبراير سنة ١٨٧١ أرسلهم فى الحقيقة تجار الرقيق من الهنود أو البانيان Banyan) الذين كانوا متخوفين من الكشوف التى سيقوم بها لأنها ستعوق تجارتهم

وأخيرا وصل إلى نهر (لوالابا) عند (نيانجوى Nyangwe) فى أول مارس سنة ١٨٧١ حيث مكث أربعة شهور يحاول عبثا الحصول على قارب وهناك حدثت مذبحة ماينيما التى شاهدها وأورد لها وصفا مفصلا فى المذكرات الأخيرة .

وقد قتل فى هذه المذبحة نحو الاربعمائة من الأطفال والنساء الذين لاذنب لهم فى السوق . وقد إستمرت المذبحة يومى الخامس عشر والسادس عشر من يوليو سنة ١٨٧١ . وشعر لفنجستون بالذنب وهو يصاحب (دوجومبى) إلى (لوماى) فاقترح على (دوجومبى) أن يقبض على القتله ويشنقهم ولكنه رفض لأنهم من رجاله ، وشعر لفنجستون أنه يتلظى فى الجحيم .

وقد أثرت هذه المذبحة على صحة لفنجستون وذهنه تأثيرا عميقا إلى درجة أنه رفض أن يسافر فى حراسة العرب مرة أخرى وفى طريقه إلى أو جيجى هوجم فى الغابة فى الوقت الذى تكالبت عليه العلل والأمراض والاجهاد ،

Lost Journals p.p. 125—139

وغارات تجار الرقيق المفزعة ، والنمنمية Cannibalism ، وزاد الطين بلة أنه عندما وصل إلى أوجيجي فى الثالث والعشرين من أكتوبر سنة ١٨٧١ وجد المؤونة التى أرسلت له قد باعها الشريف زعيم العرب فى أوجيجى لانه كان قد ظن أن لفنجستون قد مات فى الداخل

وكان انقطاع أخبار لفنجستون طيلة هذه المدة قداقلقت عليه العالم الذى رأى ضروره العمل على البحث عنه وانقاذه أن كان لايزال حيا . فاوفد من أجل ذلك هنرى ستانلى فوصل إلى زنجبار فى السادس من يناير سنة ١٨٧١ ثم إلى طابورة حيث شارك العرب حربهم ضد سيرا مبوزعيم النيامويزى ثم واصل سيرة إلى أوجيجي وهناك قابل سوزى وشوما خادمى لفنجستون فقاداه إلى سيدهما الذى كان يجلس منهوكا تحت شجرة . فبادره بقوله (دكتور افنجستون فيما اظن) .

قد كان لمجيء ستانلى أثر كبير على لفنجستون . فقد أنعشه بالطعام والأدوية التى حملها معه وبصحبته المرحة أيضا وبث فيه روحا جديدة لمواصلة الكشف (٣٣) .

بدأ لفنجستون رحلته مع ستانلى مصعدين فى بحيرة تنجانيقا فى قوارب ، وقد تعرضا لهجوم قبائل ذهب بلبها إساءات تجار الرقيق ، ولكن هدوء لفنجستون ورباطة جأشه أنقذها وأدهش رفيقه فى نفس الوقت وأوغلا شمالا ، وأمكنهما أن يثبتا اثباتا قاطعا أن نهر « روزيرى Rusiri » يصب فى بحيرة تنجانيقا وذلك بتتبعه إلى مدخله فاثبتا خطأ رأى « بيرتون Burton » الذى كان يعتقد أن نهر « روزيرى » ينبع من البحيرة وأثبتا أيضا أنه ليس للنيل مخرج من بحيرة تنجانيقا (٣٤) . وقفلا راجعين إلى أوجيجى وبعد تأخير لبعض الوقت سببه مرض

33— Perham p. 256

34— Fitzgeraldq' 92

ستانلى وقيام لفنجستون على تطبيبه وتمريضه ثم رحلا معا فى السابع والعشرين من ديسمبر سنة ١٨٧١ إلى « أنيانيمبى Unynyembe فوصلاها فى الثامن عشر من فبراير عام ١٨٧٢ .

وعرض ستانلى على لفنجستون العودة إلى الوطن ، وألح عليـــه ولـكن لفنجستون رفض العرض ، وقاوم الأغراء ، وصمم على البقاء ، ليـكشف العلاقة بين « نافورات هيرودوت » وبين النيل . فتركه ستانلى على مضض بعد صحبة أربعة شهور وكتب لفنجستون فى خطاباته بأنهما ، وافترقا فى فجر اليوم الرابع عشر من مارس سنة ١٨٧٢ ، ولم يكن أى منهما يعلم أن هذه هى المرة الأخيرة للقائهما .

وقد قابل ستانلى فى « باجامويو Bagamoyo » بعثه أرسلتها الجمعية الجغرافية الملـكية البريطانية وهيئات أخرى برياسة القومندان « دوسن Dawson » ، والملازم « هن Henn » ، والمسجل تشارلزنيو « Charles New » ، وأوزويل لفنجستون الابن الأصغر للدكتور لفنجستون . ولـكنها بعد مقابلتها لستانلى قفلت راجعة معه إلى انجلترا .

وقد ساهم لفنجستون فى المرحلة الأخيرة فى تحديد مشكلة النيل وكان قد ساهم قبله « بيرتون » « وسبيك » فى اكتشاف البحيرات العظمى التى تكون ملامح بارزة فى أفريقيا ، وساهم هو والآخرون فى توضيح العلاقة بين « البحيرات » والأنهار الرئيسية فى المنطقة مثل النيل والـكنغو والزمبيزى .

وكانت تسيطر على لفنجستون فكرة أن منابع النيل توجد فى منطقة بحيرة بنجويلو (٣٦) حتى أنه لما اكتشف بحيرتى « مويرو » ، « وبنجويلو » كان يقلب الرأى فى أيتهما المنبع الحقيقى للنيل واعتنق نظرية أن المجرى الرئيس للـكنغو — نهر لوفوا

35— pesham p. 256
36— Bhora p, 42 I

المخرج الشمال لبحيرة مويرو — ينساب إلى النيل الأعلى وكان لفنجستون مقتنعا بأن نهر لوالابا لابد أنه النيل الأعلى ولابد أنه يصب فى بحر الغزال (٣٧) ولم يجد من الضرورى إن يتحقق من ذلك بمتابعة النهر حتى « بحيرة ألبرت ولكنه كان يعتقد فى وجوب البحث عن منابع النيل جنوبا أكثر من ذلك حول بحيرة « بنجويلو » ومرتفعات كاتنجا وربما حول نهر لوالابا وبحيرة أخرى إلى الشمال وطبقا لذلك سار مع ستانلى إلى طابورة وعرض ستانلى على صاحبنا لفنجستون أن يذهب هو إلى زنجبار ويعمل على تزويد لفنجستون بالحمالين والأدوية وكل ماهو فى حاجة إليه خصوصا وأنه لم يكن مع لفنجستون إلا عدد قليل جدا من الخدم المخلصين .

وانتظر لفنجستون على أحر من الجمر فى « إنيامويزى » لمدة خمسة شهور حتى وصلة فريق من سبعة عشر رجلا وصبيا من المخلصين الاشداء اختارهم ستانلى ، وصلوا فى التاسع من أغسطس سنة ١٨٧٢ ، وفى اليوم الخامس والعشرين من أغسطس نفسه قام لفنجستون برحلة إلى تنجانيقا بكل حماس ، فوصل البحيرة فى الرابع عشر من أكتوبر وحاذى اقليمى « فيباوأولونجو « Fipa & Olungi » ثم اتجه جنوبا وغربا حتى وصل إلى نهر « كالو نجوزى Kolongosl » الذى يصب فى بحيرة مويرو . وكان فى تلك الأشياء يعانى من الدوسنتاريا ومرض البواسير .

طريق النهاية

فى يناير سنه ١٨٧٣ اخترق لفنجستون الأدغال الاسفنجية اللانهائية التى تقع شرق بحيرة بنجويلو ، متعرضا لمصاعب جمة . وكان هدفه أن يدور جنوبا حول البحيرة ، ثم يتجه غربا لاكتشاف نافورات هيرودوت (منابع النيل !)

37— pesham p. 256

وفى الرابع من أبريل سنة ١٨٧٣ عبر نهر تشامبيزى Chambezi . وتقدم على طول سواحل بنجويلو متمرضا لتعذيب أسراب البعوض والعناكب السامة والنمل اللاذع فزادت حالته سوءا على سوء حتى لقد سقط على الأرض عند إجلاسه على ظهرها حماره فى الحادى والعشرين من أبريل واضطر رجاله أخيرا إلى صنع نقالة بدائية خشنة فى اليوم التالى .

وفى مثل تلك الظروف يدهش الانسان عندما يجد هذا الرجل الفولاذى يواصل بحثه ، وفى الخامس والعشرين من أبريل يسال القرويين عما إذا كانوا يعرفون تلا ينبع منه أربعة أنهار [٣٨] فى الوقت الذى بلغت فيه حالته الصحيه من السوء درجة لم يستطع معها أن يكتب شيئا غير تاريخ وساعة الوصول . وبعدها بيومين — السابع والعشرين — كان آخر ما كتب فى مذكراته .

[٢٧ . غبت عن الوعى تماما وبقيت — أفقت — ارسلت لشراء ماعز حلوبا نحن على شوطىء موليلاوو »

وفى التاسع والعشرين من أبريل سنة ١٨٧٣ وصلوا به إلى قرية تشيتامبو Cbitambo على لوليمالا فى إقليم إيلالا ILala ، وفتح فمه ليسأل عن المدة التى يستغرقها الذهاب إلى نهر « لوابولا Lwapula وعندما عرف أنها « ثلاثة » أيام » قال : « يارب ! يارب وبعد أن نادى على (سوزى) ليعطيه بعض الكالوميل . قال له : حسنا ، تستطيع أن تخرج الآن .

وقضى اليوم راقدا شديد الضعف مضنى ، وكان الرجال يستعدون لعبور النهر فى اليوم التالى ، واستأجروا فعلا كوخا لاستعمال الدكتور لفنجستون . ولكن القدر كان يدخر له نهرا آخر يعبره ونصرا آخر فى . جنة الخلد .

ففى تلك الليلة ـ ليلة الثلاثين من أبريل سنة ١٨٧٣ ـ أرسل رجاله صبيا يراقب حاله فأخبرهم الصبي أن الدكتور راكع أمام سريره وبعد أن ناموا بعض الوقت نظر الصبي إلى سيدة فألفاه فى نفس الوضع ، فنادى على سوزى وشوما فوجدا الدكتور العظيم قد لفظ أنفاسه الأخيرة راكعا بجانب سريره ورأسه مدفونة بين راحتيه على الوساد .

مات لفنجستون شريدا عن وطنه ، وحيدا ، على فراش خشن ، تحوطه قلوب رجاله المخلصين الذين أظهروا نبلا وبطوله يستحقان التقدير والأعجاب .

أخيراً . . عاد إلى الوطن

أجتمع الرجال حول جثة سيدهم وقرروا قرارات كان لها دوى عبر التاريخ .. لقد قاموا بجرد مخلفاته وحفظوها فى صناديق من القصدير وقرروا أن يتماسكوا ويتعاونوا لحمل الجثة إلى الساحل ، وهى رحلة تبلغ حوالى ألف وخمسمائة ميل فى قلب بلاد وعرة خطيرة ، وحنطوا الجسم بطريقة بدائية ، ودفنوا القلب والأحشاء تحت شجرة ، وقرأ صبي صلاة الدفن ، وتغلبوا عـــلى خوفهم القبلى المتوارث من الموتى ، وحشروا جسمه فى أسطوانه من لحاء الشجر لفوها بخيش شراع .

واستغرقت رحلتهم حوالى تسعة شهور مات فى أثنائها بعض الأفراد وأوشك الباقى على الموت . . وتعرضوا لهجمات الوحوش المفترسة والمكوس الباهظة للقبائل[٣٩] ، وفى « كويهارا Kwihara » بالقرب من طابوره قابلوا الملازم

---

(93) pechamr p 273

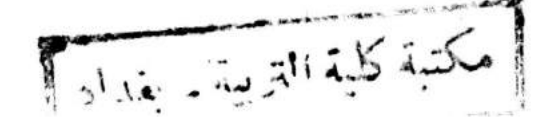
« كاميرون Cameron » عـلى رأس بعثة « الإنقاذ » لفنجستون ، وقـد حاول ضباط البعثة إقناع الرجال بدفن جثة الفقيد فى أفريقيا ولـكنهم رفضوا تماما . . فعملوا على ترحيل الجثة إلى زنجبار ومنها إلى إنجلترا . حيث دفنت فى مقبرة العظماء فى ويستنستر أبى وعمل صديقه القديم « هوراس وولر Horace Waller على نشر مذكراته فى عام ١٨٧٤ .

وإذا قدر لنا اليوم أن نزور قرية « تشيتامبو » فى افريقيا الوسطى لوجدت شاهدا[٤٠] يخلد ذكرى الرجل الذى وهب افريقيا كل شىء : حياته وماله وزوجته واستقراره العائلى ، فوهبته خلودا وذكرا طيبا على مر الزمن ؟

سعيد عبد السلام حسن نصير

---

(04) Enc Brit' p. 240



مراجع البحث

1— Hughes, Thomas, Levingstone

2— Perham Mergery, African Diseovery .

3— Levingstoae, David; Narratives of an expedition to The Zembezi.

4— Stanley. H. Howl Found Levingstone .

5— Sykes, Percy, A. History of Exploradion .

6— Walton, Johm, Six Explorers .

7— Encyclopedia Britannice .

8— The Dictisnary of National Biograpiry

أما بعـــد

يقوم طلبة معهد الدراسات الأفريقية بكلية الآداب — جامعة القاهرة — خلال دراستهم بأبحاث نظرية . وقد تناولت هذه الأبحاث خلال العام الدراسي ١٩٦٠/ ١٩٦١ عملية كشف أفريقيا خلال القرن التاسع عشر .

وقد بذل أغلب الطلبة في أبحاثهم جهوداً تستحق الذكر . ولذا آثرت أن أظهر بعض هذا الجهد . فاخترت من بينها هذه الأبحاث الثمانية التي تغطي عملية كشف أفريقيا — بعد أن نالت من التقدير درجة كبيرة — وقدمتها في هذا الحيز الضيق . بعد أن أجريت عليها قلمي اختصاراً وتعديلا . وعملية الاختصار وإن كانت شديدة قاسية ، إلا أن التعديل كان هيناً طفيفاً . وكان هـذا العمل الأول من نوعه بين طلبة جامعاتنا المصرية . ولذا أترك لجمهور الدارسين حق الحكم عليه . فإن رأوا فيه جهداً يستحق التقدير ، فهو جهدهم ، ولهم أجره . وإن رأوا فيه قصوراً يستحق اللوم ، فهو قصوري ، وعليّ وزره . ولكني آمل أن يكون ما يوجه إليه من النقد هينا حتى تماد التجربة في مجالات أخرى .

سدد الله خطانا جميعاً لما فيه خير الوطن .

دكتور زاهر رياض

فهرست

	صفحة
المقدمه	
بقلم الدكتور زاهر رياض	٥
مصاعب كشف افريقيا	
للاستاذ أحمد على أحمد اسماعيل	٢١
جهود العرب فى كشف افريقيا	
للاستاذة عايده العزب موسى	٤٧
كشف بحيرة طانا	
للاستاذ عمر عبد العزيز عثمان	٨٥
كشف منابع النيل الاستوائية	
للاستاذة عايده ثابت	١٠١
كشف الصحراء	
للاستاذة ثريا جودت	١٥٠
كشف النيجر	
للاستاذة عواطف عبد الرحمن	١٦٨
كشف الكنغو	
للاستاذ اسعد نديم	١٩٥
كشف الزمبيزى	
للاستاذ سعيد عبد السلام حسن نصير	٢٢٥

تصويب

صفحة	سطر	الصواب
١٠	٤	الملاح
١٢	٧	مصر
١٣	١	وربما
١٦	١٣	خطوط
١٨	٧	أيقن
١٩	٣	ترك
٢٣	١	اللذين
	٨	زراعيا
	١١	يعوضه
٢٩	٦	خطأ
	١٦	الوافدين
٤٢	١٨	عداء
٤٤	١٢	أحمد علي
٥٦	٢٠	المماليك
٥٧	١٣	رحالة القرن الرابع عشر
٥٨	١١	الخامس
٦١	١٦	فاس
٦٧	١٥	رحلته
٦٩	١٠	يحذف
٧١	٧	وعادت
	٢٠	بدو
٧٢	٥	توجهوا
	١٤	السنارية
٧٣	١٣	لوالده
٧٤	٧	منها
	٩	إحدى
	١١	الاقتصادية
	١٢	أهمها
٧٥	١٣	الخاص
	١٩	بالرحالة
٧٧	٧	على شاطئ
	٩	لقافلته
	١٦	على مسافة
٧٩	١٢	بئرا عذبا
٨٥	٨	جيش قمبيز
٨٥	١٤	يشرف على
٩٦	٨	من تحقيره
١٠٤	١٠	بحث
	١٣	لأعمال
١١٥	٧	Barth
	١٦	اشتراك
١١٧	٣	من
١١٨	٨	اكتشاف
١١٩	١٧	واصل
١٢٠	١	ثمرة
	١٥	شلالين
	١٥	ابحيرة
	١٨	جداول

صفحة	سطر	الصواب
١٢١	١٤	لرسو
١٢٨	٤	وصل
	١٧	نشبت
	٩	لجهوده
١٥١	٦	واكثر
١٥٥	٨	وكردفان
	١٨	فوصل
	٢٠	أسماه
١٥٦	٥	ورحل
	١٠	الأوروبيون
١٥٧	٩	الخامس
	١٥	التجارة
١٥٨	١	ارتاد
١٥٩	١٨	استقبله
١٦٠	٢	أجويلا
	٣	بألفة
	٩	مرزوق
	١٦	أول
	١٦	يرونها
١٦١	٥	طولية
١٦٧	٧	فواريه
١٧٠	٩	الهولنديين
١٧١	١٣	رفيقاه
١٨١	٢٠	وعللنها
١٧٥	١١	الحملة
١٧٩	٠٠	يشطب
١٢٠	١٣	قرى
١٩٠	٥	والتجارة
١٩١	٢	ألمانيا
١٩٢	٥	البريطانى
٢١٣	٦	شكسبير
٢١٤	٩	الرجال
٢١٥	١١	يذكرهم
٢١٦	٧	بعد
٢١٧	٨	آنذاك
٢١٨	١٣	رحلته
٢١٠	١٧	الأدلاء
٢١٩	٢٠	هذا
٢١٧	١٤	المشروعات
	٤	اتساعه
٢٢٠	٦	يبحر
٢٣٠	٦	الرءوس
٢٤٠	١٣	ان
٢٥٠	٧	بعض
٢٦٠	٩	فيرى
٢٧٠	١٧	الغاية
	١٨	علاقته
٢١٤	٢١	سمع
		شلال

مطبعة المعرفة
ت ٣٣٩٩٠